شرح الحِكَم الغُوثية

لشيخ الشيوخ سيدي أبي مَدين التّلمساني المغربي

تصنيف

العلامة أحمد بن إبراهيم بن علان الصِّديقي الشَّافعي النَّقشبندي

المتوفى ١٠٣٣ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الآفاق العربية

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الكريم الجوَّاد، مفيض النوال على من شاء من العباد، معطي كل قابلٍ ما يستحقه بحكمته على حسب ما اقتفته إرادته في سابق أزليَّته، ظهر في الأشياء ظهور الشمس في الكوة ذات الزجاج، فتمايزت أشخاصها على حسب ما قبله كل قابلٍ من المزاج، وهو في ذاته واحدٌ لا يَتَكثَّرُ بتكثُّر المظهر، كما أن نور الشمس لا يتغير بتعدد ما برزت فيه من الصور، والصلاة والسلام على منبع الأسرار واللطائف، قطب دائرة الوجود ومأمن كل خائفٍ، أوَّل مظهرٍ للذات العليَّة، معدن جميع الكمالات الملكوتيَّة، مَنْ كلَّت الألسن عن الثناء على شمائله، وقصُرت العبارات عن الإحاطة بفضائله وفواضله، وعلى آله وأصحابه الحائزين قصب السبق في مضمار القربات، المسارعين طلبًا لرضا الربِّ في كل نوعٍ من أنواع الخيرات، وعلى كل عبدٍ مصطفًى وارثٍ لأحوالهم السنيَّة، ومقتفي نهجهم في أفعالهم المرضيَّة البهيَّة إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فهذا كتاب شرح حكم سيدي أبي مدين غوث الأغواث -قدس الله سره- وهو أحد شروحه الثلاثة التي وصلت إلينا، فالأول شرح الشيخ باعشن المسمّى «البيان والمزيد المشتمل على معاني التنـــزيه وحقائق التوحيد» وقد سبق لنا تحقيقه، وهناك كتاب المواد الغيثية شرح الحكمَ الغوثية للشيخ العلاوي في ٣ أجزاء، وهو أوسع شروح الحكم.

وأما كتابنا هذا المحقق مخطوطه لأول مرة، فهو من أهم شروح الحكم الغوثية حيث الإيجاز مع الاستيعاب، وتحقق الاستفادة من المراد، ولم لا وهو الشيخ ابن علان شارح الكتب والقصائد الصوفية؟ فعرف بسبقه في شرحه وانفراده بوضعه.

فلذلك سارعت في تحقيق هذا الكتاب النافع ليضم إلى الكم الذي حققناه في منوال الحكم من قبل.

فضبطنا نصه بعد نسخه، وصححناه وقابلناه على أصول متن الحكم، ثم ترقيمه وتفصيله ووضع بعض فروقه المهمات، وتخريج أحاديثه، وعزو آياته، والتوثيق والتعليق بما يستحسن ويفيد.

وقد كان اهتمامي بتحقيق تراث الحكم شاغلاً لي ، لأهميته في سلوك المريد، ومعرفته، وعلمه.

فضلاً عن دعوة شيخي لي بتحقيق الحكم الصوفية وبالأخص حكم سيدي أبي مدين الذي أفادنا بنفائس أسرارها، وأخرج من ثناياه بشرحه درر مكنونها، ولقي ربه بعد أن أفاض بأكثر من نصفها، وتلك مشيئة الله.

فرضي الله عنك سيدي ومولاي الشيخ مصطفى بن عبد السلام وأسكنك فسيح الجنان، والله الم

وفق لكل خير رشيد بجاه الهادي المصطفى خير الأنام.

ترجمة المصنف

هو الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن إبراهيم المكي المعروف بابن علان الصديق الشافعي

كان إمام التصوف في زمانه، وهو من العلم في المرتبة السامية، أخذ عن الشيخ تاج الدين النقشبندي وانتفع به خلقٌ كثير، وبالجملة فإنه من العلماء الفحول.

ولد بمكة سنة ٩٧٥ هـ، وتوفي سنة ١٠٣٣ ثلاث وثلاثين وألف، ودفن بالمعلاة بالقرب ممن قبر أم المؤمنين السيدة خديجة.

نشأ ببلده وحفظ القرآن بالقراءات، وحفظ عدة متون في كثير من الفنون، وتفقه لجماعة، وتصدر للإقراء، وباشر الإفتاء، وجمع بين الرواية والدراية والعلم، والتحقيق.

وهو ابن عمّ الشيخ محمد على بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علان البكري الصديقي الشافعي.

المولود بمكة ٩٩٦ هـ، وتوفي ١٠٥٧، ودفن بالمعلاة بالقرب من قبر شيخ الإسلام ابن حجر المكي رحمهما الله تعالى.

وقرأ الشيخ محمد بن علان صحيح البخاري في جوف الكعبة أيام بنائها لما انهدمت في سنة ١٠٣٩ هـ، من جهة الحطيم بسبب سيل عظيم.

حكى تلميذه الفاضل محمد النبلاوي الدمياطي نقلاً عنه أنه قال: رؤي النبي ﷺ في المنام وهو يعطي الناس عطايا فقيل له يا رسول الله، وابن علان، فأخذ يحثو له بيده الشريفة حثيات.

وهو صاحب دليل الفالحين، وشرح الأذكار، وشمس الآفاق فيما للمصطفى ﷺ من كرم الأخلاق.

من تصانيفه:

- رسالة في طريق السادة النقسبندية.
- شرح قصيدة السودي في التصوف.
- شرح رسالة الشيخ رسلان في التوحيد.
- شرح قصيدة أبي مدين «ما لذة العيش».

- شرح قصيدة: «من ذاق طعم شراب القوم».
- شرح التعرف في الأصلين والتصوف لابن حجر الهيتمي سماه «التلطف».
- شرح حكم سيدي أبي مدين (كتابنا هذا).
- شرح قصيدة الشهرزوري في التصوف.

قلت: وهناك خلط وقع من المؤرخين في الترجمة بينه وبين الشيخ محمد بن علان المكي في نسبة مؤلفات كل منهما للآخر .. هذا والله أعلم بالصواب.

وانظر ترجمته: بيت الصديق للبكري (١٨٩)، الأعلام للزركلي (١/٨٨)، معجم المؤلفين (١/١٠٢)، هدية العارفين (١/٨٤)، خلاصة الأثر (١/١٥٧).

وكتبه العبد الفقير إلى ربه: أحمد فريد المزيدي الشافعي الأزهري المصطفوي.
في السابع والعشرين من شهر رجب، الموافق يوم الإثنين، سنة ١٤٢٧ هـ.
وذلك بدارنا الحقيقة المصطفوية لتحقيق تراث السادة الصوفية، بالقاهرة.
جوال: ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

* * *



ترجمة شيخ الشيوخ

قال في المعزى: هو الشيخ العارف الصدّيق الأكبر **أبو مدين** شعيب بن الحسين الأنصاري؛ أصله من حصن قطنيانة من عمل أشبيلية، ثم نزل بجاية، وأقام بها إلى أن أمر بأشخاصه إلى حضرة مراكش، فمات وهو متوجّهٌ إليها بموضعِ يُسر.

قلت: وهو وادٍ قريبٍ من تلمسان عام أربع وتسعين وخمسمائة.

وقيل: عام ثمانية وثمانين، والأول أشهر ودفن بالعباد خارج تلمسان، كذا قاله التادلي.

وقال أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري في التعريف به: كان زاهدًا فاضلاً عارفًا بالله.

وقال أيضًا: كان مقبوضًا بالزهد والورع؛ مبسوطًا بالعلم، قد خاض من الأحوال بحارًا، ونال من المعارف أسرارًا، وخصوصًا مقام التوكُّل لا يشق عليه غباره، ولا تجهل آثاره.

وقال أيضًا: كان مبسوطًا بالعلم، مقبوضًا بالمراقبة، كثير الالتفات إلى الله تعالى بقلبه حتى ختم الله له بذلك.

وقال أبو العباس زروق: كان يدخل خلوته بـــ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

ولها خاصية في مقام التوكُّل، ولذلك كان أبو مدين لا يشق له فيه غبار، ولا يلحقه من السباق المضمار.

وقال صاحب النجم في التعريف به: سيديَ أبو مدين سيد العارفين وقدوة السالكين، كان فردًا من أفراد الرجال وصدرًا من صدور أولياء الله الأبدال، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة، وأنار به معالم هذه الطريقة، وأقامه ركنًا من أركان الوجود، وأظهره بالبلاد المغربية هاديًا وداعيًا للخلق للملك المعبود، فقُصد بالزيارة من جميع الآفاق والأقطار، واشتهر بـــ «شيخ الشيوخ في الأمصار».

وقال ابن بادس وابن الخطيب وابن الزيّات وغيرهم من المعنيين بأخباره: إنه خَرج على يده ألفُ شيخٍ من أولياء الله تعالى؛ كلهم ظهرت له كرامةٌ أو كراماتٌ، وعُرفوا بإجابة الدعوة.

ونحن نذكر إن شاء الله طرفًا من أوصافهم فيما بعد؛ هذا على وجه التلميح والتبرُّك بآثارهم.

وكان شيخه سيدي أبي يعزى يقول فيه: إذا ذكر بين يديه أركان أندلسي؛ يعني: نِعْمَ الرجل الأندلسي شعيب.

فنال أبو مدين من بركاته وشاهد العجب العجاب من كراماته، وكان يتكرَّر إلى مجالس العلماء.

قال التادلي: سمعت محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري قال: سمعت أبا مدين يُحدِّث ببدء أمره.

ويقول: كنت يتيمًا بالأندلس، فجعلني إخوتي راعيًا لهم لمواشيهم، فإذا رأيت من يصلي، أو يقرأ أعجبني، ودنوت منه وأجد في نفسي غمًّا؛ لأنني لا أحفظ شيئًا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي، فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القرآن والصلاة، ففرت فلحقني أخي، وبيده حربة.

فقال لي: والله لئن لم ترجع لأقتلنك! فرجعت ثم أقمت قليلاً، فقويت عزيمتي على الفرار، فأسريت ليلةً، وأخذت في طريقٍ آخر، فأدركني أخي بعد طلوع الفجر، أو قال طلوع الشمس، فقال لي: والله لأقتلنّك وأستريح منك، فعلاَّني بسيفه ليضربني، فتلقيته بعودٍ كان في يدي، فانكسر سيفه وتطاير قطعًا.. قطعًا.

فلما رأى ذلك بكى، وقال لي: يا أخي، اذهب حيث شئت، فذهبت إلى البحر وعبرت إلى طنجة، ثم ذهبت إلى سبته، فكنت أجيرًا للصيادين، ثم ذهبت إلى مراكش.

وقال أيضًا: أتيت إلى ساحل البحر، فإذا بخيمةٍ وإذا برجل خرج إليّ منها،

وظنّ أني هربت من النصارى، فرمى بمسمارٍ في رأس قصبةٍ في البحر، فأخرج لي حوتًا، وشواه لي فأكلته، فكان كلما جُعْت فعل معي كذلك.

ثم قال لي: يا هذا، أراك تروم أمرًا، وإن الله لا يُعبد بالجهل، اذهب إلى الحاضرة لتتعلم دينك.

قال: دخلت مدينة سلا، ثم مراكش، فأدخلني الأندلس الذين كانوا بها في جملة الأجناد، وكتبوني في ديوانهم، فكانوا يأكلون الطعام ولا يعطوني منه إلا القليل، أو قال: اليسير.

فقال لي بعضُ النصحاء: إن أردت أن تتفرَّغ لدِينك فعليك بمدينة فاس، فتوجَّهت إليها.

ولزمت جامعها: يعني جامع القرويين، وتعلَّمت الوضوء والصلاة، وكنت أجلس على حلق الفقهاء والمذكرين، فلا أثبت على شيءٍ من كلامهم إلى أن جلست إلى شيخٍ ثبت كلامه في قلبي.

فسألت: من هو؟ فقيل لي: أبو الحسن بن حرزهم، فأخبرته أني لا أحفظ إلا ماسمعته منه خاصةً، فقال لي: هؤلاء يتكلَّمون بأطرافِ ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان، وأنا قصدت الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل القلب، ثم ذكر ماقدَّمناه من زيارته لأبي يعزى إلى آخره في الباب الذى قبل.

وقال أبو عليّ حسن بن محمد الغافقي الصوَّاف: وكان قد صحب أبا مدين نحوًا من ثلاثين سنة ما فارقه إلى أن مات بــ «يسير»؛ كذا ذكره ابن الزيات قال:

سمعت الشيخ أبا مدين يقول: كنت بقطنيانة فأردت التخلّي عن الدنيا، فسرت قاصدًا نحو بحر المغرب ثلاثة أيام أو أربعة أيامٍ، فلاحت كدية على البحر عليها خيمةٌ، فخرج إليّ منها شيخٌ وليس عليه إلا ما يواري به.

أو قال: ما يستر عورته، فنظر إليّ، وظن أني أسيرٌ فَرَرْتُ من أرض الروم، فسألني عن شأني فأخبرته، فأخذ حبلاً وربط في طرفه مسمارًا، فرمى به في البحر فأخرج حوتًا شواه لي، فأكلته فأقمت عنده ثلاثة أيام كلما جُعت.

رمى بالحبل والمسمار في البحر، فيخرج الحوت ويشويه، وآكُلَه، ثم بعد ذلك قال لي: أراك تروم أمرًا فارجع إلى الحاضرة، فإن الله لا يُعبد إلا بالعلم، فرجعت إلى أشبيلية، ثم ذهبت إلى شريش ومن شريش إلى الجزيرة الخضراء، فجزت البحر إلى سبته، وذهبت إلى فاس فلقيت بها الأشياخ، فسمعت رعاية المحاسبي على الشيخ أبي الحسن بن حرزهم، وإحياء علوم الدين، وسمعت كتاب السنن لأبي عيسى الترمذي على أبي الحسن على بن غالب.

وأخذت طريقة التصوُّف عن أبي عبد الله الدقّاق وأبي الحسن السلاوي، ورأيت في بعض التقاييد قال: ولبست الخرقة من أبي يعزى والله أعلم.

وإن أبا يعزى لبسها من شيخه أبو شعيب.

وإن أبا شعيب لبسها من أشياخه؛ مع أن الطريق عندهم على قسمين:

الأولى: صحبة واقتداء لا غير.

والأخرى: صحبة واقتداء ولبس الخرقة وتلقين الذكر والمُصافحة.

والكل معروف لا يُنكره إلا جاهلٍ غيرِ ممارسٍ للطريق وأهله.

قال الشيخ أبو مدين: فكنت أقيم بفاس آخذ آية من القرآن أو حديثًا، فأخرج إلى موضعٍ خالٍ متصلٍ بالساحل، فإذا فتح لي في العمل بالآية والحديث؛ عُدت إلى فاس فأخذت آيةً أو حديثًا؛ كذلك فأعمل عليهما، وكان الموضع الذي آوي إليه في الجبل عمرانًا طرأ عليه الخراب، فلم يبقَ من بنائه شيءٌ قائمٌ إلا مقصورة المسجد خاصة، فكنت إذا قعدت فيها تأوي إليَّ غزالةٌ، فلا أدري هل كانت تأوي إلى أهل ذلك المكان فرحلوا عليها وبقيت تأنس بالمكان؟ أم كانت تأوي إليّ؟ فكانت تأتيني متى جئت إلى ذلك المكان، فتشم من قربي إلى قدمي ثم تربض أمامي، فذهبت يوم الخميس إلى فاس، وبِتُّ بها ليلة الجمعة، فلقيت رجلاً من الأندلس أعرفه، فسألت أبا عبد الله بن أبي حاج عن ثوبٍ كان لي عنده فقال لي: وما تصنع به؟ فقلت له: أريد أن يباع ويدفع ثمنه إلى هذا الرجل، ويكون ذلك ضيافته فقال لي: خُذْ عشرة دراهم

وادفعها له، فأخذتها وطلبت الرجل، فلم أجده فصررت الدراهم في صرة وجعلتها في مئزري.

وفي بعض التقاييد: فجعلتها في حوزتي، وخرجت إلى الجبل، فمررت بقرية على طريقي فيها كلاب كثيرة كنت إذا مررت بها تبصبص إلى الكلاب، وتدور بي فلما قربت من تلك القرية أنكرتني كلابها ونبحتني، وما تخلصت إلى أن حال بيني وبينها أهل القرية، فلمّا وصلت مكاني من الجبل؛ جاءتني الغزالةُ فشمتني، ثم تنحت عني، ونظرتني نظرًا منكرًا، ونطحتني مرة ثانية وثالثة بقرونها.

وأنا أتلقّى قرنيها بيدي، فتفكّرت في سبب ذلك وفي إنكار كلاب القرية لي، فعلمت أنه من أجل الدراهم التي صررتها في مئزري، فنـزعتها ورميتها ناحية، فنظرت إليّ، وربضت أمامي على عادتها، فبت بذلك المكان فلما كان الصباح أخذت الصرة، وحملتها إلى فاس، فوجدت الرجل الذى أعددتها لضيافته فدفعتها إليه، ثم سرت إلى الجبل على عادتي فمررت بالقرية التي في طريقي، فبصبصت الكلاب على عادتها، ولم تنبحني فوصلت موضعي من الجبل، فجاءتني الغزالةُ على عادتها، فشمّت السلهامة من قرني إلى قدمي، فربضت أمامي على عادتها.

وكانت له مجاهداتٌ ومكابداتٌ وخصوصًا في مقام التوكُّل، وله كراماتٌ كثيرة.

وقال أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصوّاف: كان أبو مدين يقول: الملتفت إلى الكرامة كعابد وثنٍ، فإنه إنما يصلي ليرى كرامة.

وكان ﷺ يقول: رأيت من واصل ستة أشهر، وذكرت بين يديه العقبات السبع، الذي ذكر حجة الإسلام في كتابه «المنهاج» فقال: رأيت من قطعها في سبعين عامًا، قطع كل عقبة منها في عشرة أعوامٍ، ورأيت من قطعها كلها في ساعةٍ واحدة كإبراهيم بن أدهم الذى قطعها في ساعة وجاءه التوفيق من الله.

وحدّث التادلي: عن أبي عبد الله محمد بن خالص عن أبي الربيع المديوني قال: وصل رجلٌ من المكاشفة إلى تلامذة أبي مدين، فأنكرَ عليهم بعضَ أمورهم، فأعلموا

بذلك أبا مدين، فقال لهم: دعوه فإنه سيُسلب ما وهب، فسُلب والعياذُ بالله المكاشفة، وصار كأحد العامة بتغيُّر قلب الشيخ.

وكان ﷺ جعل كتاب الإحياء نُصب عينيه.

وكانت تُقرأ رسالة الأستاذ القشيري ﷺ بين يديه ويفيض عليه من أنواع المعارف ما لا يوجز من العلوم اللَّدنية.

فهو يومًا لما انعقد المجلس فيما حدث عنه الثقاة وأراد القارئ على العادة أن يبدأ بالقراءة، فنظر إليه الشيخ، وقال له: أمهل! ثم التفت إلى رجلٍ وإذا هو آتٍ بنية الاعتراض والانتقاد على الشيخ، فقال له: لم جئت؟

قال له الرجل: جئت لأقتبس من أنوارك، قال له: ما الذى في كمك؟ قال له: المصحف، قال أبو مدين: أخْرِجه، فأخرجه الرجل من كمه، قال له: اقرأ أول سطر، ففتحه وقرأ أول سطر.

فإذا فيه مكتوبٌ: ﴿**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٩٢].

قال له الشيخ أبو مدين: أما يكفيك هذا؟ فتاب الرجل مما اعتقد، ولما كمل مرغوبه من القراءة على أشياخه، وانفتحت بصيرته، واستنارت سريرته، وكان على بينةٍ من ربه، ومات بعض أشياخه، وانتقل إلى البلاد المشرقية، فلقي بها الأشياخ المقتدى بهم، واقتبس من أنوارهم، واستفاد من زهّادها، وأخذ من أعلام علمائها وأوليائها، ثم إنها عرفته بالشيخِ الماجدِ المعلمِ؛ فصيح اللسان، والقلم راسخ الجنان، والقدم تاج العرفين أبي محمد عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيرًا من الحديث، وألبسه خرقة التصوُّف، وأودعه كثيرًا من أسراره وحلاّه ملابس أنواره.

ويُحكى: إن سيدي أبا مدين كان يفخر بصحبته بسيدي عبد القادر، ويعده من أفضل مشايخه الأكابر، ثم رجع إلى المشرق وأنواره زائدةٌ في الشروق.

وكان يتردّد في إفريقيا، ثم لما كان آخر حاله استقر ببجاية، فحببها الله له.

وقال: إني وجدتها معينة على طلب الحلال.

قال صاحب النجم: كان أبو مدين رحمه الله من أعلام العلماء، وحفّاظ الحديث، وكانت الفتاوى ترد عليه في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت.

وكان له مجلسُ وعظ يتكلّم فيه على الناس من كلّ جهةٍ، وربّما مرت به الطيور وهو يتكلم فتقف في الهواء، وربما مات بعضها، وربما يموت في مجلسه من أصحاب الحب كثيرٌ.

ويحكى عنه: إنه بلغ عنه في قراءة القرآن إلى سورة: تبارك الملك.

وشيخه سيدي أبي يعزى روى: إنه قرأ إلى آخر سورة الزلزلة فلما بلغ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧،٨].

قال: حسبي.

ولما استقر الشيخ ببجاية زارته علماؤها وساداتها وكبارئها، وعرفوا قدره في الحال والعلم والمقال إلا أبا محمد عبد الحق الأشبيلي، وكان مقدمًا في العلم والحديث والوعظ. وله كتاب: الأحكام الكبرى والصغرى في الحديث، والعاقبة في التذكير وله تآليف حسان، لم يصل إلى الشيخ.

وقال: إن كانت العلوم فهي معنا، وإن كان العمل فنحن فيه على الجد.

فرأى النبي ﷺ وهو يقول له: سِرْ إِلَى أَبِي مَدين، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.

فلما استيقظ قال: سبحان الله! أنا أقرأ القرآن بالسبع، وأحفظ عليها التفسير بتوجيهاته والحديث وغير ذلك، وما هذا؟ فتربّص.

فلما كانت الليلة الثانية رآه أيضًا، فقال مثل مقالته، ثم لما كان الليلة الثالثة رآه فعزم عليه فاستيقظ، وقال: هذا أمرٌ أراد المولى إبرازه، فاتفق أنه التقى بالشيخ الفقيه القاضي الصالح أبي علي عبد الحق المسيلي صاحب التذكرة أيضًا، وغيرها في أصول الدين، وذلك أنهما كانا متصاحبين في الدين والعلم والعمل، ومتآخين على الزهد واليقين واتباع سلف المؤمنين، فاتفق رأيهما على الاجتماع به حتى يسمعا كلامه، وقد كانا يسمعا كلامه، وقد كانا سمعا عنه من غرائب العلوم وعجائب الفهوم

وأسرار المعارف من العلم المكنون، وأرادا أن يطلعان على ما عنده.

فذهبا إليه إلى المسجد الذي يجلس فيه مع خواص أصحابه، فدخلا عليه فوجداه يفيض في أمورٍ، ويستخرج الدرر من قيعان البحور، فعلما فضله، وأنهما لم يدركا رتبته فسلَّما وجلسا.

فلما تمّ ودَعَا؛ قَاما وسلّما عليه، فقال لهما بديهة: أما هذا؛ فالفقيه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي.

وأما هذا؛ فأبو علي المسيلي، فقالا: نعم، فقالا له: بلغنا عنك أنك لم تجاوز سورة تبارك الذي بيده الملك.

فقال لهما: هي كانت سورتي، ولو تعديتها لاحترقت، ثم التفت إليهما.

وقال لهم بلغةٍ صوفية قيل لي: بي قل، وعلي دل، وأنا الكل.

فانفصل مجلسهما وقد عرفا فضله، وقد علما أن لله مواهب لا تسعها المكاسب، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأتاه حينئذٍ الشيخ عبد الحق بنيَّةٍ خالصةٍ، فلما دخل عليه كاشفه، وقال له: أمرك النبي ﷺ أن تقرأ عليَّ القرآن، فسمّى فقرأ الفاتحة حتى ختمها.

قال له الشيخ أبو مدين: اقرأها على الوجوه السبع، ثم قال له: فسِّرها لي ففسرها بأتم الوجوه إلى أن بلغ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥].

ثم قال له الشيخ: لو كنت تستعين بالله لما استعنت بالسلطان والوزير، فتكلّم أبو محمد كالمستعذر.

فقال له الشيخ: إن كنت متعلِّمًا، فاسمع واشتغل بما يعنيك، والزم بيتك، فإن الله يكفيك وعن سائر الخلق يغنيك. فقال: صدقت، ففعل.

فرُوي أن الأمير والوزير وردا على بلده فلم يخرج إليهما على ما كان من عادته، فسألا عنه ، فتكلم من له غرض، قال: إن عبد الحق تكبّر عليك.

فقال الأمير: العلم يُؤتى إليه ولا يأتي! فزاره في داره.

فصار بعد ذلك أبو محمد إذا دخل على الشيخ أبي مدين؛ يجد من المواهب الربانية والعلوم اللدنية والعجائب والغرائب كما ذكر بعض ذلك ابن العربى الحاتمي المعروف بـــ «ابن سراقة».

وحكاية الرؤيا ذكرها أبو زيد عبد الرحمن التنملي الفهري المعروف بـــ «الفرمي»، وله كلامٌ في التصوُّف شهير دوّنته الأئمة.

فمن بعض كلامه قال ﷺ: إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَدّعي مَعَ اللهِ حَالاً وَلَيْسَ عَلى ظاهِرِه شَيْءٌ شاهدٌ فَاحْذَرْهُ.

وقال ﷺ: حُسْن الْخلقِ مُعَامَلَةُ كُلّ شخصٍ بِمَا يُؤانسَه ولا يُوحشه، فَمَع الْعُلَمَاءِ بِحُسْن الاستماعِ والافتقارِ، ومَعَ أَهْلِ الْمَعْرفةِ بِالسُّكُونِ والانتظارِ، ومَعَ أَهْلِ الْمَقَامات بالتوحيد والانكسار.

وقَال ﷺ: الْحَقُّ تَعَالَى مَطَّلعٌ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائرِ فِي كُلّ نَفْسٍ وَحَالٍ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ رآه مؤثرًا له حَفِظَه مِنْ طُوَامِ الْمحَن وَمُعضلات الْفِتَنِ.

وسُئل عن التسليم فقال: هُوَ إِرْسَالُ النَّفْسِ فِي مَيْدَانِ الأحْكَامِ، وَتَرْك الشَّفَقَةِ عَلَيْهَا مِنَ الطَّوَارِقِ وَالآلامِ.

وقال: مَنْ رُزِقَ حَلاوَة الْمُنَاجَاة زَالَ عَنْه النَّومُ.

وقال: مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَب الدُّنْيَا ابتلي بالذُّلّ فيهَا.

وقال: جَعَلَ اللهُ قُلوبَ أهلِ الدُّنْيَا مَحَلاً لِلْغَفْلَة وَالْوِسْوَاسِ، وَقُلُوبِ الْعَارِفِين مَحَلاً للذّكْرِ والاستئناسِ.

وقال: مَنْ عَرفَ نَفْسه لَم يَغْتَرْ بِثَنَاء النَّاسِ عَلَيْه.

وقال: مَنْ خَدَمَ الصَّالِحين ارْتَفَعَ بِخِدْمَتِهِم، وَمَنْ حَرَمَهُ اللهُ مِنْ إِحْتِرَامِهم ابْتلاهُ الله بِالْمُقْت مِنْ خلقه.

وقال: أَبْنَاءُ الدُّنْيَا تَخدِمُهُم الإِماءُ وَالْعَبِيدُ، وَأَبْنَاءُ الآخرةِ تَخْدِمُهم الأحْرارُ والكرماءُ.

وقال: انْكسَارُ الْعَاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلة الْمُطيع.

وقال: عَلامَةُ الإِخْلاصِ: أَنْ يَغيبَ عَنْكَ الْخَلْقُ فِي مُشَاهدةِ الْحَقّ.

وقال: الْعَارِفُ لا يَزَالُ يترقَّى، وَمِنْ نَفَائِسِ اللَّطَائِف يَتلقَّى، وَلَيْس لَه الْتفاتٌ إلى كِيت وكِيت، وَلا يقنعُ من الْبيت إلاَّ بربِّ البيت.

وسئل ﷺ عن الحبِّ؟ فقال: أَوَّلُه دَوَامُ الذِّكْرِ، وَأَوْسَطُهُ الأنسُ بِالْمَذْكُورِ، وَأَعْلاَهُ وَنِهَايَتُه أَلاَّ تَرَى شَيْئًا غَيْرُ الله تعالى.

وسُئل ﷺ عن الشيخ المحقق؟ قال: الشّيخُ هُو الذي شَهِدَتْ لَه ذَاتُك بِالتّقديمِ، وسرّك بالاحترامِ والتّعظيمِ.

الشّيخُ مَنْ هَذَّبَك بأخلاقه، وَأَدّبك بإطراقه، وَأَنَارَ بَاطنَك بإشْرَاقه.

وقال: التّوحِيدُ سِرٌّ قَوِيُّ الإشراقِ، يَرْفَعُ الْهمّة بِحُسْنِ الأخْلاقِ، وَهُوَ حَيَاةُ الْحَيَاةِ، وَمَا سِوَاهُ سَمَات.

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي الفضل بن سعد التلمساني: ومن شعر الشيخ الإمام القطب العلامة الهمام أبي مدين ﷺ ما أنشده لبعض المشايخ:

عِشْنَا رُحِمْنا حَلَّتْ البَرَكَاتُ ... زَادَ السُّرُورُ وَتَمّتْ الرّاحَاتُ

فَالوَقْتُ صَافٍ والزَّمَانُ مُسَاعِدُ ... وَالْعَيْشُ خصْبٌ وَالْمِيَاهُ فُرَاتُ

وَالْقَلْبُ سُر وَالبَشَائِرُ جَمّة ... وَالصّدْر رَحِبٌ وَالْحَيَاةُ حَيَاتُ

والسّعدُ مُقْبِلٌ قَدْ بَدَتْ أَعْلامُه ... وَلِكُلِّ سَعْد مُقْبِل آيَاتٌ

بِحَمْدِنَا ارتفعت عَلى رَغْمِ العِدَا ... شَرْقًا وَغَرْبًا هَذِه الأَمْوَاتُ

قال الشيخ ابن أبي الفضل للشيخ أبي مدين ﷺ: أنشده ابن جرير:

يَا مَنْ عَلاَ وَيَرَى مَا فِي الْقُلُوبِ وَمَا ... تَحْتَ الثّرى وَظَلاَمُ الليلِ مُنْسَدِلُ

أَنْتَ الْمُغيثُ لِمَنْ ضَاقَتْ مَذَاهبه ... أَنْتَ الدّليلُ لِمَنْ ضَاقَتْ به الْحِيَلُ

إِنّا قَصَدْنَاكَ والآمَالُ وَاثقةٌ ... وَالْكُلّ يَدْعُوكَ مَلْهُوفٌ وَمُبْتَهِلُ

فَإِنْ غَفَرت فَذُو فَضْلٍ وَذُو كَرَمٍ ... وَإِنْ سَطَوْت فَأَنْتَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ

ومن شعره ﷺ ورضي عنا به:

مُغيثٌ أيوب وَالكَافِي لَذي النّونِ ... يُتِيحُ لي فَرَجًا بِالكَافِ وَالنّونِ

كَـــمْ فَاقَة فَاقَتْ الآفَاق فرَّجَها عَني وَلَم يَنْكَشِف وَجْهي لِمن دَونِ

وقد خمّسها بعضُ العلماء فأحسن وأجاد.

وله ﷺ أدعيةٌ عجيبةٌ في الاستخارة وغيرها؛ فمن أدعيته في الاستـــخارة ماروواه ابن أبي الفضل في نجمه:

اللهم إن العلم عندك وهو محجوبٌ عني، ولا أعلم أمرًا أختاره لنفسي، فقد فوّضت إليك أمري، ورجوتك لفاقتي.

فأرشدني اللهم إلى أحب الأمور إليك، وأرضاها عندك، وأحمدها عاقبة؛ فإنك تفعل ما تشاء، إنك على كل شيء قدير.

قلت: ينبغي لمن أراد أن يستخير الله بدعاء هذا الإمام فليقدم الأدب.

وهو ما روي عن النبي ﷺ في الاستخارة، من صلّى ركعتين والصلاة على النبي ﷺ بعد الاستغفار، ثم ليدعُ بدعائه ﷺ، ثم يثني بدعاء هذا الشيخ، فإنه لا محالة محمود العاقبة، ومرجو الإجابة؛ إذ جمع بين السُّنة وأنفاس هذا الإمام، فإنه لا يُحرم من بركاته، فإن الله بفضله يدله لأحسن الطريق.

ومن أدعيته المأثورة:

ما رواه صاحب النجم، وغيره عن سيدي محمد بن يحيى، وقيل: عن سيدي عبد العزيز البوبرجي رضي الله عنهما.

ويُقال أن له سرًّا عجيبًا في كشف الكروب، ودفع الملمات وهو هذا:

بخفي لطف الله، بلطيف صنع الله، بجميل ستر الله، ودخلت في كنف الله، وتحصنت بألف لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان ﷺ حافظًا للحديث، فمن مروياته عن أبي أُمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«وَعَدَنِي رَبي أَنْ يَدْخُل الْجَنة مِنْ أُمَّتي سَبْعِينَ أَلفًا؛ لا حسَابَ عَلَيْهِم، وَلا عذَابَ مَعَ كُلِّ أَلْفِ سَبْعُون أَلْف، وَثلاث حثيات مِنْ حَثياته»[1].

(١) رواه الترمذي (٤/٦٢٦).

قلت: وهذا قد روي فيه وحده قال ﷺ: «**سبعون ألفًا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، وهُم الذين لا يَرقون ولا يسْترقون ولا يتطيّرون، وعلى ربِهم يتوكّلون**»[١].

ورُوي: «سَأَلْتُ رَبي فَأَعْطَاني سَبْعون ألفًا يَدخلون الجنة بغيْرِ حساب، فقال عُمَر: يَا رَسُول! هَلا استزدته؟ قال: قد استزدته، قال: وَمَا زادك؟ قَال: كُلٍّ واحدٍ من السّبعين ألفًا المضاعفة يشفع في سبعين ألفًا، ففي الثالثةُ أوالرابعةً.

قال ﷺ: وثَلاث حَثيات، قال عمر حينئذ: يا رسول الله! إن الله قادرٌ على أن يُدخلهم كُلهم الْجَنّة بغيرِ حسًاب بِحثيّة واحدةً» [٢]، أو كما قال.

وتأمّل هذا مع ما جاء في أحاديث الرجاء من قوله ﷺ: «**أمَّتي كُلُّها مَرْحُومةٌ منهم؛ مَنْ يَرْحَمه اللهُ بصَلاته... الحديث**» [٣].

وقوله ﷺ لما تلا: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنَا منْ عبَادنَا فَمنْهُمْ ظَالمٌ لّنَفْسه وَمنْهُم مُّقْتَصدٌ وَمنْهُمْ سَابقٌ بالْخَيْرَات بإذْن اللَّه ذَلكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبيرُ**﴾ [فاطر: ٣٢].

ثم قال: «**كُلّهم في الجنة**» [٤].

وفي رواية: «**سَابقنَا سَابقٌ، وَمَقْتصدنا لاحقٌ، وَظَالمنا مَغْفُورٌ له**»[٥].

ومن مروياته ﷺ: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**شَفَاعَتي لأهلِ الْكَبَائر من أمتي**»[٦].

ومن مروياته ﷺ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه مسلم (١/١٩٩).
(٢) رواه مسلم (١/١٩٩).
(٣) رواه أبو داود (٤/١٠٥).
(٤) رواه البيهقي في الشعب (١/٢٠٨) والطيالسي (١/٢٩٦).
(٥) رواه الديلمي (٢/٣٣٥)، والرافعي في التدوين (٣/٣٣١).
(٦) رواه أبو داود (٤/٢٣٦)، والترمذي (٤/٦٢٥).

«النَفقَة كُلّها في سبيلِ الله إلا البناء فَلا خَيْرَ فيه»[١].

يعني: ما كان خارجًا عن الضرورة، وأما الضرورة ما التمسته الحاجة الفادحة، فلا بأس به، ويؤجز عليه؛ كذا فسروا الحديث... والله أعلم.

ومن مروياته بالسند المتصل إلى النبي ﷺ قال: **«مَنْ استَيْقظ منَ اللّيلِ، فأيقظَ أَهْله، وَصَلّيا رِكعتين؛ كُتِبَا مِنَ الذّاكرين الله كثيرًا والذاكرات»**[٢].

ومن مروياته: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال عليه السلام: «ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه سَتَر اللهُ كَنَفه، وَأَدْخله جَنّته؛ رِفْقٌ بِالضعيفِ وشفقةٌ عَلى الوالدين، والإحسان إلى المملوك»[٣].

ويحكى عنه رضي الله عنه: إنه كان ملازمًا للإحياء عاكفًا عليه، فمن مروياته فيه: إن الإمام الزاهد مالك بن دينار فَتر ليلة عن ورده من قيام الليل، قال: فرأيت في المنام امرأة لا تشبه نساءَ أهل الدنيا، وفي يدها رقعةٌ، فقالت لي: يا مالك أتُحسن أن تقرأ؟ فقلت لها: نعم فَدَفَعت إليّ الرقعة فإذا فيها مكتوب:

أَهمـــتك اللذائـــذَ وَالأمَــاني ... عَنِ الْبيضِ إلا وَأُنْس فِي الْجنَانِ

تَعِــيشُ مُخَلّــدًا لا مَــوْتَ فِيهَا ... وَتَلْهُــو فِي الْجنَانِ مَعَ الْحسَانِ

تَنَــبّه مِــنْ مَــنَامِكَ إن خَــيْرًا ... مِــنَ الــنّوْمِ الــتّهجُّد بِالْقُرآنِ

ورُوي: إنه وقع لــ «ذي النون» مثل هذا، فما نام بعدها إلا غلبة، حتى يُقال أن مالك صلّى الصبح بوضوءِ العتمة أربعين سنة.

قلت: واشتهر في زمانه أن أربعين من التابعين صلّوا الصبح بوضوءِ العتمة أربعين سنة، والله أعلم.

وقد نصّ على هذا: أبو طالب في قوته وغيره رضي الله عنه.

ويحكى عن ذى النون أنه أنشد في واقعته:



(١) رواه الترمذي (٤/٦٥١).

(٢) رواه أبو داود (٢/٧٠).

(٣) رواه الترمذي (٤/٦٥٦).

مَــنَعَ القــرآنُ بِوَعْــدِه وَوَعِيدِه مقلَ الْعُيُون بِلَيْلِها أَنْ تَهْجَعَا
فَهِمُوا عَنِ الْمَوْلَى الْجَلِيلِ كَلامه فَــرِقَابهم ذُلَّــت إِلَيه خُضَّعَا

ويحكى عنه ﷺ فيما نقله جماعة من العلماء كــ ابن الخطيب، وأبي الصبر، والعزفي وابن الزيات.

قال ﷺ: جاءني رجلٌ من الصالحين، فقال لي: رأيت البارحة في النوم حلقةً عظيمةً لجماعةٍ من الصوفية فيهم؛ أبو يزيد البسطامي، وذا النون المصري، وغيرهما من المشايخ؛ وهم على منابر من النور.

وأبو طالب المكي على منبرٍ عالٍ، وأبو حامد الغزالي على منبرٍ يقابله، وأبو طالب يسأل أولئك الصوفية وكل واحدٍ يجيبه على قدر علمه.

فقال أبو طالب لأبي حامد: أين غابت هذه العلوم التي يصرفها أبو مدين في دار الدنيا؟ فقال له أبو حامد: ها هو ذا عن يمينك فاسأله، فالتفت إليه أبو طالب، فقال له: يا أبا مدين! أخبرني عن سر حياتك؟ فقال له: بسرحياته ظهرت حياتي، وبنور صفاته استنارت صفاتي، وبنور أسمائه استنارت أوصافي، وبديموميته دامت مملكتي، وفي توحيده أفنيت همتي.

فسرُّ التوحيد في قولنا: لا إله إلا أنا، والوجود بأسره: حرف جاء لمعنى.

فبالمعنى ظهرت الحروف، وبأسمائه ائتلف كل مألوف، وبصفاته ظهر كل موصوف، ومراعاته له محكمةٌ، ومخلوقاته له مسلمةٌ؛ لأنه خالقها ومظهرها ومنه بدؤها وإليه مرجعها؛ كما أظهرها يوم: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾ [الأعراف: ١٧٢]. يا أبا طالب هذا لوجودك محركٌ، وهو الناطق والممسك، إن نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة، فالوجود به قائمٌ، وأمره في مملكته دائمٌ، وحكمه في خلقه عامٌ؛ كحكم الأرواح في الأجسام، به بانت على اختلاف أنواعها؛ منها اللسان للبيان وهو ﷻ مع ذلك لا يشغله شأنٌ عن شأن.

فقال أبو طالب: من أين لك هذه العلوم يا أبا مدين؟ قال له: لما أمدني بسره غرقت في وادٍ من بحر فضله، فامتلأ وجودي نورًا، وأثمر غيبةً وحضورًا، وسقاني شرابًا طهورًا، وأذهب ضلالاً وزورًا، فغشيت أنواره أخلاقي، فعسى في القيامة أن أنظر الباقي بالباقي، قلت: إنما قال أبو طالب لأبي حامد: أين أبو مدين والعلوم التي

يصرفها؟ فكأنها أجوبة عن الذين كانوا يُسألون ولم يجيبوا بالغرض من الحقائق التي كانت قصده، وكأنه بهذا إبان فخر أبي مدين، وتفخيم أمره، وأوضح عظيم مقامه؛ كما قيل: تَكَلَّمُوا تُعْرَفوا.

واعلم أعزك الله أن له من الإستقامة ما يشهد له بالكرامة بأكبر الكرامات، وكراماته لا تنحصر.

وما زالت مادته ظاهرة؛ كشيخه سيدي أبي يعزى، وسيدي عبد القادر.

ومن مناقبه: ما ذكره الإمام ابن بادس في شرحه للسينية التي سماها بـ «النفحات القدسية» عن الشيخ الفاضل الإمام الزاهد أكبر تلامذته سيدي أبو محمد صالح.

قال: قامت الحرب بالمغرب في جزيرة الأندلس وغلبت الروم على المسلمين، فأخذ الشيخ سيفه، وخرج إلى الصحراء في نفرٍ يسيرٍ، وأنا معهم، ثم جلس على كثيبٍ من الرمل، وإذا بين يديه خنازيرٌ من الروم قد ملأت البرية كثرة، فوثب الشيخ وصار بينهم، فاستل سيفه وعلا بها رؤوسها، فيضرب الفارس فيصرعه وفرسه، وما زال كذلك حتى صرع الكثير منهم، وولّت الروم بين يديه هاربةً، ورجع.

فسألناه بعد أن رجع إلى حسِّه، فقال: هؤلاء الإفرنج أخزاهم الله تعالى، فأرّخنا الوقت، فإذا هو وقت النصر، وجاءه المجاهدون بعد ذلك، وأكبّوا على رجليه، وقالوا له: يا سيدي لو لم تغثنا لهلكنا، وأقسموا له أنه لو لم يكن بين الصفين لفنوهم الكفار، ومن بقي أسروه، وأن المسلمين أهل الحرب كانوا يشاهدونه يصرع الفارس وفرسه وهو كذلك.

فلما تمّت الحرب، وانهزم المشركون لم يروه بعد ذلك، وكان بينه وبين الموضع أكثر من مسيرةِ شهرٍ.

قال أبو محمد صالح الدكالي: قدم أناسٌ من المشرق فاشتهوا عنبًا من المشرق في غير إبانة ، فقال لي الشيخ أبو مدين: يا صالح! ادخل البستان وأتنا بعنبٍ.

قلت: الساعة خرجت منه ولا شيء فيه، قال: بلى فيه.

فدخلت، فإذا الدوالي مملؤة عنبًا، فجئت، واحتملت، فأكلوا وأكلت معهم وليس فيه عجم.

وروي أبو العباس الورنيدي المعروف بـ «ابن الحاج في شرحه على النفحات القدسية» عن أبي محمد صالح وابن بادس عن أبي الحجاج الأنصاري قال: سمعت شيخنا أبا محمد عبد الرزاق الجزولي يقول: مَر شيخُنا أبو مدين ببعض القرى بالمغرب، فرأى أسدًا يأكل من حمارٍ افترسه، وصاحبه بعيد يبكي من الفاقة، فأمسك الشيخ بناصية الأسد أو قال: بأذنه، وقاده ذليلاً، وقال لرب الحمار: أمسك هذا واستعمله موضع حمارك، قال: أخافه، قال له: لا يستطيع أن يؤذيك.

فمر يقوده والناس يتعجبّون، ثم أتى به آخر النهار، وقال له: ياسيدي! أينما سرت يتْبَعُني، وأنا أخافه، قال الشيخ: اتركه لا بأس عليك، ثم قال للأسد: اذهب فمتى أذيتم بني آدم سلطتهم عليكم.

قلت: وهذه الحكاية تدل على أن الحكم له والتصريف، والأولى على البداية، وأن الأرض صارت له قدم.

وحكى الحريفشي وغيره قال: كان الشيخ أبو مدين من الأبدال، وهو عظيم القدر؛ صاحب الخواطر والخطوة والكرامات.

وكان يتكلّم في الحقائق بعد صلاة الصبح بمسجد بالخضراء بالأندلس، فسمع به رهبانُ ديرٍ يُعرَف بـ دير الملك، وكانوا سبعين نفرًا أو قال سبعين رجلاً، فجاء من أكابرهم عشرة أنفس للاختبار والامتحان، فتنكّروا ولبسوا زي المسلمين، ودخلوا المسجد، وجلسوا مع الناس، و لم يعلم بهم أحد.

فلما أراد الشيخ أن يتكلّم سكت حتى جاء رجلٌ خياطٌ قال له: ما أبطأك ؟ قال: يا سيدي جلست حتى استوعبت الطواقي التي أوصيتني عليها، والآن فرغت منها.

فأخذها الشيخُ منه ونهض قائمًا، ولبس كل واحدٍ من العشرة طاقية، فتعجّبوا الناس من ذلك و لم يعلموا بالخبر حتى شرع الشيخ في الكلام.

فكان من جملة قوله: يَا فُقَراء إذا هبّت نسماتُ القبول والتوفيق والفضل من

الحق على القلوب المشرقة أطفأت كل نورٍ.

ثم تنفّس الشيخُ فانطفأت قناديلُ المسجدِ كلُّها وكانت تنيف على ثلاثين، ثم سكت وأطرق فلم يجد أحدًا أن يتكلم؛ لعظيم الهيبة، أو يتحرّك.

ثم رفع رأسه وقال: لا إله إلا الله يا فقراء! إذا أشرقت أنوارُ العناية على القلوب الميتة أضاء لها كل ظلمة.

ثم تنفّس الشيخ فاشتعلت القناديل، وعاد لها نورها واضطربت اضطرابًا شديدًا حتى كاد يلحق بعضها بعضًا.

ثم تكلّم الشيخُ في آيةِ السجدة، فسجد وسجد الناس، فسجدوا الرهبان مع الناس خشيةَ الفضيحة والاشتهار.

فقال الشيخ في سجوده ودعائه: اللّهم إنك أعلم بتدبير خلقك، وَمصَالحِ عبَادك، وَإن هَؤلاءَ الرهبان قَدْ وَافقُوا الْمُسْلمين فِي لبَاسِهم وَالسُّجُود لَكَ، وَأَنا قَدْ غَيّرَت ظوَاهرَهُم وَلَمْ يَقْدر عَلى تغييرِ بَوَاطنهم غيْرك، وَقد أَجْلَستهم عَلى مَوَائد كَرَمك؛ فَانْقذْهم مِنَ الشِّركِ والطُّغْيَان، وأَخرِجهم مِنْ ظُلُمَاتِ الْكفرِ إِلَى نُورِ الإيمانِ.

فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود إلا وقد مضى عنهم الهجران والصدود، ودخلوا في دين الملك الصمد الواحد المعبود، فأسلموا وبلغوا المقصد.

فأتوا الشيخ وأسلموا على يديه وتابوا وبكوا وندموا على ما كان منهم، وكثر الصياح والبكاء في المسجد.

وكان مشهورًا، ومات ثلاثةُ أنفُسٍ في المجلس، ففرحِ الشيخُ بإسلامهم.

قلت: هذا الشيخ لم يثبت عنه أنه رجع للأندلس قطّ منذ خرج منها ولكن لما كان صاحب كرامات، وخوارقٍ عادات يمكن أن خرقت له العادة؛ كما اتفق له مع النصارى في القصة التي تقدّمت.

وكان من أبي شعيبٍ في صلاته على حجة الإسلام وهو بالمغرب، والغزالي بالمشرق، وكم لهم من مثل هذه الكرامات رضي الله عنهم!

قال الشيخ الحريفيشي بعد وروده لهذا الحكاية: هذه والله صفةُ الأولياءِ الأخيارِ، والسادات الأبرار؛ أمناء الله على عباده ورحمةٌ لهم في بلاده.

وقد ذكر حجة الإسلام في كرامات الأولياء: إن الأرض لهم خطوة يسيرون فيها كيف شاءوا.

وقال محمد بن سهل بن عبد الله لما سئل عن صفة الولي المحقق قال: ما أراد موضعًا إلا وجد نفسه فيه، وإذا شغله أمرٌ أقام الله ملكًا في موضعه يتكلّم بلسانه، فالناس يظنون هو وليس بِهو.

وقد استوفى هذا المعنى صاحب روض الرياحين: صدِّق بهم تَنَلْ فضلهم، وتتدارك بركاتهم، وإلا سلِّم لهم.

وإيّاك والتكذيب فتهلك مع الهالكين! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وقد صح من كرامات بعض أصحابه ﷺ أنه كان يصلّي الصبح في بغداد، ويأتي مكة، فيجدهم في ذلك الصبح بعينه.

وقد كان من الصدِّيقين من يصلي الصبح بمكة، والظهر بالمدينة، والعصر ببيت المقدس، والمغرب بجبل الطور، والعشاء بسد ذى القرنين، ويبيت إلى الصبح؛ فيصلي الصبح أيضًا بمكة.

فمنهم: مَن يطوي له الزمانُ، ومنهم: من يتسع له حتى يتلوا ما شاء من الذكر أو القرآن؛ كما صح ذلك من كرامات الصدراني موسى صاحب سيدي أبي مدين.

وكما حكى ذلك جمال الدين ولد شهاب الدين السهرودي في حجته المشهورة مع والده الشيخ المذكور، عام ثمانية وعشرين من القرن السابع وما أحسن قول أبي حفص عمر بن الفارض في تائيته في هذا المعنى:

وَفِّى سَاعَةٍ أَوْ دُونَ ذَلِكَ مَن تَلَى بِمجمُوعِه تَلى فِيهَا أَلْفَ خَتْمَةٍ

وقد ذكر في ذلك الفرغاني، وصاحب مختصره أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد العزيز المراكشي عجب العجاب.

ولولا الاختصار لأتينا من ذلك بما يثلج الصدور، ويرفع الوهم والإشكال عمّن أراد الله به أن ينفع بهم ممن سبقت له من الله العناية، وإلا فلا نجاة للغريق بالتكذيب إلا أن يتفضّل الله عليه فينقذه بالمحبة والتصديق والتسليم.

وذكر أبو العباس أحمد بن محمد الورنيدي المعروف بـــ ابن الحاج، والإمام أبو

علي الحسن بن أبي القاسم في شرحه على نفحاته القدسية: إن الشيخ أبا مدين مَرَّ في سياحته ببعض سواحل البحر، فأسرته الروم، فجعلوه في السفينة، وفيها جماعة من أسرى المسلمين، فمدوا القلوع، فرست السفينة ولم تتحرك مع قوة الريح، فخافوا أن يدركوهم المسلمون، وقالوا: لعلَّ هذا الشيخ من أصحاب السرائر، فأمروه بالنـــزول.

فقال لهم: لا أنزل إلا إن أطلقتم كل من في أسركم من المسلمين، فلم يجدوا بُدًّا من ذلك، وأطلقوهم وحينئذ تحرّكت السفينة وسارت.

وذكر أبو علي حسن فيٍ شرحه على النفحات أيضًا قال أبو محمد صالح: سمعت الشيخ أبا مدين -رضي الله عنهما- في عامٍ، أو قال: في سنة ستين وخمسمائة يقول: لقيت أبا العباس الخضر، وقد سألته عن مشايخ المشرق والمَغرب في عصرنا، وعن سيدي عبد القادر فقال: هو إمام الصديقين، وحجة على العارفين.

قلت: وكُلاً من الشيخين؛ سيدي أبي يعزى، وسيدي أبي مدين كانا يعظّمان الشيخ عبد القادر، وينوّهان باسمه، ويرفعان من قدْرِه، ولهم في ذلك عجائبٌ وغرائبٌ.

وكان هو يثني على سيدي أبي يعزى كثيرًا؛ كما نذكره في الباب الخامس من شهادة المشايخ له من أنه رفيع القدر، وأنه حاز قصب السبق على التمام.

ويحكى عن الشيخ أبي مدين أنه كان له مقامٌ في المحبة عظيم، وربما تبرز منه في ذلك شطحات.

وذكر أبو علي حسن بن بادس في شرحه، وأبو العباس الورنيدي: إن الشيخ أبا مدين تكلّم يومًا في مجلسه، فجاءت طيورٌ ودارت حوله عاكفةً عليه، فتواجد وأنشد هذه الأبيات:

تَوجُّع مِمْرَاض وَخَوْف مُطَالب وَإِشْفَاق مَهموم وَحُزْن كئيبِ
وَلوعـــة مشـــتاقٍ وَزُفْرة وَاله وَســـقطة مســـقامٍ بِغَيْرِ طَبيبِ
وفِكْــرَة جوَّالٍ وفطنة غائصٍ لِيأخذ من طيبِ الصَّفَا بنَصيبِ
أَلْمــت بقلبٍ حيرته طوارقٌ مِنَ الشَّوْقِ حتى ذلّ ذلٌّ غريبِ
يُكَـابِدُ أَشْجَانًا وَيُخْفِي مَحَبّة ثوت واستكنت فِي فُؤَادِ حَبِيبِ

فهاج المجلس، وضجوا وما زال طائرًا منها يصفّق بجناحيه حتى سقط ميتًا، ومات رجلٌ من الحاضرين، قلت: والأبيات أصلهم للإمام ذو النون المصري.

يحكى عنه: إنه سأله رجلٌ: ما الذي أنصب العباد وأضناهم؟ قال له: ذِكر المقام وقلّة الزاد، وخَوْف الحساب، ثم قال: ولِمَ لا تذوب أبدان العاملين، وتذهل عقولهم، والعرض على الله أمامهم، وقراءة كتبهم بين أيديهم، والملائكة وقوف بين يدى الجبار ينتظرون أمره في الأخيار والأشرار؟ ثم قال: مثّلوا هذا في نفوسكم، واجعلوه نصب أعينكم، ثم أنشد الأبيات المتقدّمة، ولـــذي النون في مثل هذا كثيرٌ.

ويحكى عن أبي على حسن بن محمد الغافقي الصوّاف قال: حدثني أبو مدين قال: صلّيت مع عمر الصباغ المغرب، فلما سلّمنا قال لي: رأيت وأنا في الصلاة ثلاثًا من الحورِ أو أربعًا، وهن يتبخترنَّ في ركن البيت، فقلت له: أعد صلاتك فإن المصلي يناجي ربه، وأنت إنما ناجيت الحور العين، قلت: أراد أن ينقله إلى مقام أعلى من مقامه، وأدَّبه بقوله أعد صلاتك؛ لأن كل شيءٍ من دون الله من سائر المقامات حجابٌ حتى لا يقف مع شيءٍ ولا يسكن إلى شيءٍ.

وقد حكى عن أبي يزيد أنه كُوشف بأربعين حورًا أحسن ما يكن، ثم قيل له: انظر إليهنَّ، فلما نظر إليهن حُجِبَ عن مقامه أربعين يومًا بقدر عددهن؛ تأديبًا له، ثم بعد ذلك كوشف بثمانين فوقهن في الجمال، فقيل له: انظر إليهنَّ، فغمّض عينيه وسجد، وقال: لا حاجة لي بهن دون الله.

اللهمَّ إني أعوذ بك مما سواك، وما زال يبكي يتضرَّع، وهو ساجدٌ إلى أن حُجِبْنَّ عنه، فحينئذٍ رفع رأسه، وله في ذلك مشاهدٌ ومواقفٌ شهيرة

وكان الشيخ **أبو مدين** ﷺ مع اتساعه في المعارف والعلوم اللدُنية يحرِّض أصحابه على السلوك بكل وجه أمكنه، ويحضّهم بكل إشارةٍ وكل لطيفةٍ.

يحكى عنه: إنه كان يومًا في مسجده الخاص بأصحابه أهل الذوق والمعارف، وهو يفيض عليهم على عادته في تلك الحقائق، ويأتيهم بكل عجيبةٍ تدل على القرب، وكل غريبة من أوصاف أهل الحب.

فبينما هم في ذلك مستغرقون، وإذا برجلٍ دخل عليهم شبه الملهوف أو مذهول فقدَّ المألوف، فقال لهم: يا رجال ما دخل عليكم هنا حمارًا؟ أو قال دابة، وهو في يده قضيب كان يسوقها به، فرفع بعضهم إليه رأسه، وقال له: يا هذا إن هذا مسجد، وما رأينا لك دابة، فسكت الشيخ وأطرق ساعةً، ثم رفع إليهم رأسه، وقال لهم: هل فيكم مَنْ عَشِقَ قط؟ و لم يكن يتكلّم على العشق في تلك الساعة، فسكتوا و لم يجبه أحدٌ، إذ لم يعلموا مقتضى مراد الشيخ بقوله، ثم نظر بعضهم إلى بعض، ثم رجع الشيخ لقوله الذى كان يتكلم فيه إلى أن استوفاه، وختم المجلس وقام، فرجعوا جملة أصحابه يتأمّلون قوله: هل فيكم من عشق قط؟ فاتفقوا على أن معنى هذا السؤال: إن المحب يجب أن يطلب محبوبه في كلّ مكان، وأينما توجّه، كما فعل هذا البدوي طلب حماره حتى في المسجد.

ويحكى عن أبي الفضل فيما ذكره في نجمه قال: رأيت هذا السيّد **أبا مدين** في المنام أيام قراءتي للموطأ على خاتمة العلماء الأعلام شيخنا أبي عبد الله بن العباس، وذلك بمحل تدريسه، قال: رأيت كأني دخلت لزيارة سيدي إبراهيم المصمودي، فلما دخلت لمحل دفنه رأيت شيخًا مهابًا، وهو جالس نحو قبر السلطان المدفون بإزاء سيدي إبراهيم، فقيل لي، أو قال: خطر ببالي أنه سيدي أبو مدين، فتقدّمت؛ لأقبِّل يده، فقال لي: سلامٌ عليك، فتذكرت أني لم أقل: سلام عليك حين دخلت لما غلبني من الدهش اللاحق للداخل، ثم ناولني يده، وهي في كُمٍّ ثوب من صوفٍ غليظٍ من لباس أهل مصر.

فلما قبَّلت يده دخلني بعض الأُنس به، فطلبت منه شيئًا لا أدري دعاءً أو غيره، وكان على يمينه سجادة من جلد بقر الوحش، فأخذها بيده وناولنيها، فأخذتها بيدي، وانصرفت عنه، وفي قلبي من السرور ما الله أعلم به.

قلت: في تأويل الرؤيا هذه ولعله نبَّهه على التواضع؛ ولكن يكون في غير مذلّة، وذلك وصف الصديقين، لا عن حظٌ كما يكون من أبناء الدنيا، أو عوضٍ أو غرضٍ كما يكون من أبناء الآخرة، وإنما يكون تواضعه بالله لله خالصًا، وذلك وصف العارفين.

وحكى صاحب النجم الثاقب: عن أخص أصحابه، وأكبر تلامذته أبي محمد صالح الدكالي الماجدي القرشي المخزومي ﷺ قال: كنت يومًا عند الشيخ أبي مدين مع جماعة من أصحابه، وإذا بالشيخ أبي مدين طأطأ رأسه، وقال: اللهمَّ إني أُشهدك، وأُشهدُ ملائكتك أني سمعت وأطعت.

فسأله بعض أصحابنا عن ذلك، فقال لهم الشيخ سيدي أبا محمد عبد القادر الجيلاني: صعد منبره في مجلس وعظه في بغداد في هذه الساعة وقال: قدمي هذه على رقبة كل ولي، وقد أمرنا بالسمع والطاعة.

قال أبو محمد صالح: فأرخنا ذلك اليوم، ثم بعد ذلك قدّم أصحابنا المسافرون لبغداد، فحدَّثونا بهذه المقالة عن سيدي عبد القادر الجيلاني في ذلك اليوم بعينه.

قلت: مع عظيم قدره كان يثني كثيرًا على سيدي أبي يعزى؛ كما نذكره في محله من ثناء الأكابر عليه وشهادتهم له: إنه حاز قصب السبق.

قال ابن صاعد: وكان أبو مدين حافظًا للحديث وخصوصًا كتاب الترمذى، فإنه رواه عن شيخه؛ أعني: جامعه.

ومن عجيب كرائم سيدي أبي مدين أن أولياء أهل زمانه كانوا يستفتونه في المعضلات من مشكلات الطريق التى لا يفهمها الفقهاء، فيُجيب عنها في الحين؛ كأجوبته لتلميذه أبي عمران موسى الصدراني الطيار.

قال صاحب النجم الإمام ابن الخطيب، وابن الزيات: كلهم يرون عن أبي عبد الله محمد بن عبد الخالق بن محمد التونسي، قال: حدثني أبو مدين ﷺ قال: كان يأتيني كل يوم رجلُ عند انصداع الفجر، يسألني عن أشياء، أو قال: عن مسائلٍ لا تفهمها الناس، وكنت أسمع عن رجلٍ اسمه موسى أنه يمشي على الماء، ويطير في الهواء وغير ذلك من الكرامات. فخطر ببالي ليلة أنَّ الذي يأتيني عند الفجر هو الذى كنت أسمع عنه تلك الخوارق، فطال عليَّ الليل كله؛ لكي أرى الرجل هل هو صاحب تلك الكرامات؟

فلما انصدع الفجر، وإذا به يقرع الباب، فخرجت إليه، فسألني عن مسألةٍ،

فأجبته ثم قلت له: أنت موسى؟ فقال لي: نعم، قال: فكان يتخلّف إليَّ في أكثر الأوقات، قلت: وهذا لا يُستبعد في كرامات الأولياء الصديقين.

وقد كان شيخ شيخه أبو العباس بن العريف الأندلسي دفينَ مراكش؛ المتوفَّى عام سبعة وثلاثين وخمسمائة هـ، هو والإمام أبو الحكم بن برجان في حكاية غريبة اضربنا عنها إختصارًا.

فكان يحضر مجلسه بالمدينة رجال يطيرون في الهواء يُرى على وجوههم كحرقِ النار من شدة تخريقهم للهواء، وتلقيهم تلك السموم في زمن الحر، والزمهرير في زمن البرد.

وكرائم شيخه أبي الحسن بن خلف بن غالب الذي أخذ عن ابن العَرِّيف شهيرةٌ، رضي الله عن جميعهم، وأنالنا الحظَّ الأوفر من مناالهم بفضله وكرمه.

قال أبو على حسن بن بادس القسطنطيني ﷺ: اعلمُ أن أبا مدين من صدور المقربين، وعظماء العارفين، وأصحاب الحقائق والمعارف، وذوَي التمكين والتصريف، وخرق العوائد مِمّن جمع له بين علميّ الحقيقة والشريعة، وانتهت إليه رئاسة هذا الشأن، وتَخرَّج به جماعةٌ؛ كسيدي عبد الرحيم القناوي، وأبي عبد الله القرشي، وأبي محمد صالح.

حكى صاحب حرز الأتقياء: إن بعضَ الصالحين رأى النبي ﷺ في النوم، فقال له: يا رسول الله ما تقول في أبي مدين؟ قال: هو شيخ الشيوخ.

قال: أخذ الطريقة عن أبي الحسن حرازم، عن ابن العربي، عن الغزالي، عن أبي طالب المكي، عن الجنيد، عن خاله السري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داوود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري بسنده.

وأخذ الطريق أيضًا عن سيدي الشيخ أبي يعزى، ولبس منه الخرقة كما أخذها ولبس من أبي الحسن على بن حرازم، وكلاهما أخذا عن القاضي أبي بكر بن العربي عن الإمام.

وأخذ الطريق أيضًا عن الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني بسنده كما مرَّ.

قلت: ظاهر كلام الشيخ: إن الشيخ سيدي أبي يعزى أخذ عن الإمام ابن

العربي، وإن سيدي علي بن حرازم أخذه من الشيخ وهو صحيح بهذه النسبة.

وقال فيه الأستاذ العلاّمة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في حليته، وذكر أبو الصبر الفهري فيمن لقيه من شيوخ الصوفية، ثم ذكر ما قدمناه من أوصافهم من الزهد والمعارف وغير ذلك، عن أبي الصبر هذا، قال ابن بادس وذكر لي بعض الناس عن الشيخ الزاهد المتخلّي عن الدنيا، المنقطع إلى الله تعالى أبي النجاة سالم الجيجلي السرقسطي الأصل، البيجائي الدار والوفاة: إنه نقل عن الشيخ أبي مدين ﷺ أبو أحمد وهو: جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيديونه الخُزاعي بشرق الأندلس من عمل شاطبة أعادها الله للإسلام، وكان مقامه التوكُّل.

والشيخ أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر الهروي بمرسى جرام، قال أبو العباس زروق: دُفن بمرسى عيدون، وكان مقامه المحبة.

والشيخ أبو محمد عبد الرازق الجزولي، وكان مقامه العلم، وهو بالإسكندرية مدفونٌ.

وذكر أبو العباس بن الخطيب في أُنسه عن بعض الصالحين قال: رأيت النبي ﷺ ومعه أبو حامد الغزالي، وأبو مدين، فقال أبو حامد لأبي مدين: ما روح الروح؟ قال له أبو مدين: المعرفة، قال له: فما روح المعرفة؟ قال له: اللذة، قال: فما روح اللذة؟ قال: نظرة الله، قال الراوي: ثم غشيهم نورٌ عظيمٌ، فأخذتهم الملائكة، وصارت بهم حتى غابوا عن بصري في الهواء.

ومما يحكى عنه من علومه الغامضة: إنه وقع اختلاف بين فقهاء بجاية، ونزاع شديد في الحديث الوارد عن النبي ﷺ وهو قوله: «**إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِن أُعْطِي نِصْفَ الْجَنَّة**»(١).

فإن الظاهر يقتضي أن المؤمنين إذا ماتوا استحقُّوا كل الجنة بكمالها، ولما أشكل عليهم هذا قالوا: ما لهذا إلا صديق! ولا هنا في هذا العصر أكبر من أبي

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٣٦) بنحوه ولم أقف عليه بلفظه.

مدين، ففزعوا إليه، وأتوه لما يعلمون من تحقيقه وتدقيقه في المعارف والعلوم، فدخلوا عليه وكانوا قبل ذلك يحلّ لهم ما أشكل عليهم من مثل هذا، فوجده في مجلسه وهو يتكلّم على رسالة القشيري.

فلما استقر بهم المجلس عدَل عما كان فيه من القراءة، قال لهم: هل أتيتم لما أشكل عليكم من ظاهر الحديث؟ فعلموا أنه كاشفهم، فقالوا له: نعم.

قال: إنما أراد ﷺ أن المؤمن إذا مات أعطاه الله نصف ما كان كتب له في اللوح المحفوظ من جنته التي أعدَّها له في دار الخلود؛ بأن يكشف له عن مقعده في الجنة؛ ليتنعَّم بذلك، وتقرّ عينه، فيتنعَّم برؤية مقامه حتى إذا كان يوم القيامة، وحُشر الناس، ونُصب الميزان، ووقع الحساب، أُعطي النصف الآخر وكمل له ما قدِّر له في الأزل.

قلت: ويصح أن يعاين عند موته الجنة التي أعدَّت له كما رُويَ: «**مَا مِنْ عَبْد إلا ولَه مَنْـزِلان: مَنْـزِل فِي الْجَنَّة، وَمَنـزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا كَان يَوْمُ الْقِيامَةِ أَخَذَ الكافرُ مَنْـزِلَه الذي في النار، وَتَوَلَّى هُو منـزله الذي فِي الْجَنَّة**»(١).

كما قال ﷻ: ﴿**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾ [مريم: ٨٠]، فكان له بالنسبة النصف بموته، والنصف الآخر حين استقرار كل أحد فيما أعد الله له من الكرامات والإحسان، قال ﷻ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعبَّر لهم الشيخ على الجملة من غير تفصيلٍ، ويدل عليه أيضًا ما في بعض أحاديث سؤال الْمَلَكين للعبد: «وأن المؤمن يَفتحان له بابًا إلى النار حتى يرى مقعده، ويقولان له: هذا مقعدك لو أسأت لكنك أحسنت، وأسعدك الله! ها منـزلك، فَيكشفان له عن الجنة، وما أعدَّ الله له فيها، ويَفرشان له من ريحانها وسندسها، ويقولان له: نَمْ نومةَ العروس التي لا يوقظها إلا أحبُّ الناس إليها. وأما الكافر والمنافق فيفتحان له بابًا في الجنة حتى يرى ما فيها، فيقولان له: هذا منـزلك، لو أنك أحسنت لكن لمَّا كنت في ديوان الأشقياء ها دارك، فيكشفان له عن نارٍ لا

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة (٢/٢٨٤)، (٢/٦٨) بنحوه.

يُطفأ لهيبها، ولا يزال يأتيه مِنْ فَيحها وهمّها وسُمومها»(١).

وذلك على اختلاف روايات الأحاديث، والله أعلم.

وكم له من مثل هذه المشكلات لا يفك ختامها إلا هو، ومثله من نظرائه.

ويحكى عن سيدي أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم الهزميري دفين باب الفتوح بروضة الصابرين الأنوار بإزاء جامع الصابرين عام ستة أو سبع وسبعمائة في حركة غريبة أضربنا عنها اختصارًا: إن الفقهاء لمّا تنازعوا بحضرة مراكش في الحوض والصراط أيهما يسبق؟ وطال الخصام على ذلك ثلاثة أيام بين يدي الشيخ الإمام، مكمّل إكمال المعلم أبي عبد الله البقوري.

فلما طال الحال ذهب طالب ممن كان يعتقد الشيخ الهزميري لزيارته، ويسأله عن المسألة حتى يشفيه، قال: لما سألته فتح عينيه، ونظر إلى السماء، ورأيت بعينيه اتساعًا عظيمًا، وهو ينظر ولا يطرف، وهو يقول: «الجَنَّةُ الْميزانُ الْحُوضُ الْصراطُ».

كأنه ينظر في ذلك وهو يكرر قوله، ويشير بإصبعه قال: فخرجت من عنده، وأتيت المجلس، فإذا هو على حاله، فأخبرتهم، فبكى أبو عبد الله البقوري وقال: ليس الخبر كالعيان.

قال الإمام ابن الخطيب: كانت للهزميري، ولأخيه أحوالٌ عجيبةٌ.

قال بعض العلماء: لّما وقف على حقائق رياضتها قَلّ أن يكون مثل حالهما لِمَا نشاهده من تحقيقهما في المكاشفة والمقام، وهما من عجائب الزمان.

ولولا الاختصار لأوردنا من أخبارهما ما يزيد المريد في سلوكه صدقًا وتحقيقًا، لكن كفى في التعريف بهما صاحب أثمد العينين في مناقب الأخوين.

وما زال الشيخ **أبو مدين** مستقرًّا بمدينة بِجاية، وأنواره زائدةُ الإشراق، وأخباره طبقت الآفاق، والوفود يردون من الأقاليم من السادات ذوي المكارم، مشاهدين له بأكبر المقام، وإنه شيخ الشيوخ بين الأنام.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٨/١) بنحوه.

فروى جماعة من العلماء: إنه ما زال ذوي الحاجات يقصدونه آحادًا ومع الرفاق، وإخباره ﷺ بما سيكون من أمره متحقّقٌ واقعٌ، ونور ولايته مشرقٌ ساطعٌ إلى أن وشي به بعضُ المنكرين لكرامات الأولياء من علماء الظاهر لخليفة زمانه ملك المغرب: يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي المعروف بـ المنصور، وأنه عند قدومه من جزيرة الأندلس ألقى إليه ذلك، وكان قدومه في شعبان عام أربع وتسعين وخمسمائة هجرية من ربيع الأول.

وقال له صاحب السقاية فيما زعموا: يا أمير المؤمنين! هذا رجلٌ يُخاف على الدولة منه، أو قال: على دولتكم، فإن له شبَهًا بـ «الإمام المهدي»، وله أتباعٌ كثيرةٌ، وأصحابه في كل بلدٍ وإقليمٍ، زعموا أن ذلك وقع في قلب يعقوب المنصوري، وأهمه شأنه كثيرًا، وبعث في القدوم إليه.

ورُوي: إنه كتب إلى قائد بجاية: أنْ ابعَثْ إلى الشَّيخِ أبي مدين، وأَنْ احمله حِمْلاً مُكرّمًا.

فلما أتى القائد لأبي مدين، وأعلمه بالخبر، قال له: سمعًا وطاعةً لأمر الله ﷻ، فأخذ في أسباب الحركة.

وقال أبو العباس ابن الخطيب: فشقَّ الأمر على الكثير من أصحابه، وخافوا أن يكون وراء ما يغير القلوب لما جلبوا عليه الملوك من اتِّباع الهوى في صلاح دنياهم قال: فَأَتُوا إلى الشيخ، وكَلَّموه، فقال لهم رضي الله عنهم وعنه: شعيب شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ لا قوةَ له على الحركة والمشي، ومنيته قُدِّرَت بغير هذه البلاد، أو قال: بغير هذا المكان، ولا بُدّ من الوصول إلى موضع المنيَّة، فقيَّض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفقٍ، ويسوقني إلى مرام المقادير أحسن سوقٍ، والسلطان الذي خفتم عليَّ منه لا أراه، أو قال: والقوم الذين خفتم عليَّ منهم لا أراهم ولا يروني، فطابت نفوسهم، وذهب بؤسهم، وارتحل بالشيخ ﷺ، فما زالوا يرفعونه برفقٍ حتى بلغ بإزاءِ تلمسان وادٍ يُسمَّى: وادي يسر، فنظر إلى العبَّاد وهو مشرف على تلمسان، قال: وما اسم ذلك المكان؟ فقيل له: العبَّاد، قال: ما أملحه للرقاد!

رُوي أنه قال: مليح للرقاد، وقال بعضهم: إنه قال: لا بأس بالنوم في هذا المكان.

وقال آخرون: إنه تُوفي بيسر، وهو المعروف الذى تقدَّم، وإنه قريب من تلمسان، وحُمل إلى العبَّاد، فاتفقت هناك منيته، وشرفت تلك البقعة بتربته.

ورُوي أنه قال: ما لي والسلطان! الليلة نلقى الأحبَّةُ محمّدٌ، وحزبه.

قال أبو علي حسن الصوَّاف الذى تقدَّم: إنه كان ملازمًا له ثلاثين سنة لَمَّا احتضر الشيخ أبو مدين، واستحييت أن أقول له: أوصني، فأتيته بربيبه، وقلت له: يا سيدي! هذا فلان، فأوْصِه.

فنظر إليّ، وقال لي: سبحان الله! هل كان عمري كله معكم إلا وصية؟ وأيُّ وصية أبلغ من مشاهدة الحال؟

قال أبو علي الصَّواف: فسمعته عند النـــزع، وهو يقول: الله.. الله حتى رقَّ صوته.

وقال بعضهم: آخر ما سمعنا منه الحق، وقال آخر: ما سمع منه الله الحق، وروى: الله الحي.

وكان في هذا اليوم مشهدٌ عظيمٌ حتى أنه لِعَظِيم أمره، تاب في ذلك اليوم أبو علي عمر الحيَّاك.

وقال لمن سأله: مَا رَأَيْت أعزَّ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَلا أذلَّ مِنَ الأغنياءِ.

فقلت له: إن كان هذا حالهم في الدنيا ففي الآخرة أعز وأعز، فدفعت أثوابي لفقير، وأخذت مرقعة وذكر أمورًا أضربنا عنها اختصارًا.

ولَمَّا سَمِعَتْ أهل تلمسان بموته وممن جاورها من السكان أتوا كأنما ساقهم سائقٌ لحضور جنازته.

قال صاحب النجم وغيره، ومن كرامات سيدي أبي مدين:

إن السلطان لَمَّا روعه وأهمل حقّه؛ خوفًا على الدولة، وطمعًا في الحياة والبقاء في الْمُلك، عاقبه الله بنقيضٍ مقصود، فكانت وفاة هذا السلطان بعده بسنة.

قلت: بل أَقَلَّ من ذلك، وعاش منغَّص العيش بِمرضٍ تطاول به ما يقرب من

سبعة أشهر حتى تُوفي به.

وهكذا سُنة الله مع أوليائه، لا يروعهم أحدٌ ويقتحم حرمهم، أو يهتك سترهم إلا هتك الله ستره، وهذا مجرَّبٌ من لدن أويس القرني إلى زماننا هذا، ولا تظن أن ظالمًا متجرئًا على أولياء الله تعالى وتكون عاقبته خيرًا أبدًا.

وقد ذكر الإمام الحافظ أبو العباس بن خلكان: خلاف هذا كله في أشخاص الشيخ **أبي مدين** بمراكش.

قال أبو محمد عبد الله بن سعيد اليافعي الحضرمي في روض الرياحين، وحكايات الصالحين، روي أن أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالمنصور الموحدي رأى أحوالاً وجدها في نفسه من أحوال المريدين، وكان سببها؛ قَتْل أخيه غيرةً على الْمُلكِ، فندم على قتل أخيه ندامةً أورثته توبةً أثَرت في باطنه أحوالاً سنية، وتغيّر عليه من نعيمه ما لا يعهد لثمرة التوبة، فما كان أبركه عليه ذنبًا.

وفي مثل هذا قال القائل:

وَرُبَّ قطـيعةٍ جَلَبَـتْ وِصَالاً   وَكَـم ذَا فِي الرَّزايا مِنْ خَبَايَا

فشكى ما يجده لصديقة كانت تدخل قصره، وقالت له: هذه أحوال المريدين.

قال لها: وكيف أعمل بنفسي؟ ومَنْ يعرفني ويداويني؟

قالت له: الشيخ أبي مدين هو سيد هذه الطائفة في هذا الزمان، فبعث السلطان إلى الشيخ أبي مدين وطلبه طلبًا حثيثًا، والتجأ إليه، فاقتضى إجابة الشيخ أبي مدين بأن قال له: يطيع الله سبحانه بما أمره من الطاعة، وأما أنا لا أصل إليه بل أموت بتلمسان، وكان هذا الشيخ في بجاية، فلما وصل إلى تلمسان قال لرسل السلطان: سلِّموا على صاحبكم، وقولوا له: شفاؤك على يد أبي العباس السبتي، ونفعك على يديه، فما أتى الشيخ ﷺ وذهبت الرسل، فلحقوا السلطان، وأخبروه بما أوصى به، فطلبوا الشيخ أبو العباس السبتي طلبًا حثيثًا حتى وُجِدَ وظُفِرَ به، فأعلموه من الطلب، فوجد في نفسه إذنًا.

أو قال: فوجد من الحق سبحانه إذنًا بالاجتماع به، فمشي إليه، واجتمع به،

فنرح يعقوب بذلك، ثم أمر بذبح دجاجةً، وخنْقِ أخرى، وأن تُطْبَخ كلٌّ واحدةٍ منهما على حدتها، وقدَّموهما بين يدي الشيخ، وسأله أن يتناول أكلهما، فنظر الشيخ إليهما، وأمر الخادم برفع المخنوقة، وقال: هذه جيفةٌ، وأكل من الأخرى، فأسلم يعقوب نفسه له، ونزل نفسه له منــزلة خادم، وفتح له على يديه، وثبَّت قدمه في الولاية ببــركةِ الشيخ أبي العباس، وإشارةِ الشيخ أبي مدين.

ويُحكى مما جرَّب ليعقوب بعد أن خرجوا للمصلى: استسق للمسلمين، فإنه بذلك أمرت، فصلَّى يعقوب، ثم دعا، فنــزل المطر على القوم والله أعلم.

انتهى المراد منه.

وانظر: في ترجمته: المعزى في مناقب شيخه سيدي أبي يعزى للتادلى، والمنهاج الواضح في مناقب-تلميذه- سيدي أبي محمد صالح للماجري، وخلاصة المفاخر في مناقب سيدي عبد القادر لليافعي (ص٧٣)، وبهجة الأسرار للشطنوفي (ص٣٤٤)، والانتصار للأولياء الأخيار للكردي (ص٤٥١)، وقلائد الجواهر للتاذفي (ص٣٤٩)، جميعم بتحقيقنا، والشهاب موعظة لأولي الألباب لأبي أحمد الخزاعي الأندلسي، وكتابنا عن الشيخ أبي مدين (يسر الله إتمامه).

* * *

شرح الحِكَم

الغَوثية

لشيخ الشيوخ سيدي أبي مَدين التِّلمساني المغربي

تصنيف

العلامة أحمد بن إبراهيم بن علان الصديقي الشافعي النقشبندي

المتوفى ١٠٣٣ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الآفاق العربية

كتاب

حكم العارف الكبير والعلم الشهير
ابي مدين شعيب التلمساني
وشرحها للشيخ الامام خاتمة المحدثين
شهاب الدين احمد بن ابراهيم بن
علان المكي الصديقي نفعنا الله
ببركاتهما واعاد علينا وعلى المسلمين
من صالح دعواتهما في الدنيا والاخرة
ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم وصلى الله
على سيدنا محمد
وعلى اله
وصحبه
وسلم

صورة الغلاف



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
ملك يوم الدين اياك نعبد واياك
نستعين اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين ربنا لا تواخذنا
ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل
علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا
ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف
عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا
فانصرنا على القوم الكافرين
اللهم احفظ ظاهرنا مزينا بالشريعة
وباطننا محلى بالطريقة كي تشرق
علينا انوار الحقيقة واجعل معانا في
شجرة لا اله الا الله محمد رسول الله ثابتة
راسخة فينا حتى تؤتي اكلها كل حين باذن
ربها ونجني ثمرات هذه الشجرة حتى نتغذى
بها ونواسي فيها الاخوان ونسقيها
من مياه انهار الفضل والاحسان
حتى [illegible] بقولك لا حول ولا
قوة

قوة الا بالله وننفق من هذا الكنز ونعم
به ونخص كل قلب اواه لا يعول وقوت
مذهبي العجز والسلام فيا ايها السالك
الراغب الذايق الشايق لا تغتطي في سلوك
طريق مولاك الا مطايا الافتقار ولا تتزود
في هذه الدنيا في الابراد الذلة والانكسار
وانشد بهذه الابيات ما
اتيناك بالعقل لا بالغنا وانت الذي لم تزل محسنا
اليكم بكم سادتي جيتكم فلا تهملوا من اسا الادب
وقولوا عفى الله عما مضى فلابد للفضل منكم عجب
فعند ذلك تكون متعرضا للنفحات سالكا
لا قرب طرق اهل المعاملات متوشحا للتنزل
الفيوض من واهب العطيات فها هو ذا
كما اشار اليه هذا العارف قدس الله سره
في قوله تعالى القران نزل وتنزل فالنزول
قد مضى والتنزل باق الى يوم القيامة
اي القران نزل على قلب سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم بلسان جبريل عليه السلام
وتنزل على قلوب اولياءه بما يلهمهم
اياه في اوقات صفا قلوبهم وبعضهم
اذا خلوا بمحبوبهم كما اشار الى ذلك عليه السلام

صورة الورقة الأولى من المخطوط

المقامات بالتوحيد والانكسار
لأنهم أرباب التمكين فانكسر
لهم ولا تشهد السوى تكن آخذاً من العزيز
الغفار والله سبحانه وتعالى أعلم
وهذا آخر ما تيسر على يد من قيدته
الذنوب وإن أطلق لسانه وبنانه
كرم الغفور الستار وصلى الله على
سيدنا محمد معدن الأسرار وعلى آله
وصحبه ما اختلف الليل والنهار
وكان الفراغ من تعليقه على يد أفقر
عباد الله تعالى وأحوجهم إلى عفوه
ومغفرته الفقير محمد بن الشيخ أحمد
بن الشيخ محمد اللبان الشافعي الرفاعي
غفر الله له ولوالديه ولمن قرأ في هذا
الكتاب ودعى له بالعفو والمغفرة
ولجميع المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات
ولا حول ولا قوة
إلا بالله
العلي
العظيم
٢٣٣

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

الحمدُ لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

اللَّهم اجعل ظاهرنا مُزيَّنًا بالشريعة، وباطننا مُحلًّى بالطريقة؛ كي تشرق علينا أنوار الحقيقة، واجعل معاني شجرة لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ثابتة راسخة فينا حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وانبع ثمرات هذه الشجرة حتى تنفله بها، ونواسي فيها الأحزان، واسقها من مياه أنهار الفضل والإحسان حتى نتحلَّى بفواكه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وننفق من هذا الكنز ونعم به، وتخصُّ كل قلبٍ أوَّاه لا بحولي وقوتي، مذهبي العجز والسلام.

فيا أيُّها السالك الراغب الذائق الشائق لا تمتطي في سلوك طريق مولاك إلاَّ مطايا الافتقار، ولا تتزوَّد في هذه الفيافي إلاَّ بزاد الذلَّة والانكسار، وأنشد هذه الأبيات:

أتيـنَاك بالفقـرِ لا بالغِـنَا   وأنـتَ الـذي لَم تَـزلْ مُحسنًا
إلـيْكُم بِكـمْ سَـادتِي جِئتكُم   فَـلا تهملُـوا مَـن أسَاءَ الأدبَ
وقُولُـوا عَفَـا اللهُ مَـا مَضَـى   فَلـيسَ التفضُّـل مِـنكمْ عَجبَ

فعند ذلك تكون متعرِّضًا للنفحات، سالكًا قرب طرق أهل المعاملات، متوشحًا لتنـزُّل الفيوض من واهب القطبيات، فاهمًا ما أشار إليه هذا العارف قَدَّس الله سرَّه في قوله:

١- القرآن نـــزل وتنـــزَّل، فالنـــزول قد مضى، والتنـــزُّل باقٍ إلي يوم القيامة.

أي القرآن نـــزل على قلب سيِّدنا محمد ﷺ بلسان جبريل ؑ، وتنـــزَّل على قلوب أوليائه بما يلهمهم إياه في أوقات صفاء قلوبهم، ويغمضهم إذا خلوا لمحبوبهم كما أشار إلى ذلك ﷺ في قوله: «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»(١).

وقال أحد العارفين: أفتاني قلبي عن ربي.

وقال أبو يزيد ؓ: أخذنا علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت، فقيل له: هل لك من شاهد على ذلك في الكتاب والسنة؟

فقال: شاهدي من الكتاب قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ومن السنة قوله ﷺ: «**مَن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»(٢).

والحاصل: إن السالك إذا زكّى ظاهره وباطنه، وصفى قلبه من الأغيار بإلقاء النور المحمَّدي؛ انجلت مرآة قلبه من الكدورات الكونية، وانمحى عنها صدأ النقوش النفسية، فيتأهل حينئذ القلب لتنـــزُّل الفيوض الربَّانية، ويصير أهلاً للمشاهدة والمكالمة، فيفهم من القرآن فهمًا لا يفهم غيره، وينـــزل عليه معنى يخصَّه، ويعم سواه خيره(٣).

فمن ذلك ما نُقل عن سيدي أبي العباس المرسي ؓ في معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ [الروم:١٩]:

كإنسان أذنب ذنبًا فتلاشاه بالاعتذار والذلَّة والانكسار فهذا حيٌّ؛ وهو الاعتذار.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٨/٤)، والدارمي (٣٢٠/٢)، بنحوه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٥/١٠).

(٣) فمَن أراد أن يتطهَّر من الألواث؛ فليكن على حسن النية أولاً، وعلى عمل الشريعة ثانيًا، فحسن النيَّة يجر العمل الشرعي إلى مقام القبول، وعنده الوصول، ومَن عمل بما علم: أي بشرط حسن النيَّة؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم؛ وهو علم اللَّدني؛ لأنه نتيجة ذلك، فلا بد لتحصيل هذا العلم العزيز من تقوى، وسلوك، وعمل صالح.

أخرج من الميت؛ وهو الذنب وآخر.

فقل: طاعة وهدمها بالعجب والافتخار؛ فهذا ميت، وهو العجب.

أخرج من حيٍّ؛ وهي الطاعة.

وأمثال ذلك منقول على سبيل الكثرة في كلام القوم لا نطيل بتكثير الأمثلة، ويؤيِّد ذلك ما نُقل عن سيدنا علي ﷺ لّما سئل: هذه خصَّكم يعني: يا أهل بيت رسول الله ﷺ بشيء دون الناس.

فقال: ليس عندنا إلاّ هم في كتاب الله تعالى، وما في الصحيفة، وليس في الصحيفة إلاّ مسائل معدودة لا تتعلّق بالمعارف؛ وإنما الشأن كله في الفهم في كتاب الله الذي تنـــزّل على القلوب الصافية من الأغيار.

فرِّغ قلبك من الأغيار، تملأه من المعارف والأسرار، كما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه أنوار أذن لها في الوصول، أنوار أذن لها في الدخول .

ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار، فارتحلت من حيث نـــزلت قوله: فالنـــزول قد مضى، والتنـــزُّل باقٍ إلى يوم القيامة: أي النـــزول المخصوص به ﷺ، والتنـــزُّل على قلوب الأولياء باقٍ إلى يوم القيامة.

ولا يختصُّ يا أخي هذا التنـــزُّل بالقرآن؛ بل المعارف يجد ذلك في قلبه من كل الأكوان؛ إذ ليس شيء إلاّ وهو يدعوك إلى مولاك بلسان حاله، ويناجيك في سرِّك إن كنت من أهل مقاله، وفي كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحد.

فواعجباه كيف يُعصى الإله؟ أم كيف يجحده الجاحد؟ وما أحسن ما قال بعضهم في هذا المعنى:

أصبحتُ ألطفُ مَن مرّ النسيم على ... زهـــرِ الريَاءِ مَن يكاد الوهمَ يؤلمني

مِـــن كلِّ معنى لطيفٍ أجتَني قدحًا ... وكـــلُّ ناطقـــةٍ في الكونِ تَطرُبني

فلذلك قال بعض العارفين: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

وقال آخر: الطرق إلى الله تعالى بعدد ذوات الموجودات، فما من ذرة إلاّ وهي

طريق إلى مولاها، فتناجيك برمزها وفحواها إذا أذن لك بالدخول من بابها، وفهم معناها.

والحكايات عن القوم في هذا الباب كثيرة فمن ذلك:

ما نُقل أن بعضهم كان يبيع شعيرًا، وهو ينادي سعتر برِّي[١]، فسمعه جماعة من السالكين، فواحد سمع من مقاله استمع وبرِّي، وآخر فهم ما أوسع برِّي، والثالث فهم الساعة ترى بري.

فكلٌّ فهم على حسب حاله، وتنـــزَّل عليه الفيض الإلهي بما يناسب استعداده الصادر من فضله ونواله.

فعليك أيُّها السالك بالإقبال عليه، واخرج عن حولك وقوتك، وانطرح بين يديه.

٢- الحق تعالى مستبد الوجود، والوجود مستمد والمادة من عين الوجود، فلو انقطعت المادة لانهدم الوجود.

أي الحق سبحانه وتعالى مستمد الوجود: أي مستقله؛ إذ كل موجود من الممكنات مستمد من وجوده؛ وهو المستقل بوجوده.

كما قال ﷺ: المادة: أي الاستمداد من عين الوجود منه سبحانه وتعالى، فلو انقطعت المادة أي: المدُّ منه تعالى لانهدم الوجود، وانهدم وفني، ولم يبقَ له أثر.

فلذلك قال أهل المعرفة: إن تجلِّي الحق -سبحانه وتعالى- على القلوب على الدوام، ولا يمنع من ظهور أنوار هذا التجلِّي إلاَّ الاشتغال بالسوى؛ فلذلك يأمرون بذكر لا إله إلاَّ الله في الابتداء؛ لأنها مكنسة الأغيار، فإذا ذهب السوى؛ ظفرت بالمولى، وما أحسن ما قاله بعضهم:

---

(١) هو نباتٌ من التوابل، له رائحة عطرية قوية، وطعم حار مر قليلاً، ويسمى أيضًا: صعتر، وبالعامية: زعتر، وهو يفيد في آلام الحلق والأنف والحنجرة وفي معاجين الأسنان، (راجع قاموس الغذاء ص ٢٧٢، ٢٧٣).

أنْـــتَ حاضـــرٌ في الحضــرةِ ليـــتَ شـعري هَــل تــدْري
إنَّ محـــــبوبكَ حاضـــــرٌ مَـــا لجـــرحكَ لا يـــبرأ

والحق سبحانه وتعالى ليس بغائب؛ وإنما الغائب أنت عنه؛ لاشتغالك بسواه، فاحضر قلبك تكن كأنك تراه؛ وهذا هو مقام الإحسان كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

هاهنا نكتة ذَوقية في قوله ﷺ: (**فإن لم تكن**): أي فإن فنيت تراه، إن تحققت بمقام الفناء؛ نلت مقام الشهود؛ وهي الرؤية القلبية التي تصير في الآخرة بصرية، وأصل ذلك كله وسبب تحققه التحلّي بالتوحيد، ومعرفة أن الأشياء كلها صادرة منه تعالى، ومستمدة من فضله، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النور:٢١].

وقال في الحكم العطائية: «لو كنتَ لا تصلُ إليه إلا بعدَ فناءِ مساويكَ، ومَحْوِ دعاويك لم تصلْ إليه أبدًا، ولكنْ إذا أرادَ أن يُوصلَكَ إليه سَتَرَ وصفَكَ بوصفهِ

(١) رواه البخاري (٢٧/١)، ومسلم (٣٩/١)، وأبو داود (٢٢٣/٤)، والترمذي (٦/٥).
فعلّق ﷺ الرؤية بعدم الكون الذي هو عبارة عن العدم والفناء، وإن لم يساعد المعنى بحسب القواعد العربية ما بعده. لأن (لم تكن) فعل شرط، و(تراه) خبر تكن.
وقوله: (فإنه يراك) جزاء الشرط لا إن لم تكن فعل الشرط.
وتراه جزائه، ولا يكون التعليق المذكور صحيحًا إلا بهذا التقدير، لكن أهل الإشارة يشيرون في الأحاديث والآيات إلى معنى لا يساعد عليه تمامها كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] على قراءة الرفع بمعنى نحن كل شيءٍ، وكل شيءٍ صورة تجلياتنا وظهوراتنا، والصورة عين ذي الصورة بوجه، وإن كانت غيره بوجه، وقوله: (خلقناه بقدر) لا يساعد على هذا المعنى، فلا يعرف مرادهم إلا من يعرف بالإشارة، ولا يحتاج إلى العبارة، وقال الله في الحديث القدسي: «تجوع ترابي، تجرد تصل» أي: إلي والجوع موت اختياري وإرادي وهو المشار إليه بحديث: «موتوا قبل أن تموتوا» ولهم موتات أخرى غير الجوع من الصبر على الشدائد، ومخالفة النفس والقناعة كل منها يفيد الآخر. وانظر: شرح الحكم الأكبرية للشيخ حسن الكردي الباني (ص٢٨١) بتحقيقنا.

وغَطّى نعتَكَ بنعتِهِ، فَوَصَلَكَ إليهِ بما منه إليكَ لا بما منك إليه[١].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة في شرح هذه الحكمة العطائية: الوصول إلى الله هو العلم به وبإحاطته بحيث يفني من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهذا لا يكون إلا بعد موت النفوس، وحط الرؤوس، وبذل الأرواح، وبيع الأشباح، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، أي جنة المعارف لأهل الجهاد الأكبر، وجنة الزخارف لأهل الجهاد الأصغر، ولقوله ﷺ: «**مُوتُوا قبلَ أنْ تَمُوتُوا**»، ذكره النقشبندي في شرح الهائية حديثًا.

وقال في **لطائف المنن**: لا يدخل على الله إلا من بابين:

أحدهما: الموت الأكبر وهو الموت الحسي.

والثاني: الموت الذي تعنيه هذه الطائفة، يعني موت النفوس.

وقال الششتري ﷺ:

لــنْ يــنالَ الوِصالَ مَنْ فيهِ فَضْلَهْ　　إنْ تُــرِدْ وصلَنا فموتُــكَ شَــرْطٌ

وقال الشيخ أبو الحسن ﷺ:

لا يصل الولي إلى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته انتهى.

وهذه التصفية ليست هي من فعل العبد وكسبه، وإنما هي بسابق عناية ربه، فلو كان العبد لا يصل إلى الله تعالى إلا بعد فناء مساوئه ومحو دعاويه من حيث هو هو لم يصل أبدًا، لكن الحق تعالى من كرمه وجوده إذا أراد أن يطوي عنه مسافة البعد أظهر له من أنوار قدسه ونعوت وصفه ما يغيب به العبد عن شهود نفسه، فحينئذ تفنى المساوي وتمتحق الدعاوي، فيحصل الوصول ويبلغ المأمول، بما من الله إلى العبد من سابق العناية والوداد، لا بما من العبد إلى الله من الكد والاجتهاد.

وإن شئت قلت: فناء المساوي: هو التطهير من أوصاف البشرية، وهي الأخلاق المذمومة من حيث هي، ومحو الدعاوى، وهو التبري من الحول والقوة، بحيث لا يرى لنفسه فعلاً ولا تركًا ولا نقصًا ولا كمالاً، وإنما هي غرض لسهام الأقدار تجري عليها أحكام الواحد القهار، فتحقيق هذين الأمرين على الكمال، مع وجود النفس كاد أن يكون من المحال، لكن الحق تعالى لكرمه وجوده إذا رأى منك صدق الطلب وأراد أن يوصلك إليه وصلك إلى وليٍّ من أوليائه، وأطلعك على خصوصيته واصطفائه فلزمت الأدب معه، فما زال يسير =

=

بك حتى قال لك: ها أنت وربك، فحينئذ يستر الحق تعالى وصفك الذي هو وصف العبودية بوصفه الذي هو وصف الحرية، فتحسن أوصاف البشرية بظهور أوصاف الروحانية، ويغطي أيضًا نعتك الذي هو الحدوث بنعته الذي هو القدم، أو غطى نعتك الذي هو العدم بنعته الذي هو الوجود.

وقال الشيخ زروق ﷺ: ستر فقرك بغناه، وذلك بعزه، وعجزك بقدرته، وضعفك بقوته، ويصرفك عن شهود ذلك منك وإليك بشهود ما منه إليه انتهى.

قلت: وهو لازم لما فسرته به من وصف العبودية ونعت الحرية، فوصلك حينئذ بما منه عليك من الإحسان، واللطف والامتنان، لا بما منك إليه من المجاهدة والطاعة والإذعان، ومثال النفس كالفحمة كلما غسلتها بالصابون زاد سوادها، فإذا اشتعلت فيها النار ونفخ فيها الريح كستها النار ولم يبق للون الفحمة فيها أثر، فكذلك أوصاف البشرية إذا كساها نور الروحانية تغطت ظلمة البشرية، ولم يبق لها أثر فتنقلب البشرية في صفة روحانية، وفي ذلك يقول الششتري في بعض أزجاله:

زالــــــتِ البَشَــــــرِيًّا   فمَــــتَى مَــــا يَــــبِينُ لِــــيْ
في صَــــــفَا رُوحَانِــــيًّا   وتَحَوَّلَــــتْ غــــيري

والنار التي تحرق البشرية: هي مخالفة الهوى، وتحمل النفس ما يثقل عليها، كالذل والفقر ونحوهما مع دوام ذكر الاسم المفرد، فكلما فني فيه ذابت بشريته وقويت روحانيته حتى تستولي على بشريته، فحينئذ يكون الحكم لها فتغيب في نورِ مذكورها، وتغرق في شهود عظمة محبوبها، فحينئذ يحصل الوصال، ويتحقق الفناء في ذي العظمة والجلال.

وللششتري أيضًا ﷺ: فالتفت الخطاب، وسمعت مني، كلي عن كلي غاب، وأنا عني مغني، وارتفع لي الحجاب، وشهدت أني، ما بقي لي أثر، غبت عن أثرى، لم أجد من حضر، في الحقيقة غيري، وبالله التوفيق هذا آخر الباب الثالث عشر.

وحاصلها: أمرك بالتعلق بأوصاف الربوبية، والتحقق بأوصاف العبودية وعدم مشاركتك له في وصف الحرية، وما تعودت به من ذلك فأحرق لها تلك العوائد هنالك حتى تتهذب وتتأدب، وتكتفي بعلم الحال عن وجود الطلب، فيكون طلبها شاهد حالها من الذلة والانكسار، وظهور الفاقة والاضطرار، فحينئذ تترادف عليها المواهب، وتنال بذلك غاية المطالب، ومنتهى الرغائب، وهو الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس، من غير حيلة ولا اكتساب، وإنما هو منة من الكريم الوهاب، منَّ عليها بالوصول، وتفضل عليها بالقبول.

عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حيث واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؛ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال؛ بل لم يكن هناك إلاَّ محض الإفضال، وعظيم النوال، فلا تعقد نية همتك إلى غيره.

فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، لا ترفعن لغيره حاجة، هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعًا؟ إن لم تحسن ظنَّك به من أجل وصفه حسن ظنَّك به؛ لوجود معاملته معك، هل عودك إلاَّ حسنًا؟ وهل أسدى إليك إلاَّ مننًا.

العجب كل العجب ممَن يهرب ممَن لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه. قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]؛ ولذلك قال:

٣- لا يصلح سماع هذا العلم إلاَّ لَمن حصلت له أربعة: الزُّهد، والعلم، والتوكُّل، واليقين.

أي لا يصلح سماع هذا العلم: أي علم الطريقة إلاَّ لَمن حصلت له أمور أربعة:

الأول: الزُّهد، وهو ترك فضول الحلال[1].

---

(١) إن الزهد يختلف باختلاف المقام، فللعوام زهد بمعنى ترك الحرام، وللخواص زهد أيضًا وهو ترك الفضول من الحلال، ولأخصهم زهد وهو ترك ما يشغلك عن مولاك، والكل خير وممدوح على ما ورد به الحديث حيث قال النبي ﷺ:
«الزهد خير كله»، والكامل الأخير؛ لأن حقيقة الزهد أن تترك نفسك دنياك وروحك عُقباك، ويبقى سرّك مع مولاك.
وقال الشيخ الجيلي قُدِّس سرَّه في الإنسان الكامل: « زهد المسلمين والمؤمنين والمحسنين في الدنيا ولذاها، وزهد الشهداء في الأولى والعقبى، وزهد الصديقين في سائر المخلوقات، فلا يشهدون إلا الحق تعالى مع الأسماء و الصفات، وزهد المقربين في البقاء معهما فهم في الحقيقة للذات»، ويمكن أن يكون مراد الشيخ هذا الأخير وهو الظاهر من إطلاقه، ويمكن أن يكون مراده زهد الصدِّيقين، لكن بتقدير معطوف بعد الجبار أي: وأسمائه وصفاته، والمعنى ليس الزاهد الكامل الذي يعمل الزهد في الدُّنيا والدرهم المستعبدين للناس والمهلكين لهم حيث ورد: «أهلك الناس الدينار والدرهم» بأن يترك الالتفات إليهما بحيث لا يخطران لا هما ولا وجودهما بباله، بل الزاهد الكامل الذي زهد فيما سوى الجبار من الدنيا، والآخرة وما يتعلق بهما حتى العلوم والمعارف بأن يشهد الحق وأسمائه وصفاته، بل لا يشهد =

فإن السالك مسافرٌ إلى مولاه، ومتى كان معه أكثر مما يحتاجه في سفره؛ كان ذلك معوِّقًا له عن السير، فإن حضرة الحق محرَّمة على مَن يدخلها، ومَن خلفه شيء يجذبه.

كما قال في الحكم العطائية: كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في

=

إلا الذات بدون اعتبار الأسماء والصفات وهذا هو الطي الحقيقي، ومن هنا يقال: المسافة إلى خطوتين، وإليه يشير قوله عليه ﷺ: «الدنيا خطوة مؤمن» أي: يتخطاها بالزهد فافهم.

وقال بشر الحافي ﷺ: «من دخل في طريقنا يومين فقد حاز مُلك الدارين».

فيدلُّ هذا على أن المسافة يومان في اليوم الأول يترك الدُّنيا، وفي الثاني يترك الآخرة، وفي اليوم الثالث واصل؛ لأنه يكون لربِّه حقًا بلا علل، وأمَّا طي الأيام بلا طعام وشراب، وقطع الأرض في أقرب مدة بلا مشي، وتعب فهو رسمي لا اعتداد به.

وقال بعض: ليس الشأن أن تُطوى لك الأرض فإذا أنت حيث مشيت من البلاد، بل الشأن أن تُطوى عنك أوصاف نفسك فإذا أنت عند ربك، وقال بعض: من مكنه الله على مخالفة هواه فهو أعظم من المشي على الماء والهواء، ويناسبه قول بعض: لا تتعجبوا ممن لم يكن في جيبه شيء فيخرج منه ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع في شيءٍ فلم يتغير بفقدانه عند إدخال يده في جيبه، وعند هذه الطائفة كل ما يشغلك عن مولاك فهو دنياك تحجب به عن الحق تعالى، ولذا نفي الشيخ قُدِّس سرَّه اسم الزاهد الأعلى من زهد فيما سواه تعالى، وهو الغاية العظمى والمطلب الأقصى؛ إذ فيه غاية الرِّضا.

ولا يصل إلى غاية رضاء الحق تعالى وكماله الذي في قلبه شيء صفته سوى الحق تعالى من كل ما يمنعك عنه تعالى؛ لأنه تعالى وهبك نعمة الوجود وما وضع فيك إلا قلبًا واحدًا: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ [الأحزاب:٤]، وذلك حتى تكون من الغير مُعرضًا، وعليه مُقبلاً، وفي محبته خالصًا صادقًا؛ لأن القلب الواحد يكفيه مُحبًّا واحدًا، ولا ينبغي أن تجعل القلب الواحد مائة جزء، وترسل كلَّ جزءٍ منها لطلب مقصد، والتفرقة ليست إلا هذا، أو الجمعية أن يشتغل الواحد بالواحد ويعرضَ عن الكل، وظن بعض أن جمعية القلب في جميع الأسباب فبقوا في التفرقة أبد الآباد، وكل من كان في التفرقة والوسواس فهو عند أهل الجمع من أشر الناس، بل ليس بناس إنما هو نسناس، فالسالك يجب عليه أن يخرج من التفرقة، ولا يسلك إلا طريق الوصول إلى ربِّ الأرباب.

مرآته؟ أمْ كيفَ يرحلُ إلى الله وهو مُكَبَّلٌ بشهواته؟ أمْ كيفَ يطمعُ أن يدخلَ حضرةَ اللهِ وهو لم يتطهَّرْ من جَنَابَةِ غفلاته؟ أمْ كيفَ يَرْجُو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هفواته؟.

الثاني: العلم: أي علم الشريعة المتعلّق بالصلاح الظاهر.

فمتى لم يعرف السالك إصلاح ظاهره؛ لا يتأتى له معرفة إصلاح باطنه.

مَن لم يقف على الأبواب؛ لم يخط بمنازل الأحباب.

فتزيَّن أيُّها السالك بملابس الشريعة، وتحلّى بآداب الطريقة؛ تشرق عليك أنوار الحقيقة، وتصير من أهل المجاورة والمسامرة، وتذوق لذيذ الخطاب، وتفرّق بين الخطأ والصواب، ويصير قلبك حضرة من حضرات الحق ترجع إليه في جميع الأمور ما جلَّ منها وما دقّ[١].

---

(١) قال الشيخ اليافعي: اعلم وفقنا الله سبحانه وتعالى وإيَّاك للزوم قرع باب الملك القدوس وفتح ومنح الوصول إلى حضرة الجناب المقدس المحروس الذي قال فيه: الميثاق لمشاهدة الجمال، وشرب راح المحبة في كئوس الوصال، فديتك، حدثني عن الجانب الذي تقدس أن يحظى به كل طالب أن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية، ولها طريقة، وهي عزائم الشريعة، فمن سلك تلك الطريقة، وصل إلى الحقيقة، فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة، ونهاية الشيء غير مخالف له، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة.

وقال سيدي أحمد الرفاعي في حكمه: [**كُلُّ حَقِيْقَة خَالَفَتْ الشَّرِيْعَة فَهِي زَنْدَقَةٌ**].

شرحها الشيخ أبو الهدى الصيادي بقوله: قد ألزمنا القرآن باتِّباع هذا النبي الكريم، وحذَّر من مخالفته ﷺ.

قال تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

وقال ﷺ: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تآمر عليكم عبدٌ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتّي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عُضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدّثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**».

وانظر ما قاله المؤلف ﷺ في كتابه «البرهان» ما نصَّه:

إياكم ومحدثات الأمور، قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**».

«**عاملوا الله بالتقوى، وعاملوا الخلق بالصدق وحسن الخلق، وعاملوا أنفسكم بالمخالفة،**

=

=

وقفوا عند الحدود». ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].



إيَّاكم والكذب على الله والخلق، فإن الدعوى كذب على الله وخلقه.

كل العبودية معرفة مقام العبدية.

الدين: عمل بالأوامر، واجتناب عن النواهي، وخضوع وانكسار في الأمرين.

العمل بالأوامر يقرِّب إلى الله، والاجتناب عن النواهي خوف من الله.

طلب القرب بلا أعمال محال وأي محال.

الخوف من الجراءة فضيحة.

اطلبوا الله بمتابعة رسوله ﷺ **«إيَّاكم وسلوك طريق الله بالنفس في الهوى فمن سلك الطريق بنفسه ضلَّ في أول قدم»**.

أي سادة. عظموا شأن نبيكم، هو البرزخ الوسط الفارق بين الخلق والحق، عبد الله حبيب الله، رسول الله، أكمل خلق الله، أفضل رسل الله، الدال على الله، الدَّاعي إلى الله، المخبر عن الله، الآخذ من الله، باب الكل إلى الحضيرة الرحمانية، وسيلة الكل إلى الحضيرة الصمدانية، من اتَّصل به اتَّصل ومن انفصل عنه انفصل.

قال عليه صلوات الله وتسليماته: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**.

أي سادة. اعلموا أن نبوَّة نبيِّنا ﷺ باقية بعد وفاته كبقائها حال حياته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته الناسخة لجميع الشرائع ومعجزته باقية وهي القرآن.

قال تعالى: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** [الإسراء: ٨٨].

أي سادة. من رد أخباره الصادقة كمن ردَّ كلام الله تعالى، آمنا بالله وبكتاب الله وبكل ما جاء به نبيِّنا محمد رسول الله ﷺ.

قال تعالى: **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [النساء: ١١٥] انتهى.

وسُئِل جدّنا الخامس السيد الشيخ حسنين برهان الدين قُدِّس سرُّه ﷺ عن أقرب الطرق إلى الله، فقال للسائل: الطريق إلى الله الشرع.

وأما ما سمعته من أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فتلك طرق القبول الداخلة في دائرة

=

الشرع، كقول القائل الله وقبوله عند قولها، أو كصلاة في جوف الليل وقبوله عندها، أو كصدقة وغير ذلك.

فإذا تشرعت فإنك دخلت حيطة في دائرتها، تجد الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

وقال الصياد في كتابه ضوء الشمس: «وجميع العلماء، والأولياء، والصلحاء، والأتقياء، والأقطاب، والأفراد، والأنجاب، والأوتاد، وأئمة أهل الرشاد الذين فاضت بركاتهم على العباد، وملأ ذكرهم البلاد، ملتمسون من رسول الله، ومستمدون من إمداداته، ومستفيضون من فيوضاته، ومشمولون بإحساناته، ومنعمون بإنعاماته، أيديه لهم شاملة، والطاقة لديهم متواصلة.

فينبغي لكل من منّ الله تعالى عليه بالإسلام أن يكون في جميع حالاته متابعًا له عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً وتقريرًا، ويعض على سنته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده بالنواجذ.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]: أي ينقادوا انقيادًا.

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب:٢١].

والأسوة: القدوة، وهل يجهل ذو لُبٍّ وبصيرةٍ أن شريعته الطاهرة، وكلمته القاهرة شريعة العدل الأكمل، وكلمة الحق الذي لا يتحول، والفارقة بين الحق والباطل، والكافلة لحفظ حق الضعاف من تسلط الأقوياء، ونعم الكافل، والدالة على خيري الدنيا، والدين والممدودة الظلال؛ لحماية العجزة والمساكين.

وفي الحديث الشريف: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**».

زاد في رواية: «وكل ضلالة في النار».

وفي حديث آخر: «**من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني**».

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها**».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد**».

وعن أنس: قال ﷺ: «**من أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي**».

=

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو من منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولّى، واصلاه جهنم وساءت مصيرًا، وقالوا: الاعتصام بالسنة نجاة.

وعن عطاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩]: أي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة:

الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

وفي الحديث: «**من رغب عن سنتي فليس مني**».

وانظر يا أخي ما قاله السيد أحمد الرفاعي ﷺ: لو بلغنا أن رسول الله ﷺ أمرنا بقص الأعناق لقصصناها اتبّاعًا وامتثالاً لأمره ﷺ.

وقال لولد بنته القطب المقرب أبي إسحاق السيد إبراهيم الأعزب الرفاعي قُدِّس سرُّه: ما أخذ جدك طريقًا لله إلاّ اتباع رسول الله ﷺ، فإن من صحَّت صحبته مع سر رسول الله ﷺ اتَّبع آدابه، وأخلاقه، وشريعته، وسنته، ومن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين انتهى.

ويكفيك في النهي عن مخالفة السُّنة النبوية، والطريقة المحمدية ما جاء من الآيات الفرقانية والنصوص القرآنية.

قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥].

ومعلوم أن الله تعالى ما أرسل هذا الرسول إلاّ ليطاع، وما بيَّن ﷺ أحكام سنته السنية إلاّ لأجل الاتباع، والخير كله لمن اهتدى فاقتدى واتبع.

والشر كله لمن ذلَّ فضَلَّ وابتدع، والنبي ﷺ بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ولم يترك خيرًا إلاّ وحضَّنا عليه كثيرًا، ولا شرًّا إلاّ وحذّرنا منه تحذيرًا، فمن أراد عز الدنيا والآخرة فشرعه ﷺ أعظم دليل، ومن فارقه قيد شبر فقد ضَل سواء السبيل انتهى. وانظر: قلائد الزبرجد شرح حكم مولانا الرفاعي أحمد (ص٩٨) بتحقيقنا.

الثالث: التوكُّل؛ وهو الاكتفاء بعلم الله تعالى فيك عن تعلُّق القلب بسواه. فإذا علمت أن الله تعالى عالم بحالك، قادر على كفايتك، أرحم بك من أبيك وأمك، بل ومنك عليك الجمع قلبك عليك، ولم تتوجه بقلبك إلاَّ عليه، ولم تنطرح إلاَّ بين يديه؛ وهو أعظم ما يحتاج إليه السالك في سلوكه، واحتياجه إليه أشدُّ من احتياج الظمآن إلى الماء(١).

---

(١) لطيفة قال سيدي إسماعيل حقي في معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣] صدق الله العظيم.

هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأصناف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

ومعنى التوكُّل: أن يجعل الله تعالى وكيلاً له، كما قال تعالى: ﴿**فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ [المزمل:٩].

ولذا قالوا: التوكُّل كله الأمر كله إلى الله تعالى؛ وكذا مَن يتوكَّل على الله الشافي في باب الشفاء عن أمراضه الجسمانية والروحانية؛ فهو حسبه فيه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الجامع في خصوص الجمع لِما تشتَّت منه، وتفرَّق؛ فهو حسبه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الغني في معنى الغنى، ودفع الافتقار بكل وجه من الوجوه غير الافتقار الذاتي، فإنه لا يرتفع أبدًا؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله العزيز في دفع ذلَّة الذي هد يُعطر ذُلَّ اليهود؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله المكرم في إزالة إهانته الموجبة لهوانه بين الناس المقتضية للاستيحاش عند الاستنباش؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله القوي؛ لرفع ضعفه الحاصل له من مرضه أو من غيره إلا الضعف الخلقي الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨]؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله المعين القادر في رفع عجزه وسلبه، وجلب إعانة له في حصول مطالبه؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكَّل على الله المقسط في دفع وجوده، الموجب لحوره بعد كوره؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله القاهر في قهر أعدائه الظاهرة والباطنة، وانتقامه منهم في سرِّه وعلانيته؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله الولي النصير في تولِّي أموره، ونصرته على الجند المخالف له أي جند كان؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله النافع الضار في إيصال النفع، وإبعاد الضر؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله النور في تنوير ظاهره بأنوار السراج، وباطنه بأنوار سرِّ المعراج؛ فهو حسبه
=

الرابع: اليقين؛ وهو الاعتقاد الجازم بأن ما أخبر الله به ورسوله حقٌّ لا شك فيه على وجه. يستولي ذلك على قلب السالك، ويصير له كالعيان، فيعلم حالاً وذوقًا أن الله ﷻ ما خلقه وسائر الجن والإنس إلاّ ليعبدوه، فلم يخلق له الحواس إلاّ ليصرفها في الطاعة، و لم يخلق له القلب إلاّ ليجعله موضعًا لذكره، ولا يشغله بسواه.

فمَن حصل له اليقين الذوقي على هذا الأسلوب لم يصرفه اللسان إلاّ في ذكره، و لم يصرف الآذان إلاّ في سماع كلامه، وكلام رسوله، وكلام أوليائه، وكل شيء يوصله إلى مولاه، و لم يصرف بصره إلاّ فيما ينفعه ويرشده إلى الطريق، وهكذا يحاسب نفسه في جميع النعم التي أنعم المولى بها عليه حتى يجوز مقام الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم به عليه لما خلق لأجله، فيستوجب المزيد كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

=

فيه، ومَن يتوكّل على الله البصير في كشف العمى عنه، وإراءة الطريق الموصِّل إليه، وهو الهدى الذي يحصل نوره في قلبه، فيفرِّق به بين الحق والباطل؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله السميع في حصول السمع له حتى يسمع خطابات عالم الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله المتكلّم في إعطاء القدرة له في التكلُّم حتى يتكلَّم من جميع المراتب، ويحصل من جانبه الهداية لجميع أرباب المطالب؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكّل على الله الحي في قتل نفسه، وإحياء قلبه حتى يجد حياة طيبة باقية؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الحكيم في حصول الحكمة العظمى لقلبه، وجريان ينابيعها في باطنه، وجريان الرحيق، والنسيم، والسلسبيل، والكوثر في الجنة؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الهادي في أمر ضلَّ فيه، فلم يهتدِ، و لم يجد لدفع خيرته سبيلاً؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الرشيد في أمر إرشاده إلى أمره، ولو بلا واسطة؛ كأمر أُويس القرني؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الباقي في إفناء وجودياته، وإزالة تعيناته؛ فهو حسبه فيه، وهكذا فمَن اكتفى بالله؛ كفاه الله في كل مؤنته، ودفع عنه كل ضرورته. وانظر: مرآة الحقائق (ص٤٠٤) بتحقيقنا.

وما أحسن ما قال بعضهم هذه الأبيات:

كـــانَ رقيبًا منكَ يرعى خَواطري … وآخـــر يـــرعى نَاظـــري ولِساني

فمَـــا رمقـــتْ عيناي بَعدكَ منظرًا … لِســـوَاكَ إلاَّ قُلـــتَ قـــد رمقاني

ولا بَـــدرت مَـــن في دونكَ لفظة … لغَـــيرِكَ إلاَّ قُلـــتَ قـــدْ سمعَـــاني

ولا خَطرتْ في السرِّ دونكَ خطرة … لغَـــيركَ إلاَّ عـــرجًا بعـــنَاني

وأصل ذلك كله من التحقُّق بمقام اليقين[١]، ومعرفة أن الله تعالى مطَّلع عليه في كل وقت وحين.

كما قال الشيخ ﷺ:

٤- الحـــق تعالى مطَّلع على السرائر، والظواهر في كل نفسٍ وحالٍ، فأيما قلب يراه مؤثرًا له؛ حفظه من طوارق المحن ومعضلات[٢] الفتـــن.

هذه الحكمة هي قطب دائرة أهل الطريق، وخلاصة المعنى الذي يحوم حول حماة أهل التحقيق، وهو مقام المراقبة[٣] مقام الإحسان، مقام مَن يعبد الله كأنه يراه

(١) اعلم أيدك الله تعالى أن السلوك في الطريق المبين والوصول إلى عالم اليقين موقوف على الكامل المرشد الأمين، فإن موسى عليه السلام مع كمال نبوته، وارتفاع درجة رسالته التمس من معلمه الخضر عليه السلام الجد والمتابعة في مكتب تعلم العلم اللدني، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ [الكهف:٦٦].

(٢) في نسخة: (مضلات).

(٣) فمقام المراقبة هو مقام الإحسان، وهو مقام الشهود.

ولذا قال ابن عياد في المفاخر: قال سيدنا الشاذلي ﷺ: أيها السالك بطريق الآخرة بتحصيل ما أمرت به في ظاهرك، فإذا فعلت ذلك فاجلس على بساط المراقبة وخذ بتخليص باطنك حتى لا يبقى فيه شئ مما عنه نهاك وأعطي الجد حقه، وأقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك فما ورد عليك من خطرات قصدك عن مرادك فاعلم أولاً قرب ربك منك علماً تباشر قلبك بتكرار النظر في جلب منافعك ودفع مضارك وانظر هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض وإن من الأرض نفسك ومن السماء قلبك، فإذا نزل من السماء إلى الأرض شئ من ذا الذي يصرفه عنك غير الله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنــزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

=

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، فأعط المعية حقها بلزوم العبودية له في أحكامه ودع عنك منازعة الربوبية في أفعاله من ينازعه يغلب ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] نعم الحق ما أقول لك ما نفس من أنفاسك إلا والله متوليه مستسلمًا كنت أو منازعًا لأنك تريد الاستسلام في وقت وتأبى إلا النــزاع وتريد النــزاع في وقت آخر وتأبى إلا الاستسلام فدلت هذه على ربوبيته في جميع أفعاله ولا سيما عند من اشتغل بمراعاة قلبه لتحصيل حقائقه، فإذا كان الأمر بهذا الوصف فأعط الأدب حقه فيما يرد عليك بأن لا تشهد لشئ منك أولية إلا بأوليته ولا آخر إلا بآخريته ولا ظاهرًا إلا بظاهريته ولا باطنًا إلا بباطنيته، فإن تنبهت لمؤل الأول نظرت لما تأول فيما تأوله، فإن صدر عليك خاطر من محبوب يوافق النفس أو مكروه لا يلائمها مما لا يحرمه الشرع فانظر لما يخلقه الله فيك بآثار ما يخطر ببالك، فإن وجدت تنبيهًا على الله فعليك بالتحقيق، فذلك أدب الوقت عليك ولا ترجع إلى غيره، فإن لم تجد السبيل إلى التحقيق به فعرس بين يديه فهو أدب الوقت عليك ومهما رجعت إلى غيره فقد أخطأت سبيلك فإن لم يكن ذلك منك فعليك بالتوكل والرضا والتسليم فإن لم تجد السبيل إليه فعليك بالدعاء في جلب المنافع ودفع المضار بشرط الاستسلام والتفويض وأحذرك من الاختيار فإنه شر عند ذوي البصائر فإذن هي أربعة آداب أدب التحقيق وأدب التعريس وأدب التوكل وأدب الدعاء، فمن تحقق به حفظ منه ومن عرس عنده كفي من غيره ومن توكل عليه كفي من اختيار نفسه باختيار ربه ومن دعاه بشرط الإقبال والمحبة أجابه إن شاء فيما يصلح له أو منعه إن شاء فيما لا يصلح له.

ولكل أدب بساط البساط الأول: بساط التحقيق إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن صفاته فكن هنالك بسرك وحرام عليك أن تشهد غيره .

البساط الثاني: بساط التعريس إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف عن أفعاله فعرس هناك بسرك وحرام عليك أن تشهد غير صفاته شاهداً أو مشهوداً وفي الأول فناء الشاهد وبقاء المشهود.

البساط الثالث: بساط التوكل إذا ورد عليك خاطر من غيره ليس مما تقدم ذكره من محبوب أو مكروه وكشف لك عن عيوبك جلست على بساط محبته متوكلاً عليه راضيًا بما يبدو لك من آثار فعله من أنوار حجبه.

البساط الرابع بساط الدعاء فإن ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن فقرك إليه فقد دلك

=

على غناك فاتخذ الفقر بساطاً فاحذر أن تنـــزل عن هذه الدرجة إلى غيرها فتقع في مكر الله من حيث لا تعلم وأقل ما يكون منك إذا تنـــزلت عنها أن ترجع إلى نفسك مدبراً لها ومختاراً وأشرقت أحوالك ولا حال لك أن تحملها على الجد والاجتهاد إما في ظاهرك أو في باطنك طمعاً أن تدفع بذلك عن نفسك وما أسوأ حالك إذا كابدت أن تدفع عنها ما أراد الله أن يدفعه عنك فكيف إذا نازعته فيما لم يرد دفعه عنك وأقل ما في هذا الباب دعاوى الشرك، فإنك قد غلبت وما غلبت فإن كنت غالباً فكن حيث شئت ولن تكون حيث شئت أبدًا فدلَّ اجتهادك على عظيم جهلك بأفعال الله وما أقبح عابداً جاهلاً أو عالمًا فاسقًا فما أدري بأي الموضعين أصفك بالجهل أم بالفسق أم بهما جميعاً نعوذ بالله من تعطيل النفس عن المجاهدات ومن خلو القلب عن المشاهدات إذ التعطيل ينفي الشرع والخلو ينفي التوحيد وحاكم الشرع قد جاء بهما جمعًا فأدرج بهما جميعًا عن منازعة ربك تكن موحداً واعمل بأركان الشرع تكن سُنيًا واجمع بينهما بعين التأليف تكن محققًا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] ثم إن خطر لك أيضًا في مراقبتك خاطر من مكروه في الشرع أو محبوب فيه مما قد سلف منك فانظر ما تذكر به وتنبه وإن ذكرت الله فأدبك بتوحيده على بساط تفريده فإن لم ترد بك رؤية فضله فيما جلا لك من لطائف رحمته وزينك من طاعته بتخصيص محبته على بساط مودته، فإن نزلت عن هذه الدرجة و لم تكن هناك، فأدبك رؤية فضله إذ سترك فيما اقترفت من معصيته و لم يكشف سترك لأحد من خلقه فإن صُرفت عن هذا الباب وذكرت معصيتك و لم تذكر ما تقدم من الآداب الثلاثة فقم بأدب الدعاء في التوبة منها أو من مثلها بطلب المغفرة لها بحسب ما يطلبه الجاني المحاط به هذا في جانب المكروه في الشرع وأما إذا ورد عليك خاطر من طاعته تقدمت وذكرت من أفادك فلا تقرر عينك بها بل بمنشئها، فإذا قرت عينك بغير فقد سقطت عن درجة التحقيق فإن لم تكن في هذه المنـــزلة فكن في التي تليها وهو أن تشهد عظم فضل الله تعالى أن جعلك من أهلها وميزانها أن ترزق خيراً منها بل من علامتها الدالة على صحتها وإن لم تتبوأها وبُوئت فيما دونها فأدبك تدقيق النظر في تلك الطاعة هل هي هي وأنت سالم من المطالبة فيها أم هي بعكس ذلك وأنت مأخوذ بها نعوذ بالله من حسنات تعود سيئات ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] فإن نزلت عن هذه الدرجة إلى غيرها فأدبك طلب النجاة منها بحسنها وسيئها وليكن هروبك من حسناتك أكثر من هروبك من سيئاتك إن أردت أن تكون من الصالحين .

فإن لم يكن يراه فيعلم أن الله يراه في سائر الأحيان، مقام من لحمه ودمه معنى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥].

واشتعلت فَتيلة سراج قلبه بنار معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:١٤].

فصارت الخلوة والجلوة بالنسبة إليه سواء، فلم يشهد بظاهره وباطنه إلاّ مولاه، ولم يتوجه في قضاء حوائجه إلاّ إلى الله، ينشد لسان حاله في غدوه وآصاله:

يَـــا مَن يَرى مَا في الضَّميرِ ويسمعُ أنْـــت المعـــدُّ لكـــلِّ مَـــا يتوقعُ

=

وقال الشاذلي ﷺ: إذا أردت أن يكون لك نصيب ممـــا لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة إلى من يدلك على الله بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن مما يعرض عنها ليعطى شيئاً على ذلك بل كن في ذلك عبداً لله أمرك أن ترفض عدوه، فإن أتيت بهاتين الخصلتين الإعراض عن الدنيا والزهد في الناس فأقم مع الله بالمراقبة والتزم التوبة بالرعاية والاستغفار بالإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة، وتفسير هذه الأربعة أن تقوم عبداً لله فيما تأتي وتذر فتراقب قلبك ألا يرى في المملكة شيئاً لغيره، فإن أبيت بها نادتك هواتف الحق بأنوار العز إنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله بالمراقبة وأنت تسمع: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب:٥٣] فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت به أنه قربة فتلزم بالتوبة والرعاية لقلبك أن لا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه وإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضًا من قبل الحق أليست التوبة منه بدءٍ والإنابة تتبعها منه واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك فهنالك تنظر أوصافك، فتستعيذ بالله منها وتأخذ في الاستغفار والإنابة والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه، فإن كنت بهذه الصفة أعني الاستغفار والإنابة ناداك من قريب اخضع لأحكامي ودعِ عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك، وإنما هي ربوبية تولت عبودية فكن عبداً مملوكاً لا تقدر على شئ فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شئ عليم، وإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هناك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين.

يَا مَنْ يُرجى للشَّدائدِ كُلِّها ... يَا مَنْ إليهِ المشتكَى والفزعُ
يَا مَن خزائنُ ملكهُ في قولِ كُنْ ... امْننْ إنَّ الخيرَ عندكَ أجمعُ
مَا لي سِوىَ قَرعي لِبابكَ حيلةً ... ولأنْ طُردتَ فأي بابٍ أقرعُ
مَا لي سِوىَ فَقري إليكَ وسيلةً ... فبالافتقارِ إليكَ فقري أدفعُ
ومَن الذي أدعُو وأهتفُ باسمهِ ... إنْ كانَ فضلكَ عنْ فقيركَ يُمنعُ

والحاصل: إن لبَّ الطريق أن يعلم السالك أن الحق سبحانه وتعالى مطَّلع على سرائره وظواهره في كل نفسٍ وحال، فإن خطرت له خطرة نفسية أو شيطانية؛ قال لنفسه: إن الحق مطَّلع على هذه الخطرة.

أيتها النفس: أيهما أحبُّ إليك إيثار الحق واتِّباعه فيما أمر ونهى، أو اتِّباع مرادك؟ فمَن ساعدته العناية، وأمدَّه التوفيق آثر الحق تعالى بقلبه على نفسه، وأعرض عن تلك الخطرة حتى جعلها معدومة كأمسه.

فمَن رآه الحق سبحانه وتعالى مؤثرًا له هذا الإيثار؛ حفظه من طوارق المحن، ومعضلات الفتن، ويصير الحق تعالى محبًّا له، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:

«لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعذته»[(١)].

فمَن كان الحق يا أخي سمعه وبصره ولسانه كيف يقع في طوارق المحن؟ أم كيف تضلّه الفتن؟

فاجتهد يا أخي في تصحيح هذا المعنى، واغسل السوء من القلب؛ لترتقي إلى هذا المعنى ما صلحت ما دامت فيك بقية لسواه، فإذا حوَّلت السوى أغنيناك عنك، وصلحت لنا، وأودعناك سرنا.

وما أحسن ما كان ينشده كثيرًا العارف أبو العباس المرسي ﷺ:

لَستُ مِن جملةِ المحبِّينَ إذا لمْ ... أجعلُ القلبَ بيتهُ والمقامَا

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤).

وطَـوافي في إحالــةِ الســرِّ فيهِ   وهــوَ ركــني إذا أردتُ استلامَا

فإذا أردت المضر والنافع، والترياق والمجدب لدفع سموم حيَّات هذه البلاقع[1]، فعليك كما قال ﷺ:

٥- عليك باستماع كلام العلماء من القوم، فإن الحق تعالى يُجري على ألسنة علماء كل زمانٍ ما يليق بأهله.

لما ذكر الشيخ ﷺ: مقام أهل القرب والشوق إليه.

وذكر بعض منازل أهل السلوك، وحرَّك أشجان القلوب؛ لتقبل عليه، شرع يُبيِّن الطريق الموصِّل إلى ذلك، والمطيَّة التي يسلك بها السالك في هذه المسالك.

وهو كلام العلماء فإنهم أطباء القلوب، والطبيب يُعطي المريض ما يناسب مِزاجه وسِنَّه ووقته.

وكذلك أطباء القلوب يُجري الله على ألسنتهم في كل زمان الدواء النافع لأهل ذلك الزمان.

فلذلك لَّما سُئل بعض العارفين عن الحال، إذا لم يظفر السالك بأحد من الأولياء؟ قال: عليك بكلامهم، فإن مَن طالع كلامهم، ولم يكن رجلاً يصير رجلاً، وإن كان رجلاً يصير فتى.

ولذلك قال في الحكم العطائية: كُلُّ كلامٍ يَــبْرُزُ وعليه كِسْوَةُ القلبِ الذي منه برزَ[2].

---

(١) البلاقع: هي الأراضي القفار التي لا شيء فيها.

(٢) قال سيدي ابن عجيبة: علامة الكلام الذي يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب، وتهييجه الأرواح وتشويقه الأسرار، فإذا سمعه الغافل تنبه، وإذا سمعه العاصي انــزجر، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه، وعظم شوقه، وإذا سمعه السائر طوي عنه تعب سيره، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله، فالكلام صفة المتكلم، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان المستمعين، فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، ولذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه: من تكلم عرفناه من ساعته، ومن لم يتكلم عرفناه من يومه، وقيل: الناس حوانيتٌ مُغلقةٌ، فإذا تكلموا فقد فتحوا، هناك يتبين البيطار من العطار.

=

وقال أيضًا: تسبقُ أنوارُ الحكماءِ أقوالُهم، فحيثُمَا صارَ التنويرُ وصلَ التعبيرُ(١).

=

وقالوا أيضًا: الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان حده الآذان، وإنهاض الحال أكثر من المقال، وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطّام، والنجم الثاقب التام.

وقال بعض العارفين: من كان قلبه روحانيًّا كان كلامه معنويًّا ينــزل من القلوب في أوسع ساحاتها، ومن كان قلبه نفيسًا كان كلامه حسيًّا، يعني لا يتكلم إلا في الحس، ولا يخوض إلا فيه، ومن طمس أُذن قلبه حجب الدنيا، فلا يَسمع ولا يُسمع، وقد يكون من الناس من هو عالم اللسان جاهــل القلب، وعلامتــه ترجيح حــديث الدنيا على حديث الآخرة، أو حديث الحس على حديث المعنى، ومن مثل هذا الحذر الحذر، لأن قلبه ميت، فكلامه كله على الميتة، والميتة هي الجيفة قال ﷺ: «الدنيا جيفة وطُلابها كلاب»، فمن تكلم على الدنيا، فمثله كالكلب، ولا خير في كلب، ولو كان عالمًا، قاله الشطيبي، ثم إن هذه الكسوة التي تبرز على الكلام إنما هي من نتائج الإذن من الله فيه، وأما إذا لم يكن إذن فيه فلا كسوة عليه.

(١) قال سيدي ابن عجيبة: الحكماء هم العارفون بالله الذين يتكلمون بالله، ويصمتون بالله، غائبون عن أنفسهم يشهدون ما من الله إلى الله، فإذا أرادوا أن يعبروا عما منحهم مولاهم من العلوم والمعارف سبق نور شهودهم إلى القلوب المستمعة، فتسرى فيهم على قدر صدقهم، فمنهم من يدخل النور سويداء قلبه، ومنهم من يقف النور على ظاهر قلبه، ومنهم من يشرق النور على طرف قلبه، فإذا عبر العارف عن المقامات والأحوال وصل التعبير على قدر سريان النور، فمن وصل النور إلى سويداء قلبه نهض من ساعته إلى ربه، ومن وصل إلى ظاهر قلبه خشع وخضع وعزم على البر والتقوى، ومن وصل إلى طرف قلبه عرف الحق وصدق، فحيثما صار التنوير وصل التعبير، وقولنا في تفسير الحكماء هم العارفون مأخذنا فيه، وقوله ﷺ: «رأسُ الحكمة مَخَافَةُ الله» انتهى.

وأعرف الناس بالله أشدهم له خشية، وفيهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وسئل مالك عن الحكمة؟ فقال: ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة، ثم قال: من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية، لأن عمل السر منبع الإخلاص، والإخلاص منبع الحكمة، وسئل مرة أخرى عن الحكمة أيضًا؟ فقال: نور يقذفه الله في قلب العبد المؤمن من فسحة الملك انتهى.

فأي قلبٍ يا أخي يصل إليه نور المعارف فلا يشرق، وأي غرس يُنمِّيه كلام الواصل فلا يُورِّق!.

فعليك بتتبُّع كلامهم، والاقتداء بآثارهم، واقصدهم في كل مكان، واخضع وانكسر لكلِّ مَن تتوهم فيه لمعة من مقام الإحسان، فإن الكون معمورٌ بهم، ولا يخلو عنهم.

وأنشد قوله:

لا تقـلْ دَارهَـا بشـرقي نجـدِ   كـلُّ ربـعِ العامـريَّة دارُ

ولَهـا مـنـزلٌ عـلى كلِّ ماءٍ   وعـلى كـلِّ دمـنةٍ لَهـا آثارُ

ولذلك قيل: إن الله تعالى خبَّأ ثلاثة مواضع:

خبَّأ رضاه في طاعته فلا تستقل طاعة.

وخبَّأ غضبه في معصيته.

وخبَّأ ولايته في قلوب عباده فلا تستحقر أحدًا.

فحسِّن اعتقادك في كل أحد؛ لتظفر بباب الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فإذا ظفرت بهذا الكنـز حزت مقام الإحسان، وغبت عن الأكوان، كما قال الشيخ هذا ﵁:

٦- إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره.

أشار الشيخ ﵁ بذلك إلى منتهى حال السالكين، وغاية بُغية العارفين؛ وهو مقام الغنى الذي تضمحل عنده الرسوم، ويذهب العلم والمعلوم، فلا يبقَ فيه إلاَّ الأحد الفرد الصمد، فكما إن شمس النهار إذا ظهرت؛ لم تشاهد النجوم، كذلك إذا أشرقت شمس المعرفة؛ أفنت الآثار، ولم تشهد إلاَّ الحيُّ القيُّوم، وشتَّان بين الشمسين؛ هذه شمس تغرب وتزول، وتلك شمس لا تغيب ولا تحول:

إنَّ شمـسَ الـنهارِ تغربُ بالليلِ   وشمـسُ القلـوبِ ليْست تغيبُ

شمس النهار تُدرك بالبصر، وهذه بالبصيرة، وتلك تنوِّر الأجسام، وهذه تنوِّر السريرة.

والحاصل: إن السالك إذا أخذ في سيره إلى مولاه، وجدَّ في سيره، وتأدَّب مع

الرَّقيق في مسراه قطع العوالم حتى يتشرَّف بالوصول إلى تلك المعالم:

فأول عالم يقطعه عالم الملك؛ وهو ما يُدرك بالبصر من الأجسام وغيرها؛ وهو عالم النفس.

ثم عالم الملكوت؛ وهو ما يُدرك بالبصيرة؛ وهو عالم القلب.

ثم عالم الجبروت؛ وهو عالم الروح.

ثم عالم اللاهوت؛ وهو عالم السر، وعنده يذهب الاسم والرسم، ولا يشهد هناك إلاَّ الأحد، وهذا غاية الفناء، ومنه يرجع العارف إلى البقاء، ويصير مرشدًا ومقتدى(١)، وكل ذلك من آثار الذِّكر والتشرُّف بفوائده.

وما أحسن ما قيل:

ذِكرُ الإلهِ ألْزم هَديتهُ لِذكْرهِ ... فيه القلوبُ تُطيِّبُ الأفواه

واجْعلْ حَلالَ تُقاهُ إن أخَا الحجى ... يَا صَاحَ مَن كانتْ حَلاه تُقاه

ولتخْلعْ النَّعلينَ خَلعَ محقِّقٍ ... فَلا عَن الكوْنينِ في مَسراه

ولتفنَ حَتى عَن فَناءِ يدانه ... عَيْن البقاءِ فَقدْ ذَاكَ تَراه

وإذا بَدا لَكَ فَاعلَم أنَّكَ لستَ هُوَ ... كَلا ولا أيْضًا تَكونَ سِواه

شَيْئان مَا اتَّحدا ولَكنْ هَا هُنَا ... سر تضيق نِطاقَنا عَن مَا هُو

يَا سامِعًا ما قَد أشَرْت لَه إلاَّ ... قلبٌ يفكْر مَا وَعتْ أُذناه

أَزلُ الحجابِ حجابَ قَلبكَ ينكشفُ ... لكَ سر مَا قَد غَابَ عَنكَ منا

إنَّ الإلهَ أجلُّ مَا مُتعرِّف ... مَن لَمْ يَراهُ قَد اسْتبَان عمَاه

أنَّى يَغيبُ ولَيسَ يُوجدْ غَيرهُ ... لَكنْ شَديدَ ظُهوره أَخفَاه

فيا أيُّها المرشَّح لهذه المطالب، ويا أيُّها الراغب في هذه المواهب ذكِّ الأعمال

---

(١) **قلت**: وأمَّا السرُّ فمن عالم الجبروت، وسرُّ السرِّ من عالم اللاهوت، وربَّما يطلقون السرَّ ويريدون به سرَّ السرِّ؛ وهو السرُّ المطلق الساري في الأرواح الإنسانية، وهو مكشوف عند الإكليل، مخفي عند غيرهم، وبه يظهر الفرق بين العارف والجاهل.

بشهودها بعين الرياء، والأحوال بالنظر إليها بعين الدعوى، والأقوال بالحكم عليها بالافتراء تكن متحققًا بالعبودية.

كما قال رضي الله عنه:

٧- مَن تحقَّق بالعبودية نظر أعماله[1] بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء.

شرع رضي الله عنه يبيِّن علامات ثلاثة يتحقق بها العبودية:

فالأولى من ذلك النظر إلى الأعمال بعين الرياء، وذلك ينشأ من عدم الرضا عن النفس؛ وهو أصل العبادة، كما قال تعالى حكايةً عن نبيه الكريم: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف:٥٣].

وكما قال في الحكَم العطائية: أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ، الرضا عن النفسِ، وأصلُ كُلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعفَّةٍ عدمُ الرضا منكَ عنها، ولأنْ تصحَبَ جاهِلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ من أن تصحبَ عالِمًا يرضى عن نفسه[2].

نظر بعضهم إلى بعض العارفين وهو يصلِّي بكمال الآداب من إتمام الركوع والسجود وغير ذلك من السُّنن، ومن المستحبَّات فاستحسن ذلك منه، وأطال النظر إليه فقال: لا يغرَّنك طول قيامي، وإكمال ركوعي وسجودي، فإن إبليس عبد الله ثمانين ألف سنة، وما أفاده ذلك شيئًا.

يعني: إني لا أرضى عن نفسي بهذه العبادة، ولا أتحقَّق فيها الإخلاص، وما

---

(١) في نسخة: أفعاله.

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: قلت: إذ صحبة من لا يرضى عن نفسه خير محض لتحققه بالإخلاص، فيسري ذلك في الصاحب حتى يتحلى بالإخلاص، ويصير من جملة الخواص. وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض، ولو كان أعلم أهل الأرض، لأن الطباع تسرق الطباع، إذ الجهل الذي يقرب للحضرة أحسن من العلم الذي يبعد عن الحضرة، ولذلك قال بعض العارفين: أشد الناس حجابًا عن الله العلماء، ثم العباد ثم الزهاد لوقوفهم مع علمهم وعبادتهم وزهدهم، والجهل الذي يوصل إلى الله علم على الحقيقة، والعلم الذي يحجب عن الله جهل على الحقيقة.

أعتمد إلاّ على فضله وإحسانه، كما هو شأن العارفين؛ ولذلك كان ﷺ إذا فرغ من صلاته يستغفر الله تعالى ثلاث مرات، فإذا كان هو ﷺ يستغفر بعد صلاته خوفًا من التقصير فيها، وقد جُعلت قرة عينه فيها، فكيف بسواه من أمثالنا، وهكذا أشار العارفين: كلّما ازداد بصيرة ازداد معرفة بعيوب نفسه، وكثر اتهامه لها، وعدم الرضا عنها.

ولهذا قال الحسن البصري ﷺ: لو صفت ركعتين بالإخلاص لكفتاني.

وقال عمر ﷺ لحذيفة ﷺ: هل أنا من المنافقين؟

فقال: لست منهم، ولا أبرئ أحدًا بعد ذلك.

فإذا كان مثل عمر ﷺ الذي شهد له ﷺ بالجنة يتّهم نفسه بالنفاق، فكيف بسواه.

ولذلك قال في الحكم العطائية: «تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ من العيوب خيرٌ من تشوُّفكَ إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوبِ»[١].

---

(١) قال سيدي ابن عجيبة: التشوف إلى الشيء: الاهتمام به، والتطلع له.
قلت: تشوفك أيها الإنسان إلى ما بطن فيك من العيوب كالحسد والكبر وحب الجاه والرياسة، وهَمِّ الرزق وخوف الفقر، وطلب الخصوصية وغير ذلك من العيوب، والبحث عنها، والسعي في التخلص منها أفضل من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب، كالاطلاع على أسرار العباد وما يأتي به القدر من الوقائع المستقبلة، وكالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له، لأن تشوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حياة قلبك، وحياة قلبك سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم، والاطلاع على الغيوب إنما هو فضول، وقد يكون سببًا في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس. وسيأتي للشيخ «من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببًا يجر الوبال إليه».
اعلم أن العيوب ثلاثة: عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح.
فعيوب النفس: تعلقها بالشهوات الجسمانية كطيب المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح وشبه ذلك.
وعيوب القلب: تعلقه بالشهوات القلبية كحب الجاه الرياسة والعز والكبر والحسد والحقد =

فالكرامة عند العامة: خرق العوائد، من المشي على الماء، والطيران في الهواء.

وعند الخاصة: بتبديل الصفات الذميمة بالصفات الحميدة.

فلذلك قال بعض العارفين: ليس الشأن أن تُطوى لك المسافة البعيدة؛ فتكون في مكة أو نحوها؛ وإنما الشأن أن تُطوى عنك صفات نفسك فتكون عند ربك.

اخرج عن أوصاف بشريتك، عن كل وصف مناقض لعبوديتك؛ لتكون لنداء الحق مجيبًا، ومن حضرته قريبًا، فأول قرب العبد من ربه ألاَّ يرى لنفسه قُربًا، فهو من عين البعد؛ لأن رؤية النفس تنبت من الرضا عن النفس، وعن رؤيتها وإثباتها، وذلك ينافي الفناء الذي هو الطريق، فاخرج عنك تصل، وافنِ عن أوصافك تضمحل.

العلامة الثانية: النظر إلى أحوالك بعين الدعوى، وما أحسن ما قال صاحب الحكم العطائية في مناجاته: من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ، ومن كانت حقائقه[1] دعاوي، فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟ والنظر إليها بهذه العين تنشأ من معرفة النفس، ومن دسائسها[2].

=

وحب المنزلة والخصوصية وشبه ذلك مما يأتي إن شاء الله في أوصاف البشرية.

وعيوب الروح: تعلقها بالحظوظ الباطنية كطلب الكرامات والمقامات والقصور والحور وغير ذلك من الحرف.

فتشوف المريد إلى شيء من ذلك كله قادح في عبوديته مانع له من القيام بحقوق ربوبيته، فاشتغاله بالبحث عن عيوبه النفسانية والقلبية والروحانية وسعيه في التطهير من جميع ذلك أولى من تشوفه إلى ما حجب عنه من علم الغيوب.

(١) حرفت في الأصل إلى (معايبه).

(٢) قال سيدي مصطفى البكري في العرائس القدسية في معرفة الدسائس النفسية ما نصه: مطلب في دسائس النفس:

اعلم أن دسائس النفس لا تحدّ ولا يمكن أن تعدّ، وقد ألّف الشيخ الأكبر أبو بكر الموصلي رحمه الله في دسائسها رسالةً نافعةً لدرن تلك الخسائس غسّالة، ونبّه أكابر أهل الطريق على بعضها؛ ليطلق منها الوثيق، ويتنبه الغافل الخائض في بحار التعويق التي أمسى بها يتخبطه الشيطان من المسّ، فأصبح كالغريق، فمن ذلك أنها تنصح أجنابها، وتمنح الفوائد أصحابها، وتنبّههم على الهلكات المتلفات وعدم التعلق بالآلات أو بما فات، وتأمرهم بالاشتغال بما =

يطلبه الوقت الحاضر، وتعرفهم بأن الوقت سيفٌ إذا لم تقطعه قطعك في أكثر المحاضر، مع أنها لا تتَّصف بما تدين إليه، ولا تنصف، فتعترف، وتتوب، وتفزع؛ للإقبال عليه، وتجيب داعي الله، وتترك كل داعٍ ساه لاه.

قال سيدي داود بن باخلاً: داعي الدنيا يدعوك من حيث تشتهي وتميل، وداعي الآخرة يدعوك من حيث تنفرد وتكره، وداعي الحقيقة يدعوك من حيث تفنى ويذهب شاهدك؛ فلهذا تستجيب النفس سريعًا للأول، وتستصعب الاستجابة للثاني، وتمتنع من الاستجابة للثالث، إلا إن حفت العناية.

وإذا كانت هي لا تجيب فكيف تجاب، وإذا كانت لا تقبل فكيف تقبل منها الطلاب، ومن ذلك حفظها لعبارات القوم الذين نبهوا من سكرة الغفلة والنوم، وإيرادها لها في المحافل، واعترافها بأن صاحبها عاقلٌ، وإظهارها التحسُّر والتلهُّف، وربما بكت وأبدت الزلة والتأسف، فإذا وقف صاحبها في البحث عن فعلها الحسن رأى أنها إنما فعلت ذلك ليقال عنها ما أتم إقراره بتقصيره وما أحسن، وهذه دسيسةٌ تورث الحجاب.

وقد قال أحد الأنجاب: أعظم من الحجاب، الحجاب عن الحجاب، ويا لله العجب ممن يغتر بشقشقة اللسان وهو يعلم أنها لا تجديه نفعًا ولا تكسبه يوم نشر الصحائف رفعًا، ومن جملة دسائسها القبيحة المليحة الفضيحة نسأل الله تعالى السلامة بجاه صاحب العلامة والعمامة أنها إذا عزم صاحبها على الاشتغال بالقراءة والذكر والمحاسبة والفكر تُظهر له الكسل والملل، وربما توهَّم غلبة النوم عليه، وأمثال هذه العلل، فإذا وافقها وأراد المنام، فتحت له بابًا إلى مسامرة بعض أصحابه واتسع الكلام، وقد يسأله بعض إخوانه عن مسألة في الطريق وهو في غايةٍ من الصعب الطاوي من السهر والمكابدة في آداء مراسم هذا الفريقِ من أورادٍ وأذكارٍ وقيامٍ وصيامٍ؛ رجاء الوفاء بواجب التمزيق لحاجب التدقيق، فيجيبه بجوابٍ أو أجوبةٍ جمَّة، وربما نشط في أثناء الكلام، ورأى النشاط عمَّه، فيقول في نفسه: الحمد لله الذي جعلني إذا سُئلت عن مسألةٍ وأنا كسلان أنشط لإفادة الإخوان؛ استغنامًا لتحصيل الأجر الجزيل من الرحيم الرحمن، ولو أنه وقف على هذه الدسيسة لرأى نفسه إنما نشطت مخافة أن تنسب عند السائل إلى الجهل وعدم المعرفة بهذا السؤال الصعب والسهل، أعاذنا الله منها، ونبَّهنا؛ لنخلص من شرِّها والأخذ عنها.

ومنها: أن يذكر في مجلسها بعض المعاصرين الفضلاء من الأعلام النبلاء، فيرشِّح بعض من حضر بما فيه حظٌّ لمقامه، فتقول لصاحبها: وجب عليك الدفع عن أخيك، ورد قول هذا الطاعن؛

=

فإنه أبلغ من الطعن فيك، فيشرع في توجيه ما أوجب للمعترض الإعراض، ويبني لها من هذا الفعل من القبح والأمراض، وربما شدَّد عليه النكير، وألزمه بالذهاب إلى المستغاب، وطلب السماح، وذكر ما صدر من التعْريف أو التكبير، وإذا أمعن نظره في ذلك وجدها دسَّت دسيسةً خفيَّة المسالك، وهي صيانة مجلسها من أن يقال: يستغاب عنده، فلا يرد ويتكلم لديه بما لا يعني، فلا يصد، ويسمع فعله ذلك المستغاب، فيمدحه، ويشكر منه هذا الصنيع المستطاب.

ومنها: أنه يسأله عن بعض معاصريه، فيقول هو أخونا وصديقنا، ولا تسمح أن يقول شيخنا، ونقول له: الكذب لا يجوز، وكيف تصفه بالمشيخة و لم يفدك فائدةً، ولا عادت لك منه عائدةٌ، وتنسيه بعض قول الأعيان: ينبغي للمريد الصادق أن يرى نفسه دون كل جليسٍ، وإذا شهد ذلك فقد اعترف بنقصه وكمال مجالسه، وهناك يستفيد من كل مجالسٍ.

ولهذا قال بعض السادة وقد سُئل عن أشياخه فقال: لا أحصيهم؛ لأني ما جالست أحدًا إلا واستفدتُ منه، ومن أفادك بقاله أو حاله فهو شيخك.

وإنما امتنعت من الإقرار بالمشيخة خوفًا على منصبها في الرئاسة؛ لئلا يستصغرها السائل، فإذا تنبَّه ردعها، وزجرها، وأقام عليه الدلائل، ويقول لها: هل في قولك هذا أو تقبيلك يد هذا المسئول عنه ما يوجب تصغيرك عند الرب ربِّ الأواخر والأوائل؟! وأذكر لها قول العارف الغارف الولي سيدي أبي الحسن الشاذلي قدَّس الله سرَّه؛ فإنه كان يقول: منْ علم اليقين بالله ﷻ وبما لك أن تتعاطى من الخلق ما لا تصغر به عند الله مما تكرهه النفوس الغوية، كحمل متاعك من السوق، وجمع الحطب للطعام، وحمله على رأسك، والمشي مع زوجتك إلى السوق في حاجةٍ من حوائجها، وركوبك خلفها على الحمار وغيره، وأما ما تصغر به في أعين الناس مما للشرع عليه اعتراض فليس من علم اليقين؛ فلا ينبغي لك ارتكابه.

وكان ﷺ يقول: إذا أهان الله عبدًا كشف له عن حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته؛ فهو يتقلب في شهواته حتى يهلك ولا يشعر.

وكان ﷺ يقول: إذا انتصر الفقير لنفسه فأجاب عنها فهو والتراب سواء لا قدر له عند أهل الشأن، ومن شان له بذلك فما يعاب بل يعان؛ ليذهب عن قلب المجيب ما يُغان.

وكان ﷺ يقول: العارف بالله تعالى لا تنقصه حظوظ نفسه؛ لأنه بالله فيما يأخذ وفيما يقول، إلا إذا كانت الحظوظ معاصي الله.

ومن قبيح دسائسها أنها تذكر لصاحبها ما جاء في فضل السماحة والكرامة، وتحسن له الجود

=

بالموجود دون امتنان لا جرم، وتبسط إذا سمح، وتسرّ إذا منح، وتزين له إن أمكن من كمال الإنسان أن يفرح بالإحسان، فأفقْ واصح؛ فمن أفاق وصحا وحقق مالها وللتدقيق نحّار: أي أن قولها زورٌ ومحض تلبيسٍ ليس فيه نورٌ، وعلم أنها إنما سمحت لتكون له اليد العليا على الأخذ، وليقلده المنة، فيسمح لها بالغفوات معه، فلا يؤاخذ، وينشر لواء مدحها، ويطوي منثور قدحها، ولو أنها أخلصت النية وحسنت الطوية ورأت أن ما أهدته كان عندها أمانة فأدَّت لصاحبها فسلمت من آفة الخيانة والجبانة وشهدت الفضل له حيث خفَّف حملها وأخذ ماله عندها لكان وصفًا حسنًا؛ إذ أخلص سرًّا وعلانية، لكنها قلّ أن تدع لصاحبها مقصدًا صافيًا من الأكدار؛ لاتفاقها عليه مع العدو الأكبر الغدار، ولذا عضُل الداء، واستصعب الدواء.

ولقد قال سيدي داود بن باخلاً ﷺ: إذا اعترضت النفوس للسالكين أوقفتهم عن مزيد الأذكار والطاعات، وإذا اعترفت للعارفين حجبتهم عن لذائذ المشاهدات والارتقاء إلى أعلى الدرجات؛ فالنفس مانعةٌ للفريقين.

وقال ﷺ: ألجمت النفوس في مفاتح التوحيد بلجامٍ لا حتى ترجع عن جميع دعاويها.

أي فإذا رجعت وأنابت واستسلمت وأجابت أمرت بذكر اسم الذات؛ لتكمل لها بالجمعية سائر اللذات، ثم إذا برقت لها بوارق القبول وترقَّت في العثور على طوارق الوصول نوَّعت لها الأسماء؛ لتحلّق بالمقام الأسمى، ومن ذلك أنها تعرف من يصحبها آداب الصحبة، وتقول لصاحبها: عرفه بما لها من الشروط، واذكر له بعض ما ذكره الهمام الأكبري في «الحكم المربوط»؛ فعسى أن ينتفع بذلك إن صحب أحد الأشياخ من كل سالكٍ، وآدابها إنما ثبت له ما هنالك ليسلك معها هذه المسالك، فلا حول ولا قوة إلا بالله السيد المالك، وإنَّا لله وإنا إليه راجعون من ظلمة هذه الحوالك، اللَّهُمَّ سلّمنا وسلّم أحبابنا من الوقوع في المهالك، تطلب من كل صديقٍ وصاحب أن يفي بصحبتها، وهي لا تفي بصحبة أعزّ مصاحبٍ، فهل سمعت سندًا ترويه عن تابعيٌ أو صاحب؟! كلا، ولكن غرَّتها الأماني الكاذبة، فأين أين الناجب؟! فقد مضى العمر معها سبهللا، ولم يدنُ ضحيها من حي المعرفة، ولا راق له منها منهلاً؛ فحقَّ البكاء، وإلى الله المشتكى.

قال العارف:

على نفسه فليبكِ من ضاعَ عمرُه ... وليس له منها نصيبٌ ولا سهمٌ

ويا ليتها لما دلت على شروط الصحبة والوفاء بحقوق المحبة، اتصفت ببعض الأوصاف اللازمة:

لتكون متنه لرئيها حازمة، وعلى طلب الكمال الداعية له جازمة، ولما تغافلت عن قول العارف القليل أمثاله لا تصحب إلا من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله، وأين النهيض والدلالة عند من لا شبيه لها إلا البقرة الجلالة، والتي عندها في عاداتها فطنة الأعراب، ولها عند إرادتها يقظة النحويين الأعراب، وأما مواعيدها العرقوبية فلمع سراب، وأما مودتها فمودة السوفة مع الأصحاب، ولها في طلباتها مودةٌ، ومع نُصَّاحها فمودة صحبة السفيه، لا تكتم السر إلا كما يكتم الزجاج، ولا تخفي ما استودع إلا كما يخفي السراج، إذا طلبت طريق المعاصي كانت أهدى من القطا(٢)، وإن رامت سبيل التواصي لتهدي الصواب ضلّت، وساعدتها الخطا للخطا؛ فهو كتيمٌ في ذلك الوصف الذميم.

قال الطرماخ تميم:

بطـــرق اللـــوم أهـــدى من القطا ولـــو سلكت طريق المكارم ضلّتْ
أحاديـــثها أحاديـــثُ خـــرافةٍ وعـــندها الحـــراقة والحـــراقةْ

ومن جملة دسائسها أن تحرِّض صاحبها على طلب العلم الزائد على قدر الواجب المثمر بالفوائد، وتسرد عليه ما جاء في فضل العلم، وأن النفع المتعدي أبلغ من القاصر كالصفح والحلم، فإذا جدَّ وجد، فأدرك بعض ما أمل بالجهد والكدارة غيوب الجهلاء الذين لم يدركوا ما أدرك، وصغَّرتهم في عينيه؛ فرآه كالذر أو شيئًا لا يدرك، ولم تزل تعظم نفسها بما فارقت به من المعارف، حتى تتنكر وتتكبر على الأجانب والمعارف، فإذا نبَّهها وقال لها: ما هذا العجب بعلمك وعملك، وما هذا الزهو والفخر الذي ما جَمَّلكِ بل الأوزار حَمَّلكِ؟! أما سمعت قول النبيه المنبّه للعاقل الذي نفسه ساحرة وبه ساخرة:

يـــا مـــنْ تقـــاعد عن مكارمِ خلقه لـــيس الـــتفاخر بـــالعلوم الفاخـــرةِ
مـــن لم يهـــذِّبْ عـــلمُه أخلاقَـــه لم ينـــتفع بعلومـــه في الآخـــرةِ

فتنكر إعجابها، وربما على نفيه تقسم، أو تصرف بنقصها؛ كي ما عنها مادة العتاب تحسم، وإذا رآها تطلب العلم ولم تعمل ودعا لها تسوِّف وتقول: الآن الطلب أجمل والتعلم أشرف العبادات وأكمل، فإذا قضيت منه الأرب كابدت العلم؛ كي ما به تجمل، وكل هذا من باب التسويف والتحريف، حتى يأبى زمان الصبا، ويأتي المشيب بسيوله الموجبة للتخريف، ويتبعه الضعف، فيستحق صاحبها التقريع والتعنيف، توعده بالإقبال مواعيد كمونية، وربيع الزمان والشباب غضّ، فإذا وليا عنه وذهبا ورأى نفسه صفر اليدين ما استفاد فضةً ولا ذهبًا، على السبابة بالنواجذ عضَّ؛ حيث أضاع في الصيف لبن الفوائد، وفي الشتاء الذي

هو ربيع المؤمن زور الزوائد، وفي خريف اجتناء الثمار عود العوائد، وفي ربيع الأرواح والأجسام ادِّخار طلب الأعمال ليوم الشدائد، وكل ما مضى لا يعاد، ومريض عين القلب كالعين لا يعاد، وكل ما عاين منها حب الرئاسة على الأقران والتميز ما بين الخلان والتصدر في المجالس والمماراة والمجادلة مع كل مجالسٍ ونهاها عن هذه الصفات القبيحة تبدي له الأعذار بأن مرادها المذاكرة والمطارحة، وما شابه ذلك من الأوجه الصحيحة، وإذا ألزمها الحجة وعرَّفها أنها خلت المحجّة استدلت عليها بقول القائل من الأوائل: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، وهو قولٌ صحيحٌ وحكمٌ رجيحٌ وله وجهان:

إما أن يردَّ صاحبه إلى الإخلاص في النية؛ فيكون الحق سبحانه أحسن إليه ولطف به، وهذا غير واقعٍ لكل من طلب العلم بغير إخلاصٍ.

وإما أن يكون المعنى أن العلم كان نورًا من أنوار الله يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وقد عصى صاحبه بطلب العلم لغير الله، وامتنع العلم أن يستقر في ذهنه؛ لأنه عاصٍ، والعلم نورٌ من نور الله، ونور الله لا يُؤتى لعاصٍ.

وقد أنشد الإمام الشافعي ﷺ وألهمه أن يكون في الموقف شافعٌ:

شـــكوتُ إلى وكـــيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشـــدني إلى تـــركِ المعاصِـــي

وقـــال اعـــلم بـــأن العـــلم نـــورٌ ... ونـــورُ الله لا يُهـــدى لعاصِـــي

وكيف يثبت وصف العلم لعالمٍ قصد بتعليمه غير الله، وهو قد ارتدى برداء الجهل المنافي لوصف الجهل! أم كيف يتحرك جسد المعلم بدون روح الإخلاص؟! وقد يقال في المعنى: طلبنا العلم ليكون قائدًا لنا لغير الله من حظوظنا، فأبى أن يكون موصلاً لنا إلا إلى الله؛ لأن طلب غير الله جهلٌ، وكيف يدل العلم على الجهل والجهل ظلمةٌ والعلم نورٌ؟! وكيف النور يهدي إلى الظلمة؟! وليس العجب من فاضل بعلمه أعجب، إنما يتعجب من جاهلٍ متلبسٍ لدعواه، وهذا أعجب؛ إذ هو المسمى بالجهل المركّب، وهو الأحمق بعينه الذي يُجتنب؛ فإن الرجال في المعرفة على أربعة أقسامٍ كما ذكره أحد الأعلام فقال: رجلٌ يدري، ولا يدري أنه يدري، فهو عالمٌ؛ فاتّبعوه، ورجلٌ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فهو أحمقٌ؛ فاجتنبوه. وقد أنشد أبو القاسم الآمدي رحمه الله في هذا المعنى:

إذا كنـــتَ لا تدري ولم تكنْ بالذي ... يســـأل مـــن يدري فكيف إذًا تدري

جَهِلـــتَ ولم تعـــلمْ بـــأنَّك جـــاهلٌ ... فمـــن لي بـــأنْ تدري بأنَّك لا تدري

إذا جئتَ في كلِّ الأمورِ بغمَّةٍ فكن هكذا أرضًا يطأوها الذي يدري
ومن أعجب الأشياء أنَّك لا تدري وأنَّك لا تدري بأنَّك لا تدري

ومن وصايا سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه لتلميذه سيدي إسماعيل بن سودكين رحمه الله على ما نقله في «لواقح الأسرار ولوائح الأنوار» الذي جمعه من كلام الشيخ: ومتى ذكرت الفائدة لشخصٍ ما فلا تذكرها من كونك أعلم منه ولا أفضل، فتحجب بذلك، وتقوم بشغوفك عند نفسك، بل اذكر له الفائدة بالنظر إلى قوله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عن علمٍ فكتمه أُلجمَ يوم القيامة بلجامٍ من نار»، وبنية نشر العلم، والإنفاق منه والتناصح، والنظر إلى قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]، فمن الوفاء بالميثاق بذل العلم الذي ينتفع به سامعه خاصة، والله أعلم، فتكون قد ذكرت واجبة بلسان الشرع، ومتى أنكرت على شخصٍ منكرًا محقَّقًا في الشريعة منصوصًا عليه لا تجد لك مخرجًا، ولا بد من إنكاره شرعًا، فلا تنكر عليه بطبعك ولا تعنِّفه، بل قلْ برفقٍ: إن الشرع قد نهى عن مثل هذا، لا تقل له: أنت على خطإٍ وأنت مخالفٌ، بل ارفق به ما استطعت.

قلت له: يا سيدي ألست تعلم من نفسك ما فضَّلها الحقُّ به على من هو دون مرتبتك؟!

فقال: اعلم أن صفة العلم التي قامت بي أفضل من صفة الجهل التي قامت بغيري؛ فالصفة أفضل من الصفة مطلقًا، والحال أفضل من الحال؛ لأن الموصوف أفضل من الموصوف، كيف والأحوال تحول وتُسلب وتُؤخذ من محلٍّ تُعطى لمحلٍّ آخر، فلا يفضِّل بين الذوات المصوفة إلا بأمرٍ إلهيٍّ يعرفك بها اختصاصه، وقد علمت أن البعوضة لها وجه إلى الحق تقبل بذلك الوجه على الحق ما تقبل؛ فانظر إليها من ذلك الوجه توفِّها حقها؛ ولتعلم إن كان قبولها كل ما يقدره من الاختصاصات والقرب مع مشاركتها لك في الحدِّ والحقيقة، وانظر إلى أدب رسول الله ﷺ الذي علمه التأدب به بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، فتسمَّى بالاسم الذي يشاركه فيه جميع الخلق، ولم يتسمَّ بأعلى أوصافه من النبوة والرسالة، وغير ذلك، كل ذلك مراعاةً لمقام العبودية التي خُلق لأجلها، ولم يؤمر النبي ﷺ بإظهار مرتبته بقوله: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخر**»، ما أظهرها عليه الصلاة والسلام اهـ.

وقول الطائفة: العلم حجابٌ: أي العلم بالمعلومات والاشتغال بها حجابٌ عن العلم بالذات الذي من السيد الأعظم بطلب الزيادة منه، أو يقال: المراد بالعلم علم اليقين؛ إذ هو حجابٌ عن العلم: أي عن علم عين اليقين، وعلم عين اليقين حجابٌ عن علم حق اليقين، وقيل: حجابٌ عن الجهل، وقيل: حجابٌ عن الوقوع في المعاصي مع الإصرار عليها، وهو

حجابٌ بالنظر لمن اغترَّ به وقنع بدون عملٍ؛ فأوجب له الزلل وألقاه في التكبر والعُجب وحب الرئاسة وما شاكل هذه العلل، وبعض من لم يدرِ المراد من هذه العبارة حملها على الإطلاق، ورضي لنفسه بالجهل وأضداده، فما أشرفها من صفةٍ، حبانا الله الحظ الوافر منها.

ومن هنا أمر الأشياخ تلاميذهم بطلب العلم الواجب الذي لا بد منه، ولا غنى لكل مكلفٍ عنه من معرفة علم العقائد وما يحتاج إليه من أمر الطهارة والصلاة والصيام، ثم إذا وجد عنده النصاب أمروه بقراءة كتاب الزكاة، أو ما يوجب عليه الحج فيأمروه بقراءة كتاب الحج، وما لا بد منه من معرفة إعراب دون إغراب؛ ليخلص اللسان من الخطإ ومدارهم على إصابة القلب واستقامة سيره إذ أخطأ، وإلا فكم من معربٍ مصيبٍ بلسانه لحان بفعله وحاله وجنانه.

واعلم أيها الأخ المحتسي كأس الإفادة بلّغك الله الحسنى وأنالك الزيادة أن عدم إعراب بعض السادة لا يعد لحنًا عند أهل الإرادة؛ لأن القوم يدورون مع حقائق المعاني والمباني، فلا يلحنون إلا في سمع عين المعاني لأسرار المباني، وكيف يلحن الناطق باللسان الروحاني عن الفيض السبحاني؟! لكن أحدهم إذا أراد أن ينطق بالكلام الوضيع الخاوي عن المعنى الرفيع الحاوي على المراد البشيع مرفوعًا وكان من حقه الرفع تقابله حقيقته، وتخاطبه بأني لا أستحق الرفع، فينطق بالكلام محفوظًا، فيظنه السامع أنه أخطأ، وما أخطأ نحو الخطأ، ولكنه حق الحقيقة لها أعطى، وبالعكس، وربما نصب المكسور لما تعطيه حقيقته من الفتح والانتصاب للحق، ويكسر المنصوب إذا أعطته حقيقته أنه بالكسر أحقُّ وبالجهر والانخفاض سيلحق، وربما يجزم المتحرك إذا أعطته حقيقته السكون والجزم بالأمر الذي سيكون، ويحرك الساكن باعتبار ما تعطيه حقائق الأشخاص والأمكنة والأزمان والألفاظ أو المعاني المنخفضة أو المرفوعة الحسان، وربما ألزم الأسماء الخمسة: الألف، والياء ، والواو، لا على لغة من يجيز ذلك، بل لأمرٍ ورد من حيث الحقائق؛ فأوجب ما هنالك.

وقد سمعت الجد الأعلى الصدِّيق الأكبر عليًّا ﷺ في مبشرة ذكرتها في «الرحلة الرومية» وقد طرق الباب على خير البرية، وسأله أحد الخدام: من الطارق؟ فقال: أبا بكر؟ فلاح لي في هذه المقام حكمة استعماله هذه اللغة، مع أن الفصيح استعماله الواو أنه فتح لإشارة حصول الفتح لدى ذلك الباب، ونصب لانتصابه في مقام الخلافة بعده الشامخ الإطناب، ولأن الفتح أخفُّ الحركات وألطفها، والباب المتروك أسمى الأبواب وأشرفها، ولحقائق أخر بدت له ﷺ لوامع أنوارها، وهمت لديه طوالع سواطع أسرارها، فما وسعه إلا موافقة

مقتضاها، والمبادرة لجامع مشتهاها، ولقد أخبرني الكاشف عن وجوه
من شراب العجائب أنه يرى الفاعل، فينطق به مفعولاً، فيقول المجهول
ومعقولاً، ومع ذلك فما جهل ولا أخطأ ما تعطيه الحقيقة، ولكنه المحد
شهوده الأوجه الرقيقة ولو رام غير ما تعطيه الحقائق لم يمكنه؛ لأن دواعي
القرآن والحديث الحسن أو المشهور أو الصحيح إلا المعنى الرفيع والمبنى
المكاشف بهما إلا على قدر قواعد الإعراب، إلا إن قصد التنبُّه على
الإعراب، فحقّق هذا المبحث؛ فإنه جديرٌ بأنه عليه يبحث، وسلّم للأكا
هذا فلغة العرب واسعة الأكناف منثرة الأطراف، وما ضبط منها تنويرٌ بـ
وحيي، إذًا لغة لم يُحطْ بها إلا نبيٌّ؛ فسلّم تسلم، واتخذ للعروج سلمًا، وا
[الإسراء:٨٥]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، ثم إن المشايـ
يشغلونه بتهذيب الأخلاق، وفتح ما على القلب من الأغلاق، وأمّ الـ
الخلاق والتخلية والتحلية؛ ليفوز من وثاقه بوصف الإطلاق، ويأمرونه با
تتبع الرخص، وبالهرب إلى مواطن الإجماع، أو ما عليه الأكثر، وإذا است
إليه أهل الحديث، حتى يتم إشراقه، وتتحلى بأفخر الحلي أطواقه، وتطمـ
وتذل معرفتها بجهلها، وتخضع، وتعرف من أين جاءت، وإلى أين تصير
وتفيق من سكرتها عمّا إليه تصير، وبذا أكبادها تتقطّع، وتعاين رشحة
بحور العلوم الزواخر، فترى أن كل ما بأيدي الناس من الأوائل والأواخـ
الرشحة ونفحةً من تلك النفحة، وهناك تنقطع منها شروش الكبر والإعجـ
صاحبها الفكر والعقل، ويذهله ذلك الكشف العُجاب، فلو قرأ جميع الـ
الفهوم لم يزده ذلك إلا خضوعًا، ولم يكسبه ذلك الاطّلاع إلا خشوعًا.
من مريضه هذا الحال أذن له في القراءة والإقرار، وحذّره غوائل النفس
الإقامة والترحال، ألا ترى لمن تجلى الله سبحانه وتعالى عليه بصفة العلم
حتى علم ما كان وما سيكون وما لا يكون، كيف كان لو يكون؛ لأن
لا نهاية لها؛ لأن كل نهاية داخلة تحت حيطته، ومع هذا فلا يرى لنفسه
إدراكًا وفهمًا، بل يتحقق أن ما علّمه ربه وأن ما عنده وديعةٌ مستردة
وإذا كان صاحب هذا الحال غير مقبول الدعوى في العلم فغيره بالأو
وجنح للسلم، وإذا تحققت النفس في سرِّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن
[الإسراء:٨٥]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:١، ٢]
تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [

=

شقاشقها، وسكنت بوارقها، وعلمت أن كل ما هي فيه من الأوصاف عارية عندها، عارية منها، غير مكسية بذلك؛ لأنها لو اكتست به ربما ملكته، وهو وديعةٌ، متى شاء أخذها المالك، فتضمحل دعاويها إذا وفقت، وتذوب، وترجع حقيرةً ذليلةً إلى مولاها، وتتوب.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدَّس الله سرَّه في «منه الوسطى»: ومِمَّا منَّ الله عليَّ عدم رؤيتي نفسي أني معدودٌ من العلماء، لم يزل جهلي مشهودًا لي على الدوام، وهذا من أكبر نعم الله عليَّ؛ ولذلك لا تطلب نفسي قطّ أن تزاحم العلماء على شيء مما يخصّهم عادةً، حتى لو قدر أن السلطان رسم لكل واحد من العلماء ألف دينار لم تحدِّثني نفسي قطّ أنهم يعطونني من ذلك شيئًا، بخلاف من كانَ متفعلاً في هذا المقام؛ فإنه ربما يفتّ الخبر على الدخان، كما كان أشعب الطمَّاع.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: من نظر في علوم السلف لم يحدِّث نفسه قطّ أنه من أهل العلم؛ فقد نقل أصحاب الطبقات أن الإمام ابن الحداد لما حرقت كتب العلم التي في المدرسة النظامية ببغداد وندم على ذلك واقفها نظام الملك، قالوا: لا تخف؛ فإن ابن الحداد على جميع ما حرق من حفظه، فأرسلوا وراءه، فأملى جميع ما حرق في مدة سنين ما بين تفسير وحديث وأصول وفقه ونحو ذلك.

قال: وقد صنَّف ابنُ شاهينَ المحدِّث ثلاثمائة وثلاثون مؤلفًا، منها تفسيره للقرآن في ألف مجلد، ومنها المسند في ألف وستمائة مجلدٍ، وحاسب الحبّار على استجراره منه الحبر للكتابة، فبلغ ألفي قنطار.

وحكى السبكيُّ وغيره أن بعض العلماء أخبرهم أنه صنف في مذهب الإمام الشافعي ألف مجلد.

وحكى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى أن للشيخ أبي الحسن الأشعري تفسيرًا في خزانة المدرسة النظامية ستمائة مجلد.

وحكى أيضًا أن محمد بنُ جرير الطبري كان يحفظ وقر ثمانين بعيرًا.

وحكى السبكي أن محمد بن الأنباري كان يحفظ في كل جمعةٍ عشرة آلاف ورقةٍ، وأن الإمام الأوحدي كان يحفظ من العلوم وقرَ مائة وعشرين بعيرًا.

قال: ومن الغرائب أن ابن سينا حفظ القرآن كله في ليلةٍ واحدةٍ، وكان لا يسمع شيئًا إلا حفظه أول مرة كذلك.

وكان الإمام الشافعيُّ ﷺ يقول: ما سمعت شيئًا قطّ ونسيته، وروينا عن عليٍّ بن أبي طالبٍ ﷺ أنه كان يقول: لو شئت لوقرْت لكم ثمانين بعيرًا من معنى الباء.

=

=

وكان الإمام الأعظم الليث بن سعد ﷺ: لو كتب ما في صدري ما وسعه مركب.

فلينظر من يدَّعي العلم في هذا الزمان مرتبته في العلم بالنسبة لهؤلاء العلماء، يعرف تخلفه وجهله يقينًا.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من أراد أن يعرف مرتبته في العلم فليرد كل قولٍ علمه إلى قائله، وينظر في نفسه، فما بقي معه بعد ذلك فهو علمه الذي يبعث عليه يوم القيامة، وما عدا ذلك فله من ثواب حمله لا غيره.

وسمعته يقول مرات: لا يبلغ الرجل مقام الكمال إلا إن صارت مذاهب جميع المجتهدين نصب عينه.

ومن دسائسها أن تحسن لصاحبها الاندراج في سلك أهل الطريق، وترغبه في الدخول في زمرة هذا الفريق، وتعرفه أن الإنسان بدون شيخٍ كاملٍ لا يخلص من الرياء والعُجب فيما يعامل، وتقرأ عليه بعض عبارات العارفين في طلب الرشد وما أشار إليه مقدام العارفين الإمام الشعراني والهمام الربَّاني في أوائل المنن، وتحرضه على المبادرة في طلب المرشد في السر والعلن.

وعبارة سيدي عبد الوهاب: فإن أردت يا أخي التخلُّق بشيءٍ من أخلاق هذا الكتاب فاطلب لك شيخًا صادقًا، لا تشك في صدقه؛ ليسلك بك في مقامات الطريق؛ لتعرفها بالذوق لا بالسماع، حتى تصير توحد الله في سير المراتب كشفًا ويقينًا، كما أنك بمجرد قولك أن الفعل لله يذهب منك الرياء والعجب بأعمالك، وتعبد الله خالصًا، لا خوفًا من ناره، ولا رجاءً لثوابه، فحكم من شهد الفعل لله كشفًا حكم من بات نائمًا وجاره قائمًا يصلي إلى الصباح؛ فإنه لا يصبح يدَّعي قيام الليل الذي قامه جاره أبدًا.

وقد كنت أنا على هذا الحال زمانًا طويلاً إلى أن اجتمعت بسيدي عليٍّ الخوَّاص رحمه الله. فكشف لي عن بعض معالم الطريق، فعلمت أن جميع ما كنت أظنه من مقامات الخواص إنما هو من مقامات المريدين، وأن مقامات العارفين تجلّ عن أن يذوقها أمثالنا، كما أن أخلاق الأنبياء تجلّ عن أن يذوقها أكابر الأولياء؛ فإن بداية درجة النبوة تأخذ من بعض انتهاء درجات الولاية، فليس للائذون من تخلقه بمثل صفات الأعلى سوى الاسم فقط.

فإذا رغب في سلوك الطريقة العليا ووجه الهمة في طلب المرشد ليكون متَّبعًا له أمرًا ونهيًا فساقه الله إليه ودلَّ عليه، ثم أنه دخل تحت عهده وميثاقه المحكم، وقيل: كل ما شرط عليه وبه لنفسه ألزم تنـــزل له الداعي حتى تملك، ثم تحكم، وصار يحمله الميثاق بدون إشفاق

كالملك المحكم، ويأمره أن يكون لنداء أوامره أخرس أبكم. فلما عاينت النفس ما حلّ بها، وتحققت أنه إن تملكها عزلها، والروح ملك وحكم أخذت في نقض ما أبرمت وإظهار نقص ما بفعله تبرمت، وصعبت عليه قطع مساور هذه المراقي، وزيّنت له أن تقاعسها أولاً لضعفها عن تناول كأس هذا الساقي، وشرعت في إخلاده إلى أرض الهوى التي من أخلد إليه توى، وفي الدرك الأسفل هوى، ثم إذا رأته خالفها. وقال لها: هذا لا يكون أبدًا، وصمّم على عداوتها والمجاهدة فيها سرمدًا، حسنت له في الثاني ما قصد من الاستقامة، وربما قالت له: إنما كان قصدي أن أختبر صدق توجهك في طريق السلامة، وانخدعت له، وأظهرت الطاعة، وساعدته حينًا، وأظهرت أونةً جبنًا بعدم استطاعة، وإذا ألقاها خلف ظهره وجعلها نسيًا منسيًّا أو شيئًا فريًّا قصيًّا ألفاها تابعةً نابعة بمياه الموافقة، وكل ما تبديه مخادعة إذا وزنها بميزان المحاققة، ثم أنها لا تزال ترغّبه في الازدياد، وترعبه من نقض العهد وترك الأذكار والأوراد، وتفهمه أنها لانت بعد قسوتها، وذلت بعد عزّتها، وارتهقت غبّ شدتها، وحلمت بعد حدّتها، وكل ذلك دعوى بغير دليلٍ، وزخرف قول هو عين الأباطيل، وتثني على الأستاذ، وتظهر حبه وما عندها من محبته وزن حبة، فإذا تفرس فيها صاحبها، وكان ممن عرف مقاعد الفراسة، واستدل بالأخلاق الظاهرة على الباطنة، وحفظ من الضنك أنفاسه، وعلم بحصول أحد المتلازمين على حصول الآخر، وواقد بالتحقيق نبراسه، وهتفت به الخواطر الصحيحة، وأرشدته العلامات الجسميّة الرجحيّة، فصححت اقتباسه، رآها تمكر به مكرًا خفيًّا، فيجتنبها، ويقبل على روح إقبال برٍّ ما زال بها حفيًّا، ولا يتركها هملاً، بل يتتبع آثارها لعلمه بالقيافة، وينقّب على دسائسها، ويسلّ عليها أسيافه، ولا يأخذ لها إذا عثرت بيد لمعرفته بعلم اليد الذي ما فوقه يد المستفيد منه أنه متى ساعدها سعت في إتلافه، ولو تقطع ساعدها، ولا تزال تراقب صاحبها كالعدو الواقف بالمرصاد، وتودّ لو أتلف ذرعه قبل مجيء زمن الحصاد، ومتى رأت عنده فترة أو كسل زادته جبال خبال وفشل، وربما تعترض أحيانًا بباطنها على الأستاذ؛ لترميه في جبال نقض العهد سيّما إذا وافقها، وأظهر الالتذاذ، إلا إن كان مختبرًا مجرّبًا ممتحنًا لها؛ ليمسي لبيوت مقاصدها مخرّبًا، فلا ضرر إذًا ولا ضرار، ولا يعد هذا عيبًا يوجب البوار، ثم إذا عاينت بعض لوائح وفاحت لمشعلها زكيّات الروائح ولمعت لصاحبها لوامع القرب وهمت عليها سحائب صافي الشرب أخذها اهتزازٌ وطربٌ، وخفّ عنها حمل جمل الكرب وشوقته للمزيد وشوقته للوارد الجديد، وكلما زاد التغريب تعشّقت وتعلّقت وتحقّقت، فتخلّقت،

ولذلك قال صاحب البردة[١]:

وراعِهــا وهـــي في الأعمَالِ سَائمةٌ وإنْ هـــي استحلَّتْ المرْعى فَلا تُسِم

إذْ هي لا تَستجْلَى خيرًا ولا تَأمُر بخيْر، والخيْرُ كلّه في مُخالَفتِهَا، وإذَا نَظرتَ إلى أحْوالِها بِعيْن الدَّعوَى، كُنتَ مُخالفًا لَها غَيرَ راضٍ عَنهَا.

قال أبو سليمان الداراني ﷺ: لقد وصفت نفسي موصفًا لو اجتمع الخلق أن يضعوني دون ذلك لما أمكنهم.

وقال: وقال حضرة الخواجة بهاء الدين نقشبند قَدَّس الله سرّه لَمّا سُئل عن الكرامات قال: أي كرامة؟! من أني مع هذه الذنوب الكثيرة أمشي على وجه الأرض.

فانظر يا أخي إلى هذا التنـــزيل العظيم من هذا الرجل العظيم؛ تعرف أن الطريق ليست بكثرة صلاة ولا صيام؛ وإنما هي بالفناء التام.

وكذلك قال الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ: إخواني ما وصلت إلى الله تعالى بقيام ليل، ولا صيام نهار، ولا دراسة علم؛ ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع، وسلامة الصدر.

فأشار ﷺ إلى الفناء التام بهذا الكلام؛ لأن بالكرم يفنى السالك عن الدنيا، وبالتواضع يفنى عن نفسه، وبسلامة الصدر يتمُّ له رياض قُدسه، ويصير واحد الواحد.

وأصل ذلك: عدم شهود الأحوال لا بنظر الكمال، واتِّهام النفس في الغُدو

=

وإذا سبح وابل السير وهطلت هواطل الخير مما وجدها، فما وجدها إلى أن تبلغ مبلغ الرجال، ويحسن منها هنالك المجال، ويكشف الغطاء، ويربو العطاء، ويزول الأين والبين، وينمحي الرَّان والغين عن العين، فيشاهد بعين القلب بمدد كل عين، وينشد هنا من عانى وهنًا في سيره، وهنا قول العارف الذي دنا ونال بعد قطع العناء كل الفناء.. وانظر: العرائس القدسية في معرفة الدسائس النفسية للشيخ مصطفى البكرى (بتحقيقنا).

(١) انظر: البردة البوصيرية (ص١٠٦).

والآصال؛ ولذلك أوصى حضرة الخواجة بهاء الدين نقشبند قدَّس الله سرَّه بوصيتين هما للسالك كالعينين والأذنين:

أحدهما: إن السالك لو وصل إلى أي محلّ وصل؛ لا يرى نفسه إلاَّ في أول قدم.

من الطريق الثاني: إنه لو نال من السلوك أعلى المراتب؛ لا يرى نفسه إلاَّ أنها أقل من نفس فرعون بمائة مرة، وإن لم يرها كذلك؛ فليس له في السلوك نصيب.

فانظر إلى هاتين الوصيتين يا أخي تجد السالك محتاجًا إليها؛ كاحتياجه للسمع والبصر، بل أشد وأكثر، فإنه متى أخطأها أصابه العطب؛ وهو أشدُّ المهلكات، كما شهد بذلك سيد الكائنات حيث قال ﷺ:

«**ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأمَّا المنجيات: فتقوى الله تعالى في السرِّ والعلانية، والقول بالحق في الرِّضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأمَّا المهلكات: فهوى متَّبعٌ، وشحٌّ مطاعٌ، وإعجاب المرء بنفسه؛ وهي أشدُّهُنَّ**»[(١)].

وفَّقني الله وإيَّاك يا أخي، وسائر السالكين لنيل هذه الأذواق، ولا يحرمنا من السير في هذه القافلة، ويسِّر لنا بفضله مطايا السباق.

والعلامة الثالثة: النظر إلى أعمالك وأقوالك بعين الافتراء، وهذه أيضًا راجعة إلى عدم الرضا عن النفس، فإن لم يرضَ عنها لم يرضَ عن أحوالها، وهو شهود الأحوال بعين الدعوى، ولم يرضَ عن أقوالها؛ وهو شهود الأقوال بعين الافتراء، فإذا فعل ذلك، وتحقَّق بما هنالك؛ كان خارجًا عن أفعاله وأحواله وأقواله، ومَن كان كذلك كان خارجًا عن أفعاله وأحواله وأقواله، ومَن كان كذلك فقد خرج عن أوصاف بشريته، وتحقَّق بمقام عبوديته، وبه يرتقي إلى مسراه، وينال من ربه ما يتمناه.

ويوضح ذلك، ويدلُّ عليه قوله تعالى في حقِّه ﷺ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١].

حيث أشار تعالى بأن الوصول إلى مقام الإسراء لا يُنال إلاَّ بالعبودية؛ وهي الخروج عن أوصاف البشرية، والآية وإن كانت نازلة في شأنه ﷺ؛ ولكن لوارثيه من ذلك نصيبٌ؛ إذ كما إنه ﷺ أسري، كذلك لوارثيه إسراء يناسب استعدادهم، نالوه

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/٤٥٢)، والحكيم الترمذي في النوادر (٢/٧).

من متابعتهم له؛ إذ مقام المحبّة الذي هو عين الإسراء ناشئ من المتابعة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فيا أيها المحبُّ الصادق السامع هذه الدقائق: شدّ المئزر، وجاهد.

فكما قال ﷺ:

٨- عمرك نَفسٌ واحد، فاجتهد[1] أن يكون لك لا عليك.

شرع الشيخ ﷺ يُحرِّضك أيُّها السالك على السباق، وينهض جوارحك، ويشعل بقلبك نار الاشتياق، وينبِّهك على أن عمرك نَفس واحد، فإن الماضي قد فات، والآتي من المؤخَّرات، وليس لك إلاّ الوقت الذي أنت فيه، فهل أنت مؤثر مولاك بالطاعة فيه.

ولله در مَن قال:

مَـا مَضـى فَاتَ والمؤمل غيبٌ ... ولَـكَ السـاعةُ التي أنْتَ فِيهَا

فيا مَن عمره ساعة، هل أنت منفقها في الطاعة لتحوز لذات الأبد، وتتنعم بجوار الفرد الصمد بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟.

جِـدَّ في سَـيرهَا فَلسـتَ تُلام ... هَـذهِ طيـبةٌ وهَـذا المقَـامُ

ما هذا التكاسل يا أخي؟! وهذه الجنان لأهل الطاعة تزخر، وما هذا التهاون؟! وهذه المعارف من بحار المواهب تُفرَّق.

إلى كَمْ تمادَ في غرورٍ وغفلةٍ ... وكَمْ هكذا نومٍ إلى غيرِ يقظةِ
لقدْ ضَاعَ عُمرُ ساعةٍ منه تُشترى ... عَلى السماءِ والأرْضِ آية ضَيقَة
فـيا درَّة بَـين المْـزابلِ أُلقيـتْ ... وجَوهـرةُ بيعـت بِـأبخسِ قيمةِ
أفـان بـباقٍ تَشـتريه بسـفاهةٍ ... وسَـخط برِضْـوَان ونَـار بجنةِ
أأنْـتَ عـدوٌّ أمْ صـديقٌ لنفْسهِ ... فَـإنَّكَ تَرمـيهَا بِكـلِّ مُصـيبةِ
ولَو فَعل الأعداءُ بِنفسكَ بعضُ مَا ... فعلـتَ لَمسـتُم لَها بَعضُ رحمةِ

---

(١) في نسخة: (فاجتهد).

وَيْــــكَ استفقِ لا تَفتخرْ بالمشْهدِ مِـــن الخلقِ إذْ كُنتَ ابْنَ أمَّ كَرِيمَة
فبَــيْن يَديهَــا مَوقــفٌ وصَحيفةٌ يُعـــدُّ عَلــيهَا كُـــلُّ مِـــثقال ذَرَّةِ
فَـــيا عَـــاملَ لِلـــنارِ جسمك لَيِّن فَجــرِّبْهُ تَمرِيــنًا بَحـــر الظَّهيرة
إنْ كُنتَ لا تَقوى فَويْحكَ مَا ألذُّ دُعـــاكَ إلى أسْـــخاطِ ربِّ البريَّة
تُـــبارزهُ بِالمـــنْكراتِ عَشــــيةً وتَصـــبحْ في أثــوَابِ نُسك وعِفَّة
تُحاطِـــبهُ إيَّــــاك نَعـــبدُ مُقــــبلاً عَـــلى غَـــيرِهِ فِـــيهَا لغَير ضَرورَة
ولَـــو ردَّ مَـــن نَاجَاكَ لتغير طَرفهُ تَمَّــيزتَ مِـــن غيظٍ عَليهِ وغِيرةِ

فيا أيُّها المقبل بقلبه على الأغيار: طهِّر القلب بمياه الاستغفار، وسبِّعه من هذه النجاسات بتراب الذلَّة والانكسار، ولا تقبل بقلبك إلاَّ عليه، ولا تنطرح بذلَّتك وانكسارك إلاَّ بين يديه.

وقال ﷺ:

٩- ليس للقلب إلاَّ وجهة واحدة، فمتى توجَّه إليها حُجبَ عن غيرها.

فوجه وجهك يا أخي لقبلتك الحقيقية، وصحِّح صلاة سرِّك، واستغنِ عن البرية، واجعل قيامك استقامةً في طاعته، وركوعك خضوعًا لعظمته، وسجودك فناءً في حضرته، وغب عن الأكوان، واشهد مقام الإحسان ترث أحوال سيد ولد عدنان، وتكن عبدًا لمَن هو كل يوم هو في شأن:

أيُّهـــا الخَاطـــبُ مَعـــنى حُســـنًا مَهـــرنَا غـــالٍ لِمَـــن يَخطبـــنَا
جَســـدٌ مضـــني وروحُ العـــناءِ وجُفـــونٌ لا تَـــذوق الوسْـــنَا
وفُـــؤَادٌ لـــيسَ فِـــيهِ غَيرُنـــا فَـــإذا مَـــا شِـــئتَ أداء الثمـــنا
وافْـــنِ إنْ شِـــئتَ فـــناءً سرمدًا فَالفـــناءُ يـــدني إلى ذَاكَ العـــنَا
واخْـــلعْ الـــنَّعلَين إنْ جِئـــتَ إلَى ذَلـــكَ الـــوادي فِفـــيه قدسـنَا
وعَـــنْ الكوْنـــيْن كُـــنْ منْخلعًا وأزِلْ مَـــا بَينـــنَا مِـــن بَينـــنَا
وإذَا مَـــا قِـــيلَ مَـــن تَهوَى فَقُلْ أنَـــا مَـــن أهْوى ومَن أهْوى أنَا

فيا طالبًا لهذه المنازل، ويا متعطشًا لشربة من هذه المناهل، ثم قال ﷺ:

١٠- إيَّاك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذة مناجاته.

تأمَّل يا أخي هذه الوصية، وأقبل بقلبك عليه، واحذر أن تتوجَّه إلى غيره فيحرمك مما لديه، واحرص على أن تكون جميع لذَّاتك في مناجاته، واجتهد أن يكون اشتغالك في بكورك وآصالك بحسب معاملاته، واجعل ظاهرك وباطنك في خدمته، وصلاتك ونُسكك ومحياك ومماتك لحضرته، لا تلتجئ في شدائدك إلاَّ إلى جنابه، ولا تَنخ مطايا حاجتك إلاَّ بواسع رجائه، فهناك تشهد الفضل العظيم، وتجد من النعم ما لا ترجوه من صديق ولا حميم.

صحِّحْ القصد يا أخي، وتملَّى وارشف الكأس صافيًا، وتهنئ خمرة الحب، لا تنال بشرك وجد القلب عنده، فيا مَن يريد هذا المقام؛ عليك بتنوير بصيرتك بترك الآثام.

ثم قال ﷺ:

١١- البصيرة تحقيق الانتفاع.

البصيرة للقلب كالبصر للقالب، فكما أن أعمى البصر لا يقدر أن ينتفع بسيره في سفره الحسِّي، كذلك أعمى البصيرة لا يقدر أن ينتفع بسيره في السفر القدسي.

فداوِ عمى بصيرتك يا أخي بكمال الطاعات، وتمسَّك في معرفة الكحال النافع بأذيال الأطباء من أُولي النهايات، ولا تصحب منهم الأمر ينهضك حاله، ويدلُّك على الله مقاله، واحذر صحبة الأشرار؛ فإنها أشدُّ عليك من كل أسدٍ ضارٍ.

كما قال:

١٢- أضرُّ الأشياء: صحبة عالم غافل، أو صوفي جاهل، أو واعظ مُداهن.

شرع ﷺ يبيِّن لك الأشرار الذي ينبغي لك الاحتراز من مصاحبتهم.

فمن ذلك العالم الغافل: فإنه يدلُّك على مولاه بقاله، ويجرُّك إلى سواه بسوء أفعاله ودناءة حاله، ولسان الحال أقوى من لسان المقال، فمجالسة مثل هذا كمجالسة الأجرب ما جالسه سليم إلا وعداه، وأسلمه للعطب.

وكذلك الصوفي الجاهل: صحبته شديدة الضرر، وهي كالمذهبة للسمع والبصر؛ إذ هو يدَّعي الحقائق، وهو عنها بمعزل، ويظهر الإلحاد والزندقة، ويظن أنه من مولاه

بمنـــزل، فإذا صاحبه السالك ارتدى بردائه، وانقطع عن أول قدم من طريق مولاه.

ومثل الواعظ المداهن الذي مقصوده ممَن وعظه: جمع دنياه، ونيل ما ترومه نفسه وهواه، يقول ما لا يفعل، ويعلّم غيره، وينهاه عن الغفلة، وهو أغفل كما قيل:

يَـــا أَيُّهـــا الـــرجلُ المعلِّـــمُ غَيرَهُ   هَـــلْ لا لِنفســـكَ كَانَ ذَا التَّعليم

ابْـــدأ بَنفســـكَ فانْهها عَن غَيْرِهَا   فَـــإنْ انْتهـــتْ عَنه فَأنتَ حكيم

دخل سيِّدنا علي ﷺ مسجد البصرة فوجد فيها نحو مائة حلقة، فكان يقف عند كل حلقة، ويسأل صاحبها بسؤال، ثم يمنعه من التدريس حتى إذا أتى إلى حلقة الحسن البصري ﷺ فرآه شابًا حسن الصمت، فقال: إني سائلك مثل ما سألتهم، فإن أجبتني بما ينبغي، وإلا منعتك كما منعتهم.

فقال: سل عمَّا بدا لك.

فقال: ما ملاك الدين؟

قال: الورع.

فقال: ما آفة الدين؟

قال: الطمع.

فقال: اجلس فمثلك مَن يصلح للجلوس.

وهذا ميزان نافع يعرف السالك الضار من النافع، فإن حبَّ الدنيا رأس كل خطيئة، فمَن كان عنده رأس الخطيئات؛ كيف ينقذ غيره من لجج البليّات.

فعليك بتتبُّع الآثار، واستنشق الروائح الطيبة من أذاخرها والرحيق من أزهارها.

قال ﷺ: «**واستفت قلبك، وإن أفتاك المفتون**»[1]، فحيث تجد روائح الأُنس فأعمدها، وإن لمعتك لوامع الفوائد من قلوب فاقصدها، وما أحسن ما قيل في ضبط ذلك، ومعرفة ما اشتبه مما هنالك، إذا أنت مع شخص جلست، ولم تجد حضورك ينمو فاجتنبه وفارق، ولا تصحب الأغيار، واختر مصاحبًا يفيدك جمع القلب من غير

---

(١) تقدم تخريجه.

عائق، وإن أردت الميزان النافع؛ فاختبر مَن تقصده بميزان الشرائع(١).

(١) ومن حكم سيدي محمود الكردي فيما يشابه حكمة سيدي أبي مدين هذه، قوله رحمه الله: «**مجالسة العلماء تُزيد العرفان، ومجالسة الجهلاء تنقص الإحسان، لا تخالط الأحداث إلا بعد الكمال، ولا تمل إلى النساء إن كنت طالب الوصال**».

فقال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: «مجالسة العلماء» خصوصًا العلماء بالله تعالى العارفين به ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ [ص:٢٤].

فقد سُئل الجنيد عن العارف فقال: «لون الماء لون إنائه».

أي هو متخلق بأخلاق الله حي كأنه هو، وما هو هو، وهو هو، فالعارف عند الجماعة: من أشعر نفسه الهيبة والسكينة، وجعل أول المعرفة لله، وآخرها ما لا يتناهى، ولم يُدخِل قلبه حق ولا باطل وغاب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلى غيره، فهو يعيش بربه لا بقلبه، وأفسدت المعرفةُ الداخلة قلبه أحوالَهُ التي كان عليها، بأن يقلبها الله تعالى إليه، لا بأن يعدمها، فإنها عند الجماعة لا تنعدم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤] فلا حال عندهم للعارف؛ لمحو رسومه، وفناء هويَّته، وغيبة أثره، وهو منقطع منقمع، عاجز على معروف، خائف متبرم بالبقاء في هذا الهيكل، وإن كان منورًا لما عرَّفه الشارع: أن في الموت لقاء الله، فتنغصت عليه الحياة الدنيا شوقًا إلى ذلك اللقاء فهو صافي العيش كدر طيب الحياة في نفس الأمر لا في نفسه، قد ذهب عنه كل مخلوق، وهابه كل ناظر إليه، ذو أنس بالله، معه تعالى بلا فصل ولا وصل، حي القلب قلبه مرآة للحق، حليم محتمل، فارغ من الدنيا والآخرة، ذو دهشٍ وحيرة، يأخذ أعماله عن الله، ويرجع فيها إليه، بطنه جائع، وبدنه عار، لا يأسف على شيء، لا يرى غير الله، تبكي عينه ويضحك قلبه، فهو كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي كل ما يحب وما لا يحب، لا تمييز عنده، لا يقضي وطره من شيء، بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه، يضيعُ ما له ويقفُ مع ما للحق، لا يشتغل عنه طرفة عين، عرفَ لربه بربه، مهدي في أحواله، لا تلحظه عين الأغيار، ولا يتكلم بغير كلام الله، مستوحش من الخلق، ذو فقر وذلة، يورث غنى وعزة، معرفته طلوع حق على الأسرار ومواصلة الأنوار، حاله فوق ما يقول، استوت عنده الحالات في الفتح، يفتح له على فراشه كما يفتح له في صلاته، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن، دائم الذكر، ذو لوامع تسقط التمييز، لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، تضيء له أنوار العلم؛ فيبصر بها عجائب الغيب، مستَهلَك في بحار التحقيق، صاحب أمواج تغط فترفع

وتحط، صاحب وقت واستيفاء حقوق المراسم الإلهية على التمام، تعبه في تحوله من صفة إلى صفة، دائم لا يتعمل ولا يجتلب أجبذ الوقت، يسع الأشياء ولا تسعه، يرجو ولا يرجى، رحيم مؤنس، مشاهد جلال الحق وجمال الحضرة، معه مع كل وارد، يصادف الأمور من غير قصد، له وجود في عين فقد، ذل في عز، قهر في لطف، ولطف في قهر، حق بلا خلق، مشاهد قيام الله على كل شيء، فانٍ عنه باقٍ معه به، غائب عن التكوين، حاضر مع المكون، صاحٍ بغيره، سكران بحبه، جامع للتجلي، لا يفوته ما مضى بما هو فيه، ثابت المواصلة، محكم للعبادة في العادة مع إزالة العلل، طائع بذاته، قابل أمور ربه، منـــزه عن الشبيه، يجري عليه منه أحكام الشرع، في عين الحقيقة، ذو روح وريحان، قلبه طريق مطروقة لكل سالك، صاحب دليل وكشف وشهود، يلزم الوارد ويتأدب مع الشاهد، بريء من العلل، صاحب إلقاء وتلق، مضنون به مستور، بولهٍ محبوس في الموقف، ذاهبٌ تحت القهر، رجوعه سلوك، وحجابه شهود، سره لا يعلم، به زره كلما ظهر له وجه عَلِم أنه بَطُنَ عنه وجه، منفرد بلا انفراد، متواتر الأحوال بحكم الأسماء، أمين بالفهم، قابل للزيادة، موحد بالكثرة، صاحب حديث قديم، يعلم ما وراء الحجر من غير رفع حجاب، ذو أنوار، طامس شعاعاته محرقة، وفجاجات وارداته مقلقة، يرد عليه ما لا يعرف، متمكن في تلوينه، لكون خالقه كل يوم هو في شأن، مجرد بكله عن السوى، واقف بالحق في مواطنه، مريد لكل ما يُرَاد منه، ذو غيابة إلهية تجذبه، سالك في سكونه، مقيم في سفره، صاحب نظرة ونظر، يجد ما لا تسعه العبارة من دقائق الفهم عن الله من غير سبب، مهذب الأخلاق، غير قائل بالاتحاد، ذاهب في كل مذهب بغير ذهاب، مقدس الروح من رعونات النفوس، مؤمن بالناطق في سره، مصغ إليه راغب فيما يرد به، مشفق بما في طيه، مظهر خلاف ما يخفى لمصلحة وقته، لا يُحكَم عليه، غريب في الملأ الأعلا والأسفل، ذو همة فعالة، مقيدة غير مطلقة، غيور على الأسرار أن تذاع في عالم الغيب والشهادة، عن أمر الحق ولاية وخلافة، حمَّال أعباء المملكة، يستخرج غيابات الأمور، تُنشئ خواطره أشخاصًا على صورته، محفوظ الأربعة، فريد من النظر، له في الملكوت وقائع مشهودة، قائم بالحق في جمعيته، ناقد الهمة، مؤثر في الوجود على الإطلاق من غير تقييد، لكن بالميزان المعلوم عند أهل الله، مجهولاً النعت والصفة عند الغير من جميع العالم، من بشر وجن وملك وحيوان، لا يُعرَف بحد، ولا يفارق العادة فيميز، خامل الذكر، مستور الحال، عام الشفقة على عباد الله، يغرق في رحمته من أُمِرَ برحمته، حتى يجعل له خصوص وصف، عارف بإرادة الحق في

=

عباده قبل وقوع المراد فيريد بإرادة الحق، لا ينازع ولا يقاوم، ولا يقع في الوجود ما لا يريد، وإن وقع ما لا يرضى وقوعه بل يكرهه، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها، فينـــزلها منازلها مع أهلها تنـــزيل حكيم، بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق، مؤمّن عباد الله من غوائله، مشاهد تسبيح المخلوقات على تنوعات أذكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو؛ لقوة الشبه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال: بسم الله كان عن قوله ذلك كلما قصده بهمته، لا بقوله: (كن) أدبًا مع الله، فيعطي المواطن حقها، كبير بحق، صغير لحق، متوسع مع حق، جامع لهذه الصفات في حق، واحد خبير بالمقادير والأوزان، لا يفرط ولا يفرّط، يتأثر مع الآفات لتغير الأحوال، فلا يفوته من العالَم ولا مما هو عليه الحق في الوقت شيء، مما يطلبه العالَم في زمن الحال، يشاهد نشأ الصور من أنفاسه، بصورة ما هو عليه الحق في قلبه عند خروج النفس، فإذا أورد عليه النفس الغريب من خارج لتبريد القلب، طلع على ذلك النفس خلعة الوقت، فيضيء ذلك النفس بذلك النور الذي يجد في القلب، يستر مقامه بحاله، وحاله بمقامه فتجهله أصحاب الأحوال بمقامه وأصحاب المقامات بحاله عن فاعل شهوته؛ إذ لم يجد وجه الحق في طبيعتها يبذل لك لا له، عطاؤه غير معلول، لا يَمُن إذا امتن، ويَمتن بقبول المنّ، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جَهلُه له وجه في العلم، لا يُشعر المعطي من عنده حينما يعطيه، يُعرِّفه أن ذلك أمانة عنده أُمرَ بإيصالها إليه، لا يُعرِّفه أن ذلك من عند الله، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه ومن تحت رجله، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر، ويرسلها إذا شاء من حيث لا تشعر، يملك أزمة الأمور، وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فيستفل بنظره، وإلى السفل فيعلو ويرتفع بنظره، ويحجر الواسع، ويوسع المحجور، ويسمع كل مسموع منه، لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مُبَصَر، لا من حيث ذلك المبصر، يقضى بين الخصمين بما يرضيهما فيحكم لكل واحد لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، يغلِّب ذكر النفس على ذكر الملأ من أجل المفاضلة غيرة أن يُفَاضَل الحق، فإنه ذاكر بحق في حق، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية، يعرف ربه من نفسه، كما عَلِمَ الحق العالَم من علمه بنفسه، لا يُؤاخذ بالجريمة، عظمته في ذلته وصغاره، فلا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وأخرى، هو في عمله بحسب علمه، إن اقتضى العمل عمل، وإن اقتضى أن لا يعمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور بحكمه، ومفاتيحها بيده، يُنَـــزِّل بقدر ما

=

يشاء، ويخرج ما يشاء، غوّاص في دقائق الفهوم عند ورود الصلوات، له نعوت الكمال، له مقام الخمسة في حفظ نفسه وغيره، وينظر في قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠] فلا يتعداه، يدبر أمور الكون بينه وبين ربه، كالمشير العالم الناصح في الخدمة، القائم بالحرمة، لا أينية لسره، لا يبخل عند السؤال، ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون؛ ليقابلها مما عنده لما سمع قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، يسمع نداء الحق من ألسنة الخلق، يسع الأشياء ولا يسعه سوى ربه، فهو أينه وعينه، مراقب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل، لا تزلزله الحادثات، ليس في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهرُ في أي صورة شاء بصفة الحياة، مع الوقوف عند الحدود، يعرفُ حقه من حق خالقه، يتصور في الأشياء بالاستحقاق، ويُصرِف الحق فيها بالاستخلاف، له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة، لا تنفذ فيه همم الرجال، يحصى أنفاسه بمشاهدة صورها، فيعلم ما زاد وما نقص في كل يوم وليلة، ينظر في المبدأ والمعاد، فيرى التقاطر في الدائرة، يلقي الكلمة في المحل القابل، فيبدو صورته وحاله في أي صورة كان، ما يطأ مكانًا إلا حيِيَ ذلك المكان بوطئته؛ لأنه وطئته بحياة روحية، إذا قام قام بقيامه ربه، ويغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، فإن حالته في سلوكه كانت هكذا فعادت عليه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، لا يخطر له خاطر في شيء إلا تكوَّن، ولا يعرف ذلك الشيء أنه كونه له، على الأشياء شرف البصر على العماء لا شرف الاستواء فهو وحيد في الكون، غير معروف العين، من لجأ إليه خسر ولا تنقضي حاجته إلا به؛ فإنه ظاهر بصورة العجز وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن، يحسن للمسيء والمحسن، يرجع إلى الله في كل أمر، ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص، فإن لم يأمره عفا بحق؛ لشهوده السابقة في الحال، القليل عنده كثير، والكثير قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكًا، يسبح أسماء الله تعالى بتنـــزيهها من أن تناله أيدي الغافلين، غيرة على الجناب الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن وُلِيَ منصبًا يُعطَى العلوم، لم يُرَ فيه متعاليًا بالله فأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم، جامع علوم الشرع من عين الجمع، مستغنٍ عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق، ويعطي ما تحصل به المنفعة، ولا يعطي ما تكون به المضرة، إن عاقب فتطهير، لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي؛ ليكشف غامضها ويجليها في منصتها، يرثُ ولا يورث بالنبوة العامة، يتصرف ويعمل ما ينبغي، يُؤذَى فيحلم عن مقدرة، وإذا

=

أخذ فبطشه شديد؛ لأنه خالص غير مشوب برحمة.

قال أبو يزيد: بطشي أشد من بطش الله.

فهذه بعض صفات العارف من بعض ما ذكره في الفتوحات في باب المعرفة.

فينبغي لكل من يدعى المعرفة أن يعرض صفاته عليها؛ ليعلم هل هو متخلق بها أو لا فإن لم يجد نفسه بتلك المثابة كان المناسب له التحقق بالعجز وترك الدعوى والله أعلم.

«تزيَد العرفان» أي: المعرفة بأحكام الله تعالى وما يليق بالأدب مع الحضرة العلية.

«ومجالسة الجهلاء تنقص الإحسان» للأعمال الصالحة الظاهرة أو الباطنة.

«لا تخالط الأحداث»: أي الشباب الذين هم في حداثة السن فإن مخالطتهم توقع المزيد من المهالك؛ لأن النفس أمارة بالسوء ميَّالة إلى المعاطب، ويساعدها الشيطان والهوى في مرامها حتى يميل المريد إليهم فيقع في الأمور التي لا ترضي.

قال القشيري: من ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله وخذله بل عن مصالح نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهله.

وقال الواسطي ﷺ: إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف يريد بهم الشباب المرد الذين تميل إليهم النفوس، فليحذر المريد الصادق من مجالستهم في غير حلقة الذكر أو الدرس، بحضرة الشيخ مع غض بصره عنهم ما أمكن «إلا بعد الكمال» انتهى.

«ولا تمل إلى النساء» بمخالطة أو محادثة بغير وعظ ونصيحة إلا بعد الكمال أيضًا.

«إن كنت طالب الوصال» بحضرة الملك المتعال؛ لأن الشهوة مركبة فيك ومخالطة ما ذُكِرَ تثيرها.

قال في الفتوحات في الباب الثامن ومائة ما معناه: والشهوة للنفس تعلو بعلو المُشتَهَى، وتشتغل باشتغاله، وهي: إرادة الالتذاذ بما ينبغي أن يُتلذّذ به، واللذة لذتان: روحية وطبيعية.

والنفس الجزئية متولدة من الطبيعة فهي أمها، والروح الإلهي أبوها، والشهوة الروحانية لا تخلو عن الطبيعة أصلاً، ومن المعلوم أنه لا يُلتذ إلا بالمناسب فلا يلتذ الإنسان شدة اللذة إلا بما هو على صورته؛ لأنه لا يفنى في مشاهدة شيء بكليته، ولا تسرى المحبة والعشق في طبيعة روحانية إلا إذا عشق جارية أو غلامًا ما، وسبب ذلك أنه يقابله بكليته وأنه على صورته، وكل شيء في العالم جزء منه، فلا يقابله إلا بذلك الجزء المناسب، فلذلك لا يفنى في شيء يعشقه إلا في مثله، فإذا وقع التجلي الإلهي في عين الصورة التي خلق آدم عليها طابق المعنى المعني ووقع الالتذاذ بالكل، وسرت الشهوة في جميع أجزاء الإنسان ظاهرًا وباطنًا، وهذه

=

هي الشهوة التي هي مطلب العارفين الوارثين ألا ترى إلى قيس المجنون في حب ليلى، كيف أفناه عن نفسه؟! لما ذكرناه وكذلك أصحاب الوله والمحبون أعظم لذة وأقوى محبة في جانب الله من جانب الجنس، فإن الصورة الإلهية أتم في العبد من مماثلة الجنس؛ لأنه لا يمكن للجنس أن يكون سمعك وبصرك وبطشك، وغير ذلك مما ورد في الحديث القدسي بل غايته أن يكون مسموعك ومدركك اسم مفعول.

وأما أصحاب الأحداث وهم المردان وأهل البدع الذين أحدثوا في الدين من التسنين المحمود الذي أقره الشرع فينا، فينظر العارف منهم للأمرد من حيث أنه أملس لا نبات بعارضه كالصخرة الملساء، فإن الأرض المرداء هي التي لا نبات فيها يتذكر مقام التجريد، وأنه أحدث عهد بربه من الكبير، فقد راعى الشرع ذلك في المطر، فكل ما قرب من التكوين كان أقرب دلالة وأعظم حرمة وأوفر؛ لدواعي الرحمة به من الكبير البعيد عن هذا المقام، فسُمُوا أحداثًا بهذا المعنى؛ لأنهم حديثو عهد بربهم، وفي صحبتهم وتذكر حدوثهم يتميَّز قدمه تعالى، فهو اعتبار صحيح وطريق موصلة، هكذا نظر العارفين فيهم.

وأما المريدون والصوفية فيحرم عليهم صحبتهم؛ لاستيلاء الشهوة الحيوانية عليهم بسبب العقل الذي جعله الله تعالى بلاء لها، فلولا العقل لكانت الشهوة الطبيعية محمودة.

وأما النسوان فنظر العارفين فيهن وأخذ الإرفاق منهن مثلاً حنين الكل إلى جزئه، كما تحن المنازل لساكنيها الذين بهم حياتها؛ ولأن المكان الذي استخرجت المرأة منه من الرجل عمَّره الله تعالى بالميل إليها، فحنينه إلى المرأة حنين الكبير وحنوّه على الصغير. وأما أخذ الإرفاق منهن لهن، كما أخذه رسول الله ﷺ منهن حين أمرهن أن يتصدقن، لما رآهن أكثر أهل النار فأشفق عليهن، وسعى في خلاصهن؛ ولأنهن محل التكوين بصورة الكمال، فمحبتهن فريضة واقتداء به ﷺ حيث قال: «حُببَ إِلَيَّ من دنياكم هذه ثلاث: النساء والطيب وجُعلَت قرة عيني في الصلاة»، فذكر النساء، ومعلوم أنه ﷺ لا يحبب إليه ما يبعده عن ربه، بل ما يقربه منه، لما نزل قوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢]، قالت عائشة: ما كان الله ليعذب قلب نبيه، والله ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء، وإنما قالت ذلك لعلمها بما أخذ النساء من قلبه ﷺ، فأبقى عليه تعالى جواز ملك اليمين رحمةً به، وإن مُنِعَ غيرهن، ولذلك كانت هذه الآية من أشق ما نزل على رسول الله ﷺ فمن عرف قدر النساء وسرهن لم يزهد في حبهن، بل من كمال العارف حبهن، فإنه ميراث نبوي وحب

الهي لقوله ﷺ: (حُبِبَ) فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله تعالى، فتدبر هذا الفضل ترى عجبًا.

وأما المريدون الذين هم تحت حكم الشيوخ فهم بحكم أشياخهم فيهم، فإن كانوا شيوخًا حقيقة فهم أنصح الناس لعباد الله، وإن لم يكونوا فعليهم وعلى أتباعهم الحرج من الله؛ لأن الله قد وضع الميزان المشروع في العالم لتوزن به أفعال العباد، والأشياخ يسألون ولا يقتدي بأفعالهم إلا أن يَأمروا بذلك في أفعال معيشة قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، وهم: «أهل القرآن أهل الله وخاصته» .

وأهل القرآن هم الذين يعملون به وهو الميزان الذي قلنا، ولا ينبغي أن يقتدي بفعل أحد دون رسول الله ﷺ فإن أحوال الناس تختلف، فقد يكون عين ما يصلح به الواحد يفسد به الأخر إن عَمِلَ به.

والعلماء الذين يخشون الله تعالى أطباء دين الله، المزيلون علله وأمراضه العارفون بالأدوية، فإذا كان رسول الله ﷺ قد اختلف الناس في أفعاله هل هي على الوجوب أو لا؟ فكيف بغيره؟! مع قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب:٢١] وقوله: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١]، وهذا كله ليس بنص منه في وجوب الإتباع في أفعاله؛ فإنه ﷺ اختص بأشياء لا يجوز لنا ابتاعه فيها، ولو أتتــه نيابة فيها كنا عاصين مأثومين، فينبغي لكل مؤمن ويجب على كل مدع في طريق الله، إذا لم يكن من أهل الكشف والوجود والخطاب الإلهي، ومن لا يكون يطفأ نور معرفته نور ورعه أن يجتنب كل أمر يؤدي إلى تعلق القلب بغير الله تعالى فإنه فتنة في حقه؛ فيجب عليه أن يغلِّب عقله على شهوته، ويسعى في قطع المألوفات وترك المستحسنات الطبيعية وما يميل الطبع البشري إليه، ويجتنب مواضع التهم وصحبة المبتدعين في الدين، ما لم يأذن له الله وهم الأحداث، وكذلك الصِبَاح الوجوه من المردان ومجالسة النساء وأخذ الإرفاق؛ فإن القلوب تميل إلى كل من أحسن إليها والطبع يطلبهم، والقوة الإلهية على دفع الشهوات ما هي هناك، والمعرفة معدومة من هذا الصنف من الناس، وما صبر تحت الاختبار الإلهي إلا الذهب الخالص المعدني، الذي حاز زينة الكمال، وما بقي فيه من تربة المعدن شيء، وكل تكليف فتنة، وجميع المخلوقات فتنة، والإطلاع على نتائج الأعمال فتنة وهي حالة مقام يُستَصحَب إلى الجنة، وكان ﷺ وهو صاحب الكشف الأتم والعالم بما ثَمَّ يستعيذ من فتنة القبر وعذاب النار ومن فتنة المحيا والممات.

وأما الشهوة فهي: إرادة الملذوذات والتذاذ بملذوذ عند المُشتهِي، فإنه لا يلزم أن يكون الملذوذ عنده ملذوذًا عند غيره، ولا أن يكون موافقًا لمزاجه ولا ملائمًا لطبعه، وذلك أن الشهوة شهوتان:

شهوة عرضيّة: وهي التي يُمنع من إتباعها، فإنها كاذبة وإن نفعت يومًا ما، فلا ينبغي للعاقل أن يتبعها؛ لئلا يرجع ذلك عادة فتؤثر فيه العوارض.

وشهوة ذاتية: فيجب عليه اتِّباعها، فإن فيها صلاح مزاجه لملاءمتها طبعه، وفي صلاح مزاجه وصلاح دينه سعادته، ولكن يتبعها بالميزان الإلهي الموضوع من الشارع، وهو حكم الشرع المقرر، وسواء كان من الرخص أو العزائم، إذا كان متبعًا للشرع لا يبالي فإنه طريق إلى الله مشروعة، فإنه تعالى ما شرع إلا ما يوصل إليه بحكم السعادة، ولا يلزم أيضًا أن يكون ما يشتهيه في هذه الحال يشتهيه في كل حال، فينبغي أن يعرف الحال التي ولدت تلك الشهوة عنده والوقت الذي اقتضاها.

وقد نتعلّق بأعمال الطاعات هذه الشهوات العرضيّة فتوجب بعدًا، كمن رأى موضعًا فيستحسنه طبعه فيشتهى أن يصلى فيه، أو بفضيلة يعملها في ذلك الزمان دون غيره فإن ذلك يؤثر في حاله مع الله تعالى أثر سوء، وميزان ذلك الالتذاذ بعمل لا بشهود إلهي، وهذا من المكر الخفي، ولأبي يزيد فيها قدم راسخة، وقد نبَّه على ذلك لما سألته أمه في ليلة باردة أن يسقيها ماء وكان برًا بها فثقل عليه القيام، وكان ملتذًا في جميع أحواله بخدمة أمه، فاتهم نفسه في تلك اللذة؛ إذ كان يتخيل أنه كان لا يتلذذ بخدمة أمه إلا لإقامة حق الله فيها فرمى كل عبادة تقدمت له كان له التذاذ بها وتاب توبة جديدة.

فأغوار النفوس لا يدركها إلا الفحول من أهل الله، فلا تفرح بالالتذاذ بالطاعات ورفع المشقة فيها عنك دون ميزان القوم في ذلك، فإذا اقترنت هذه الشهوة بصحبة الأحداث والصبيان الصِبَاح الوجوه أو النساء في الله تعالى فيما يخيل له أنه في الله تعالى، كان في طي هذا التعلق مكر إلهي خفي، والذي ينبغي له أن يزن حالة في دعواه أنه ما صحب الأحداث والنساء إلا لله، فإذا وجد ماء أو خضرة وفارق ذلك فإنه لا يستوحش له فإن كان على هذه الصفة مع الأحداث أو النساء كانت صحبته لله، وإن كان بحيث إذا فارقهم استوحش وحصل عنده اشتياق إلى رؤيتهم وهيجان إلى لقائهم وفرح عند إقبالهم، عَلِمَ أن الصحبة معلولة ليست لله تعالى، وإن وقعت المنفعة للمصحوب فيسعد، ويشقى هذا المُحِب شقاوتين: بُعد المحبوب، والجهل بما قد كان تَخيل فيه أنه علم، وهو أن الصحبة لله تعالى.

هذا إن لم تتعلق محبة بجميع المخلوقات، فإن تعلقت بذلك ومن جملتهم هؤلاء الأصناف فقد يكون ذلك خديعة نفسه، وميزانه أن لا يستوحش عند مفارقة أحد؛ لأنه لا يخلو عن مشاهدة خالقه في أي مخلوق كان، فمحبوبه معه ما فارقه، فإن العين واحدة، والمحب لو غاب عضو من أعضاء محبوبه مع بقاء عينه معه لم يجد ألمًا، والخلق كلهم أعضاء بعضهم لبعض، فإن تعلّق بجميع المخلوقات، ثم بهؤلاء الأصناف، ولم يجد مزيدًا في تعلقه بهم بل أدخلهم في عموم التعلق فذلك لا يضر، وكذا إن جر به الطبع في هؤلاء الأصناف حتى وجد ألمًا عند فقدهم بالخصوص، فذلك لا يضر في خلوص تعلقه الإلهي وصحته؛ لأن الأصل صحيح فلا يضره ما عرض، بخلاف ما لو تعلق أولاً بهؤلاء الأصناف ثم حصل عنده عموم التعلق، فلا يعول عليه بل هو تلبيس من النفس ينبغي الحذر منه فينـــزل عن صحبة هؤلاء الأصناف جملة واحدة.

واعلم: أن التعلق بغير هؤلاء الأصناف قد يكون فيه مكر إلهي خفي، ولا يعرف ذلك حتى يفرق بين الصحبة لله والصحبة لشهوة الطبع، ولا يفرق بينهما إلا أن يصحب العلماء بالله أهل الورع، أو شيخه إن كان من أهل الأذواق.

وكلامنا هذا إنما هو مع أهل الطريق، والإنسان إذا أنصف لربه من نفسه، ولنفسه من نفسه عرف حاله، بل كان أعرف بحاله من غيره، إلا من العارفين بالله تعالى، فإنهم أعرف به من نفسه؛ لأن لهم أعينًا في قلوبهم فتحتها لهم المعرفة، يرون بها منك ما تجهل أنت من نفسك؛ إذ ليس لك تلك العين.

ولذا قال الجنيد: العارف من ينطق عن سرك وأنت ساكت، والسكوت عدم الكلام: أي يعرف منك ما لا تعرفه من نفسك، كما يعرف الطبيب منك إذا نظر إليك ما لا تعرفه، وهؤلاء أطباء النفوس.

واعلم: أن الشيوخ إنما حذروا من أخذ الإرفاق من النساء ومن صحبة الأحداث لما ذكرناه من الميل الطبيعي، فلا ينبغي للمريد أن يأخذ أرفاقًا من النساء حتى يرجع في نفسه امرأة، فإذا تأنّث والتحق بالعالم الأسفل ورأى تعشق العالم الأعلا به، فلا يشهد نفسه في حال كشفه الصوري أنه رجل أصلاً بل أنوثته محضة، ويحمل من ذلك النكاح ويلد، فحينئذٍ يجوز له أخذ الرفق من النساء ولا يضره الميل إليهن وحبهن.

وأما أخذ العارفين فمطلق؛ لأن مشهودهم اليد الإلهية المقدسة المطلقة في الأخذ والإعطاء، وكل شخص يعرف حاله، والطريق صدقٌ كله، وجدٌ لا يقبل الهزل ولا الطفيلي وإن سامح الحق

١٣- مَن رأيته يَدَّعي مع الله تعالى حالاً لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره.

سمع أبي يزيد ﷺ بشخص من الأولياء فقصده ليزوره، فلمَّا أقبل عليه رآه بصق ورمى ببصاقه إلى جهة القبلة، فأعرض عنه، ولم يصل إليه.

وقال: هذا رجل لم يؤمن على سُنة من سنن الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الولاية، فاستدلَّ بعدم صلاح ظاهره على عدم صلاح باطنه، فإن الظاهر عنوان الباطن، فالذي لا يقدر على التقيُّد بظاهر الشريعة كيف يقدر على التعبُّد بباطن الطريقة.

ولذلك قال العارفون: علامة صحَّة الأحوال الاستقامة في الأفعال.

وقال أبو سعيد الخراز ﷺ: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل.

فدلَّ كلامه أن صلاح الباطن مَن لازمه صلاح الظاهر، فمتى طهر القلب ظهرت أنواره على القالب:

ومَهمَا تَكُنْ عِندَ أمْري مِن خليفةٍ وإنْ خَالهـا تخفى عَلى الناسِ تَعلمْ

وأعظم الدلالات: حفظ الأوقات، وملازمة الجماعات، وحفظ الحواس عمَّا لا يعني والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والشفقة على الخلق، والإعراض عن

=

ثم قال في الباب بعده: اعلم أيَّدك الله: أن المتمكن الكامل والعابد أيضًا من أهل الله صاحب المقام يَشتهِي ويُشتهَى لكماله فيعطي كل ذي حقٍّ حقه، فإنه يشاهد جمعيته. ففيه من كل شيءٍ حقيقة، وصاحب الحال لا يَشتهِي ولا يُشتهَى؛ لأنه لا يشهد سوى الحق، يعني الحق في حال فنائه عن رؤية نفسه فلا يشتهي؛ لأن الحق لا يوصف بالشهوة ولا يُشتهَى؛ لأنه مجهول لا يعرف غير ربه، فلا يعرف الأكوان ولا نفسه لغيبته بربه عن الكل فهو غيب لا يُشتهَى؛ لأن العلم بالمشتَهَى من لوازم هذا الحكم. والزاهد لا يشتهِي ويُشتهَى، فإن النعم له خلقت فهو يراها حجبًا موضوعة فينفر منها فلا يشتهيها وهي تشتهيه؛ لعلمها بأنها خلقت له فيتناولها الزاهد جودًا منه عليها وإيثارًا، لذا كان صاحب مقام، والمخلِّط الكاذب الذي يعصى بنعمته يشتهِي ولا يُشتهى، فيشتهي لغلبة الطبع ولا يُشتهى؛ لأن النعم إنما تشتهي من تراه يقوم بحقها، وهو شكر المنعم على ما أنعم الله به عليه انتهى.

وانظر: شرح الحكم الكردية (الصوفية) لسيدي عبد الله الشرقاوي (الحكمة ٣١) بتحقيقنا.

الدنيا، وتحسين الأخلاق مع الخواص والعوام بمعاملة كل شخص بما يناسبه، ويقابل السيئة بالحسنة، ويصل مَن قطعه، ويعطي مَن حرمه، ويعفو عمَّن ظلمه.

إن بلغه من أحد إساءة، أو وصله مذمة؛ قال لمؤذيه أو المسيء إليه: اللَّهُمَّ اهدِ فلانًا فإنه لا يعلم، يقتدي في ذلك بخير مَن أرشد إلى الصواب، وعلم حيث شج الكفار رأسه الشريف، وكسروا رباعيته، فقال الصحابة ﷺ: ادعُ عليهم يا رسول الله، فقال: «**اللَّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

وهذا الفعل ينشأ من التحقُّق بكمال التوحيد، فإن مَن لم يشهد إلاَّ فعل مولاه؛ كيف يعتريه غضب أو حقد لسواه، إذا ما رأيت الله في الكل فاعلاً؛ رأيت جميع الكائنات ملاكًا.

فمَن يلبس ملابس مثل هذا التوحيد؛ كيف يصح له دعوى مقام التفريد، ومَن لم يلبس هذه الملابس كيف يصح منه أن يكون للحكم في القلوب غارس.

ضرب جندي رأس ابن أدهم ﷺ، فلمَّا علم الجندي أنه إبراهيم ابن أدهم؛ شرع يقبِّل يده، ويعتذر إليه، ويسأله المسامحة.

فقال له: إنك أول ما ضربتني دعوت لك.

فقال: كيف يا سيدي؟

قال: فإنك صرت سببًا لدخولي الجنة بهذا الفعل، فلا أكون سببًا لدخولك النار، فتأدَّب الجندي مما كان عليه لما سمع هذا الكلام من إبراهيم بن أدهم ﷺ.

فانظر يا أخي هذا الكلام من هذا العارف كيف إنه لَّما لبس ليخلع هذه اللطائف، ولو أغلظ له في المقال لأبعده عن مثل هذه النوال؛ ولذلك قال الله تعالى في وصفه ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران:١٥٩]، فدلَّت الآية على عدم الفظاظة، والعفو عن الإخوان والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمور من محاسن الأخلاق المحمَّدية، الدالة على عظيم قدر مَن تلبَّس بها، وجعلها له مطية.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٤٣٢)، والطبري في تفسيره (٢٢/١٦١).

فاحرص يا أخي علي التمسُّك بأذيال مَن لمعت لك منه بارقة من شريف هذه الخصال، واعكف بناديه، والزم أعتابه في الغُدو والآصال، واحذر من قرب مَن كذبته الشواهد، وخرج إلى الخلق قبل أن تجذبه عناية الواحد.

كما قال ﷺ:

١٤- مَن خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى خالقه فهو ممقوتٌ[1].

أي مَن خرج إلى الخلق قبل بلوغ مقام التكميل والإرشاد، ولم يطو منازل أهل السلوك على سبيل السداد، ولم يرتشف حميا أهل الوصال، ولم تدعه الحقيقة، ولا سمحت له بلبس هذا المنال؛ فهو ممقوتٌ عند الخواص والعوام؛ لعدم الإذن له في ذلك من رب الأنام.

فلا يصلح للتكميل في الطريق إلاَّ مَن هذَّب نفسه بالرفيق، وشهدت على استقامة ظاهره شواهد الشريعة، وأعربت عن طهارة باطنه أنوار الطريقة، ترى الفرق بلسانه موجودًا، والجمع بقلبه مشهودًا حركاته وسكناته على سبيل المتابعة، فهنيئًا لَمن صاحب مثل هذا وتابعه.

فيا مَن يريد مصاحبة مثل هذا؛ لنيل المقامات العلية، عليك بالخروج عن نفسك؛ لتحوز مقام الحرية، كما قال ﷺ:

١٥- ما وصل إلى مقام[2] الحرية مَن عليه من نفسه بقية.

أشار ﷺ إلى أن مبنى الطريق والسلوك على الخروج من النفس وشهواتها، وقطع اختياراتها وتدبيراتها، فإنها أشدُّ الحجب.

كما قال ذو النون المصري ﷺ لَمّا سئل: ما أشدُّ الحجاب وأخفاه؟

فقال: رؤية النفس وتدبيرها، والخروج عنها يكون بترك الاختيارات والإرادات والتدبيرات.

كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لا تختَرْ مَن أمرك شيئًا، واختر ألاَّ تختار،

---

(١) في نسخة (مفتون).

(٢) في نسخة (صريح).

وفِرْ من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء إلى الله، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص:٦٨].

وقال أيضًا: إن كان ولا بُدَّ أن تدبِّروا فدبِّروا في ألاَّ تدبِّروا.

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ: لا تتخيَّر عليه، ولا تعترض عليه تعالى في حكمه في خلقه؛ بل تُسلِّم الكل إليه، وتستسلم بين يديه، وتصير بين يدي قدرته، كالطفل بين يدي غاسله مسلوبًا اختياره، منـــزوعًا إرادته.

فالنجاة كل النجاة في ذلك، فإذا فعلت ذلك، وصرت إلى ضريح الحرية، وصرت عبدًا لمولاك، وحزت مقام التوكُّل، وكان الله حسبُك وكافيك وناصرك، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣]، وانغمرت في بحر الرضا، وسرت في سفن التفويض، وزُفَّت إليك المطالب كما تُزفُّ العروس، كما قيل في المعنى:

يـــا أيُّهـــا الرَّاضـــي بِأحْكامِـــنا لا بُـــدَّ أن تحمَـــدْ عُقْـــبى الرضَا

فَـــوِّض إِليـــنَا وابْـــق مُستسْلمًا والـــرَّاحةُ العُظمَـــى لِمَـــن فَوَّضا

لا يَـــــنعم لِلمـــــرءُ لِمحـــــبُوبِه حَـــتى يَـــرى الخِـــيرةَ فِيمَا قَضَى

فيا مَن تحلَّى بهذه الأذواق، وارتشف من حميا هول العُشاق، قد آن لكَ أن تترشَّح لنَفحات المعارف، وتستفيد من مولاك في اليقظة والمنام اللطائف.

كما قال ﷺ:

١٦- مَن عرف الله استفاد[١] منه في اليقظة والمنام[٢].

---

(١) في نسخة (استعاذ).

(٢) قال سيدي مصطفى البكري: المعرفة ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص. فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلف؛ لئلا يشتبَّه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.

قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من طلب الثانية ولم =

يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقّه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرة، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.

ففي الحديث: «ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم».

والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلطٍ». رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس. وإلا فمع الجهل أين الورع.

والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب؛ ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذ شهدت بصحة عقيدته وكماله العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلك به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخٍ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظٍ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال:

(من سلك الطريق بغير شيخٍ ولا ورعٍ عمّا حرّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عمر نوح عليه السلام).

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين؛ لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التجلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خلقًا». وقال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق».

قال صاحب عوارف المعارف: فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهّاد أجابت

=

إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها).

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذات العليَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الراسخين، وقد أشرنا إلى طلب هاتين المعرفتين بقولنا في ورد السحر المُسمَّى بالفتح القدسي والكشف الأنسي، والمنهج القريب إلى لقاء الحبيب: إلهي عرفني حقائق أسمائك الحسنى، وأطلعني على رقائق دقائق معارفك الحسنى، وأشهدني خفي تجليات صفاتك، وكنوز أسرار ذاتك.

وتكلمنا على هذا التوسل في شرح الورد المُسمَّى بـ (الضياء الشمسي على الفتح القدسي). وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف ولم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في صف النعال، ويستدلون بأدلة، كبيت العنكبوت وحجه عادت بتوالي الأيام مقطوعة الثبوت كأنها ألعاب الشمس، وهي أبعد عن الحق من أمس يتمسكون بكلام السكارى، ويحتجُّون بأقوال الحيارى، مع أن الصحاة إذا خالفوا نص الشارع لا يعول على كلامهم، ولا يلتفت بعد وجود الحق الصراح لما يضاده من أفهامهم، اللهم إلا أن يكون فهمًا لا يعارض نصًّا، ولا يوجب في مقام قائله نقصًا.

هذا مع أن تلك الشطحات مؤولة، وعن مؤدي اللفظ الظاهري إلى ما يليق محولة، ولهم كتبٌ في الألفاظ المصطلح عليها كثيرة، فكيف يفهم من لم يدرِ رموزهم العسيرة، وضعوها غيرةً على الأسرار أن تُذاع لدى الأشرار.

قال سيدي الشيخ عبد الغني، حفظ الله وجوده، ورزقه العيش الهنيء في رسالته المُسمَّاة بـ«إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود»:

والحاصل أن جميع علماء الظاهر لا حق معهم في الطعن على القائلين بوحدة الوجود من المحققين العارفين، القائلين بذلك على وجه الحق والصواب كما ذكرنا، أما القائلين بوحدة الوجود من

=

الجهلة الغافلين والزنادقة الملحدين، الزاعمين بأن وجودهم المفروض المقدر هو بعينه وجود الله تعالى، وذواتهم المفروضة المقدرة هي بعينها ذات الله تعالى، وصفاتهم المفروضة المقدرة هي بعينها صفات الله تعالى، الذين يحتالون بذلك على إسقاط الأحكام الشرعية عنهم، وإبطال الملّة المحمدية، وإزالة التكليف عن نفوسهم، فالطعن عليهم بسبب القول بوحدة الوجود على هذا المعنى الفاسد طعن صحيح، وعلماء الظاهر مثابون بذلك كمال الثواب من الملك الوهّاب، والعارفون المحققون في هذا الطعن من غير خلافٍ قد أشار إليهم الشيخ عبد الكريم الجيلي، قدّس الله سرّه، في كتابه المُسمَّى شرح الخلوة في أوائله من الوصايا حيث قال:

يا أخي.. قد سافرت إلى أقصى البلاد، وعاشرت أصناف العباد، فما رأت عيني ولا سمعت أذني أشر ولا أقبح ولا أبعد عن جناب الحق تعالى من طائفة تدّعي أنها من كُمَّل الصوفية، وتنسب نفسها إلى الكمَّل وتظهر بصورهم، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا باليوم الآخر، ولا تتقيَّد بالتكاليف الشرعية، وتقرر أحوال الرسل وما جاءوا به بوجهٍ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فكيف من وصل إلى مراتب الكشف والعيان، ورأينا منهم جماعة كثيرة من أكابرهم في بلاد أذربيجان وشروان وجيلان وخراسان، لعن الله جميعهم.

فالله الله يا أخي.. لا تسكن في قرية فيها واحد من هذه الطائفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وإن لم يتيسر لك فاجتهد ألا تراهم ولا تجاورهم، فكيف أن تعاشرهم وتخالطهم، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك، والله الهادي.

وقال الجنيد ﷺ لرجلٍ ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله تعالى): إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها.

وقال ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة.

وقال ﷺ: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وقال ﷺ: رأيت في المنام أني أتكلم على الناس، فوقف عليَّ ملكٌ فقال: ما أقرب ما تقرَّب به المتقربون إلى الله تعالى؟ فقلت: بعملٍ خفيٍّ بميزان، وفي فوني وهو يقول: كلامٌ موفقٌ والله، وقيل له: من أين

استفاد منه في ا ـلة بالإلهام، وفي المنام بالرؤية الصادقة التي هي جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من ا ة، كما أخبر بذلك ﷺ، فاخرج من أوصافك البشرية؛ تظفر بسمة من المعارف ا ـية، وباين الأكوان تدخل مقام الإحسان، وتستفتي قلبك وإن أفتاك المفتون، وتقو أفتاني قلبي عن ربي، فيهتدي بمقالك كل مفتونٍ.

ورد أنه لمَّا رُمي السادة الصوفية بالزندقة في زمن بعض الخلفاء، وجاءوا بهم

=

استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجةٍ في داره.

ورُئي في يده سبحة فق ـه: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: طريق وصلت به إلى الله تعالى لا أفارقه، و يدخل كل يومٍ حانوته ويسبل الستر، ويصلِّي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، كذا في الرسا ـقشيرية.

فانظر يا أخي بعين الإ ـاف إلى حال هؤلاء الزنادقة، وما هم عليه من سوء الاعتقاد مع ادِّعائهم المعرفة بالله تعالى ا ـي أعز منالاً من بيض الأنوق ومن مناط العبوق، وحال السلف الصالح تجد بينهم من البون كـ ـن النور والظلام، والعلم والجهل التام.

فإن القوم تخلَّقوا وهؤلا ـشدَّقوا، وأولئك اتَّبعوا وهؤلاء ابتدعوا، وأولئك على الحق ائتلفوا وهؤلاء اختلفوا، والقوم ا وما وقفوا وهؤلاء وقفوا وتخلفوا، أجمع أهل الحق على اتِّباع الشريعة فخالفوهم، وعلى ـامة الشيطان وجنوده فحالفوهم، وقد قلت سابقًا محذرًا من هذه الطائفة التي عليها دوائر السوء ة وبها طائفة.

ولا بدَّ من معرفة الأخلا ـ الحسنة كالتقوى والزهد والورع ونحو ذلك واستعمالها، ومعرفة الأخلاق السيئة كالحسد وا ـس والرياء ونحوها واجتنابها، ثم الدوام على ذلك من غير تحولٍ عنه، ومطالعة مواجيد العارفين أهل الكمال، والاقتباس من أنوارهم، والمشي على طريقتهم مع محبتهم، وتحسين الظن بهم كلامهم نثرًا ونظمًا، وإساءة الظن بنفسه إذا لم يفهم شيئًا من مواجيدهم الإيمانية لكمالهم و ـسانه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ). وانظر: السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة الإلحاد (ص١٥) بتحقيقنا.

ليضربوا أعناقهم كان فيهم الثوري رضي الله عنه[1]، فتقدَّم قبل أصحابه للسيَّاف.

---

(١) هو سفيان بن سعيد الثوري: سيد الحفاظ أمير المؤمنين في الحديث عالم الأمة في القديم والحديث، الإمام الرضي، الورع الزاهد الدري له النكت الرائعة، والاستنباطات الشريفة الفائقة، والهمم التائقة، والنفس الشائقة. العلم حليفه، والزهد أليفه، والفقه عريفه، والفقر تشريفه، والقناعة حريفه. والصبر قرينه، والرضا خدينه. والتوكل مسلكه والتفويض مطلبه ومدركه، وقد قال: التصوف براعة في المعارف وبلاغة في المخاوف، قال الذهبي رحمه الله وغيره: كان سيد أهل زمانهم لم ير مثل نفسه. قال: وأقوال الأئمة في فضله وزهده وعبادته تحتمل مجلدين، ونقل السهروردي عنه أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن بلا زاد، ويعتمد على السؤال في الطريق، وكان يحط على المنصور فظلمه فهمّ بقتله فلم يمهل، وقال يحيى القطان سفيان: فوق مالك في كل شيء. ومن كلامه: لا يتعلم أحد العلم حتى يتعلم الأدب ولو عشرين سنة.

وقال: إذا فسد العلماء فمن يصلحهم؟.

وقال: العالم طبيب الدين والدرهم داء الدين، فإذا جرّه الطبيب إليه فكيف يداوي غيره؟.

وقال: من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب بالبول.

وقال: من تصدى للعلم قبل الحاجة إليه فقد تعجل الذل.

وقال: عليك بإخمال الذكر ما استطعت؛ فإن هذا زمان الخمول.

وقال: النجاة الآن في ترك الناس فإياك ومخالطة الأمراء ويقال لك: تشفع وتدفع عن مظلوم أو ترد مظلمة فإنه من خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك العلماء سلمًا للقرب منهم واصطياد الدنيا به. وقال: لو لم أعلم لكان أقل لحزني.

وقال: ليس طلب الحديث من عدة الموت، لكنه علة يتشاغل به.

وقال: لولا أن للشيطان فيه نصيبًا ما ازدحمتم عليه -يعني العلم-.

وقال: ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول: لا إله إلا الله.

وقال: إذا رأيت رجلاً يعمل عملاً اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه.

وكتب إليه أحدهم عظني وأوجز. فقال: الدنيا غمها لا يغني وفرحها لا يدوم وفكرها لا ينقضي، فاعمل لنفسك لتنجو، ولا تتوان فتعطب والسلام. وكان إذا قعد للعلم وأعجبه منطقه قطع الكلام وقام ويقول: أُخذنا ونحن لا نشعر.

=

وقال وقد طلبوا منه التحديث: والله ما أرى نفسي لإملائه أهلاً، ولا أنتم لسماعة أهلاً. وما مثلي ومثلكم إلا كما قيل: افتضحوا فاصطلحوا. وترك الجلوس للعلم فعوتب، فقال: لو علمت أنهم يريدون وجه الله لأتيتهم في بيوتهم، لكن إنما يريدون المباهات.

وقال: إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإذا ولد له انكسر المركب.

وقال: شأن العاقل ألاّ يزاحم غيره على الدنيا إذا كفاه غيره.

وقال: قال رجل لعيسى عليه السلام: أوصني، قال: انظر رغيفك من أين هو.

وقال: رضا المتجنى عليك غاية لا تدرك.

وقال: عليك بالرضا عن الله إذا منعك ما طلبت، فإن منعه عطاء.

وقال: أحب لطالب العلم كونه في كفاية؛ فإن الألسن تسرع إلى الوقيعة فيه إذا احتاج وذل.

وقال: أظلم الظالمين لنفسه من قبل مدح من لا يعرفه وهو عرف من نفسه ضد ذلك.

وقال: أئمة العدل خمسة: الخلفاء الأربعة وابن عبد العزيز –رضي الله عنهم– ومن قال غير ذلك فقد اعتدى.

وقال لرجل يخدم الولاة: ابعد عنهم، قال: ما أصنع بعيالي؟ قال: ألا تسمعون هذا يقول إنه إذا عصي الله رزق عياله وإذا أطاعه ضيعهم!.

وقال: لا تقتدوا بصاحب عيال؛ فقلما سلم من تخليط.

وقال: حجة كل متهور في أكل الحرام والشبه قوله عيالي.

وقال: لو أن رجلاً عبد الله بعبادة الثقلين وهو يحب الدنيا نودي عليه يوم القيامة على رءوس الأشهاد: هذا أحبَّ ما أبغض الله.

وقال: أمسك ما بيدك من المال بنية الإنفاق لا يضرك ذلك، فإن من احتاج للناس لابد أن يبذل لهم دينه.

وقال لأخ له: أبلغك شيء مما تكره عن من لا تعرف؟ قال لا قال: فأقلل من معرفة الناس؛ فإن معرفتهم ما أبقت لي حسنة.

وقال: ما رأيت للإنسان خيرًا من أن يدخل جحره فقال يونس: اليوم ينبغي أن يدخل قبره.

وقال: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة لأن الرجل يزهد في المال ويسلمه إذا نوزع، وإذا نوزع في الرئاسة لا يسلمها.

وقال: إياكم أن تدخلوا لصلاة وأنتم في حال ينافي الخشوع، فإن من لم يخشع في صلاته فسدت.

=

وقال: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، وكانوا يخرجون إلى الجبال ويتضرعون فلا يقبل منهم، فأوحى الله إلى أنبيائهم، لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكل ألسنتكم من الدعاء والتضرع لا أجيب لكم داعيًا ولا أرحم منكم باكيًا ما لم تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم.

وقال: لا تصحب من يتكرم عليك في السفر؛ فإنك إن ساويته في النفقة أضر بك، وإن تفضل عليك استعبدك.

وقال: نظرت مرة للسماء ففقدت قلبي فذكرته لأخ لي فقال: لكونك لم تنظر إليها نظر اعتبار.

وقال: عرفت نفسك فلا يضرك ما قيل فيك.

وقال: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

وقال: إذا رأيت أخاك حريصًا على أن تقدمه فأخره.

وقال: الزم نفسك ألا تضع لبنة على لبنة.

وقال: ابعد عن القراء الذين يحبون الدنيا فوالله ما نازعت قارئًا في شيء إلا خفت أن يسعى في سفك دمي.

وقال: إذا كان لك عند قارئ حاجة فلا تذكر عنده أحدًا من أقرانه بخير؛ فأنه لا يقضي حاجتك.

وسئل عن الغوغاء فقال: الذين يطلبون بعملهم الدنيا.

وقال: إياكم وكثرة الإخوان؛ فأنه من رقة الدين.

وقال: من عرف الله تحقق في التوكل وتشوق إلى التنقل.

وقال: التوكل هدوء الضمير عد هجوم التقدير.

وقال: من رأي نفسه على أخيه علمًا أو عملاً حبط أجر عمله وعلمه.

وقال: إن الملائكة لتجد ريح الحسنة أو السيئة إذا عقد القلب على ذلك، فكما لا يؤذونك لا تؤذهم.

وقال: كثرة النساء ليس من الدنيا؛ لأن عليًا كرم الله وجهه كان من أزهد الصحب أو أزهدهم وله أربع نسوة وتسع عشرة سرية.

وقال: تعرف محبة الرجل للدنيا بكثرة تعلقه لأهلها وتفقدهم إذا غابوا.

وقال: إذا رأيتم جيران فقيه يحبونه فاعرفوا أنه مداهن. وكان شديد على الولاة جدًا، لا يخاف

=

فقال له: تعرف لِم أتقدَّم؟

فقال: نعم: أفعل لأؤثر أصحابي بحياة ساعة، فتحيَّر السيَّاف من كلامه، فعرض ذلك على القاضي الحاضر في ذلك الجمع، فطلب الثوري ليحضر عنده، وألقى عليه مسائل غريبة من الفقه، فنظر الثوري إلى يساره، ثم إلى يمينه، ثم إلى صدره، فأجاب بأجوبة بديعة، فسأله القاضي عن الحكم في نظره المذكور، ثم إجابته بعد ذلك.

فقال له: لما ألقيت عليَّ المسائل؟ لم يكن عندي جوابها، فسألت ملك الشمال فلم يكن عنده علم، فسألت ملك اليمين فلم يكن عنده علم أيضًا، فسألت قلبي فأفتاني قلبي عن ربي.

فقال القاضي حينئذ: إن كان هؤلاء زنادقة فليس على وجه الأرض مسلم، وأذعن لعلو مرتبتهم، وأكرمهم غاية الإكرام.

=
في الله لومة لائم. دخل عليه المهدي وبيده درج أبيض، فقال يا سفيان، أعطني الدواة لأكتب، قال: أخبرني أي شيء تكتب، فإن كان حقًا أعطيتك.

ولما خرج المنصور للحج بعث أمامه يقول: إذا رأيتم الثوري فاصلبوه، فجاء الخبر وهو نائم بالمسجد رأسه في حجر الفضيل بن عياض ﷺ ورجلاه في حجر بن عيينه ﷺ، فقالوا: اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء واختف، فاستوى قاعدًا.

وقال: برئت من هذه البنية أن هو دخلها. فمات قبل دخوله مكة. مات سفيان ﷺ بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة عن ست وستين سنة.

قال ابن مهدي: غسلته أنا ويحيى بن سعيد يوم مات، فوجدت مكتوبًا في جسده فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. وقد أفرد ابن الجوزي وغيره مناقبه بتآليف حافلة. وروى الثوري بإسناده عن قبيصة قالت: رأيته في النوم فقلت: ما فُعل بك؟ فقال:

نظرتُ إلى ربي كفاحًا فقال لي ... هنيًا رضاي عنك يا ابنَ سعيد
لقد كنتَ قوامًا إذا أظلم الدُّجى ... بعبرةِ مشتاقٍ وقلبِ عميد
فدونك فاختر أي قرب أردتَّهُ ... وزرني فإني منك غيُر بعيد

وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (١٠٦).

ولا تستغرب يا أخي مثل هذا الأمر من قلوب انجلت مرآها من صدأ الأغيار، ولم يبقَ فيها إلاّ ذكر العزيز الغفّار، ففرِّغ قلبك أيُّها السالك من الأغيار، تملأه من المعارف، لا تستنبط منه النوال؛ ولكن استنبط من نفسك وجود الإقبال كما قيل:

خَلّص القلبَ إنْ أردتَ لقائَنا والزمْ الفقرَ إنْ أردتَ غذائَنا
لا تُفرَّج عَلى سِوانَا بِوجهٍ واْتركْ الكلَّ إنْ أردتَ عُلانَا
والزمْ البابَ بُكرةً وأصيلاً واتركْ النَّوم وانعكفْ بِحمَانَا

فيا مَن يطلب هذه الفضائل؛ لازم الباب في البكور والأصائل؛ تذق حلاوة المناجاة، ويزول عنك النوم، وتذهب عنك الغفلات، كما قال رضي الله عنه:

١٧- مَن رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم.

قال الشاعر:

حرامٌ عَلى عَيني لَذيذٌ مَنامُهَا إذَا كَانَ مَن أهْواهُ لَيسَ بِنائِمِ

فأيقظ نفسك أيُّها السالك في الدنيا، واغتنم مسامرة ملك الملوك، وناجي واسمع ما قال ﷺ في التشويق لإحياء الثلث الأخير من الليل: «**ينزل ربنا إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ هل من تائبٍ فأتوب عليه؟ هل من سائلٍ فأعطيه؟**»[1].

فيا راقدًا في غفلاته كيف يطيب لك المنام، وأنت تسمع هذا الكنز من سيد الأنام؟ واسمع ما قال بعض الأئمة الأعلام:

إذَا هجعَ النوَّام أُسبلَت عبرتِي وأنْشدتُ بيتًا وهُو مِن أحسنَ الشعرِ
ألَيْسَ مِن الُخسرانِ أنَّ ليالِيًا تمرُّ بلا نفعٍ وتُحسبْ مِن عُمري

فاغتنم الأوقات، ولا تضع ما بينك وبين مولاك؛ فتبوء بالخسران.

كما قال رضي الله عنه:

---

(١) رواه الإمام البخاري (١/٣٨٤)، ومسلم (١/٥٢١)، وأبو داود (٢/٣٤)، والترمذي (٥/٥٢٦)، والنسائي (٦/١٢٤)، بنحوه.

١٨- مَن ضيَّع [ما بينه وبين الله](١) فهو جاهلٌ، ومَن قَصَّر عنه فهو عاجزٌ.

أي مَن قصر في معاملته القلبية، وخدمته القالبية فيما بينه وبين الله تعالى؛ فهو جاهل بالمقصود من خلقه؛ إذ لم يخلقه سبحانه وتعالى إلاَّ لعبادته، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، فمَن جهل معنى هذه الآية بأن لم يعمل بمقتضاها، وإن فهم صريحها وفحواها؛ فقد ضيَّع ما بينه وبين الله تعالى، وباء بالحسرة والخسران يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ أوَّاه.

ومَن قصر عنه بأن لم يخلص في الأعمال، ولم يزكها بطهارتها من الشرك في الأفعال والأقوال؛ فهو عاجز قاصر عن منازل الرجال، منحط في أرض طبيعته، خاسر في العاجل والمآل.

فأصلح يا أخي ما بينك وبين مولاك؛ تظفر بالسعادة الأبدية، وتَكنْ من أعظم النُّسَّاك.

قال ذو النون ﷺ(٢): كان السلف ﷺ يتواصون بثلاثة وصايا:

---

(١) في نسخة (حكمة وقته).

(٢) هو الشيخ الزاهد شيخ الديار المصرية ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي يكنى: أبا الفيض ويقال: أبا الفياض، ولد في أواخر أيام المنصور.
وروى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وسالم الخواص وسفيان بن عيينة وطائفة. وعنه أحمد بن صبيح الفيومي وربيعة بن محمد الطائي ورضوان ابن حميد وحسن بن مصعب والجنيد بن محمد الزاهد ومقدام بن داود الرعيني وآخرون. وقال ابن يونس: كان عالمًا فصيحًا حكيمًا.
وقال السلمي: حملوه على البريد من مصر إلى المتوكل ليعظه في سنة ٢٤٤ هـ.
وكان إذا ذكر بين يدي المتوكل أهل الورع بكى.
وقال يوسف بن أحمد البغدادي: كان أهل ناحيته يسمونه الزنديق فلما مات أظلت الطير جنازته فاحترموا بعد قبره.
وعن أيوب مؤدب ذي النون قال: جاء أصحاب المطالب ذا النون، فخرج معهم إلى فقط وهو شاب، فحفروا قبرًا فوجدوا لوحًا فيه اسم الله الأعظم، فأخذه ذو النون وسلّم إليهم ما وجدوا.
قال يوسف بن الحسين الرازي: حضرت ذا النون فقيل له: يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك؟ قال: نمت في الصحراء ففتحت عيني فإذا قنبرة عمياء سقطت من وكر فانشقت الأرض فخرج منها =

سكرجتان ذهب وفضة في أحدهما سمسم وفي الأخرى ماء فأكلت وشربت فقلت: حسبي فتبت ولزمت الباب إلى أن قبلني.

قال السلمي في محن الصوفية: ذو النون أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم وهجره علماء مصر وشاع أنه أحدث علمًا لم يتكلم فيه السلف وهجروه حتى رموه بالزندقة، فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق فقال: ومالي سوى الإطراق والصمت حيلة ووضعي كفي تحت خدي وتذكاري.

قال محمد ابن الفرخي: كنت مع ذي النون في زورق، فمر بنا زورق آخر، فقيل لذي النون: إن هؤلاء يمرون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر، فقال: اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين فغرقهم فانقلب الزورق وغرقوا فقلت له: فما بال الملاح؟ قال: لم حملهم وهو يعلم قصدهم، ولأن يقفوا بين يدي الله غرقى خير لهم من أن يقفوا شهود زور، ثم انتفض وتغير وقال: وعزتك لا أدعو على أحد بعدها ثم دعاه أمير مصر وسأله عن اعتقاده فتكلم فرضي أمره وطلبه المتوكل، فلما سمع كلامه ولع به وأحبه.

قال علي بن حاتم: سمعت ذا النون يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق.

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول: مهما تصور في وهمك، فالله بخلاف ذلك. وسمعته يقول: الاستغفار جامع لمعان أولها: الندم على ما مضى، الثاني: العزم على الترك، والثالث: أداء ما ضيعت من فرض لله، الرابع: رد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها، الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت على الحرام، السادس: إذاقة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

وعن عمرو بن السرح قلت لذي النون: كيف خلصت من المتوكل وقد أمر بقتلك قال: لما أوصلني الغلام قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في ديلج الرياح ديلجات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات إلا وهي عليك دليلات ولك شاهدات وبربوبيتك معترفات وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تجير بها من في الأرضين والسماوات إلا صليت على محمد وعلى آل محمد وأخذت قلبه عني فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض.

وقال يوسف بن الحسين: حضرت مع ذي النون مجلس المتوكل، وكان مولعًا به يفضله على الزهاد، فقال: صف لي أولياء الله؟ قال: يا أمير المؤمنين هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبته وجللهم بالبهاء من إرادة كرامته، ووضع على مفارقهم تيجان مسرته، فذكر كلام طويلاً.

ومن **كلامه أيضًا**: قال: إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا، أو تكون بالزهد محترفًا، أو تكون بالعبادة متعلقًا.

وسئل ما أخفى الحجاب وأشده؟ قال: رؤية النفس وتدبيرها.

وسئل عن المحبة؟ فقال: أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله في الدين.

الأولى: مَن أصلح ما بينه وبين الله تعالى؛ أصلح الله ما بينه وبين الناس.

الثانية: مَن أصلح سريرته أصلح الله له علانيته.

الثالثة: مَن أصلح آخرته أصلح الله أمر دنياه.

وقال بعض العارفين: إذا أصبح الناس، فهم أقسام ثلاثة:

فأرباب الأموال ينظرون إلى أموالهم هل زادت أو نقصت؟

وأرباب الأعمال ينظرون إلى أعمالهم.

وأرباب القلوب ينظرون إلى قلوبهم هل هي معمورة بمولاها أو هي خاوية؟.

فلا تنظر يا أخي في كل صباح إلاَّ إلى ما نظر إليه هؤلاء العارفون من أهل الفلاح.

وما أحسن ما قيل:

ولقدْ جَعلْتكَ فِي الفؤادِ محدِّثي وأبَحتُ جِسمِي مَن أرَادَ جُلوسِي

=

وسُئل عن الصوفي؟ فقال: من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق.

وكان يقول: الأنس بالله من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله.

وقال: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصفو، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته.

وقال: لم أر أجهل من طبيب يداوي سكران في وقت سكره لن يكون لسكره دواء حتى يفيق فيداوى بالتوبة.

وقال: لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة، لأنه إذا خلا لم ير غير الله تعالى، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص واستمسك بركنٍ كبير من أركان الصدق.

وقال: من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه.

وقال أيضًا: إذا صحَّ اليقين في القلب صحَّ الخوف فيه.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (٩/٣٣١)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/٣٤٧)، وطبقات الشعراني الكبرى (١/٨١، ٨٤)، والرسالة القشيرية (١٠)، وصفة الصفوة (٤/٢٨٧).

والجسمُ مِنِّي للجليس مُوانِي وحبيبُ قَلبي فِي الفُؤادِ جَلِيسِي

فلا تجعل أنيس قلبك إلاَّ مولاك، ولا تقصد في حضرك وسفرك إلاَّ من غمرتك نعمه من أولاك وأخراك، ما بذل الجهد في السفر إلى هذه الحضرة، واغتنم الوقت قبل يوم الحسرة، كما قال:

١٩- اجعل الصبر زادك، والرضا مطيَّتك، والحقَّ مقصدك ووجهتك.

شرع ﷺ يبيِّن لك أسباب سفر الطريق، ويوضح آدابه، فالزاد في هذه الطريق هو الصبر، فمَن لا صبر له لا زاد له، ومَن لا زاد له قطعته المجاعة، ونزع عنه الخدمة، ولم يستقم في الطاعة.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر:١٠].

وقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران:٢٠٠].

كما قيل:

الصَّبْرُ مِفتَاحُ مَا يُرجَى وكُلُّ خَطبٍ بِهِ يَهُونُ
فَرَبَّمَا نِيلَ بِالتَّانِي مَا قِيلَ هَيهَاتَ ولا يَكُونُ

والمطيَّة هي: الرضا، وهي أسرع المطايا، وأوصلها إلى المقصود، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المائدة:١١٩].

فنبَّه تعالى أن الرضا من العبد ناشئ من رضاه؛ إذ لو لم يرضَ عن عبده، ويتجلَّى عليه بصفة؛ لم يمكن العبد أن يتخلَّق بصفة الرضا، ومَن رضي عنه مولاه؛ كيف لا يقطع الطريق بسرعة، وينال ما يتمناه، والقصد والقبلة هو الله تعالى: ﴿**قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذرهمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١].

قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله**»[١][٢].

---

(١) رواه البخاري (١/٣٠)، ومسلم (٣/١٥١٥)، وأبو داود (٢/٢٦٢).

(٢) **فائدة في شرح هذا الحديث العمدة**: قال سيدي إسماعيل حقي: هذا بإطلاقه شامل لجميع

فلا تفقد نيّة همّتك يا أخي إلى غيره، فالكريم لا تتخطّاه آمال الطالبين، لا ترتحل من كون إلى كون؛ فتكون كحمار الرحى يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه، ولكن ارتحل من الأكوان إلى الكون.

ولله در القائل:

ولا تَلْتفـــتْ فِي السَّيرِ غَيْرًا فكلَّما   سِوى اللهِ غَير واتَّخذ ذِكْرَهُ حِصْنَا

=

الأعمال وسائل كانت؛ كالوضوء، والسعي إلى الجمعة ونحوه ذلك، أو مقاصد؛ كالصلاة، واستماع الذكر يوم الجمعة وغير ذلك حتى أن التوحيد من حيث إنه ذكر لساني، وعمل جارجي لا بد له من النية، وقال العلماء: ما كان من قبيل الوسائل لا يحتاج إلى النية، فلو لم يُنوَ عند الوضوء لرفع الحدث، وإقامة الصلاة؛ صح وضوءه بخلاف ما كان من قبيل المقاصد؛ كالصلاة فإنه لا بد من النية؛ ليكون صحيحًا مقبولاً.

فصحة الصلاة المستصحبة بالنية مستلزمة لصحة الوضوء، ونيتها سارة لنيته؛ بمعنى أن نيته الشرط والمشروط نية واحدة.

وقال العرفاء: لا بد من استحضار الحق تعالى في مباشرة العمل المشروع فيه مطلقًا؛ فإنه روح ذلك العمل وسرد، فكما أن البدن لا يقوم إلا بالروح، فكذا العمل لا يقوم إلا بالنية، واستحضار الحق على أن قد يدخل الرياء في العمل، فلا بد من النية؛ ليخلص لله تعالى.

وللعارفين شأن عجيب في باب النية: فإن نيتهم دفعية كلية سارية في مراتب جميع الأعمال، فليس لهم عمل بلا نية أصلاً، إذ هو ذهول عن الحق، وكيف يذهل عن الحق مَن ودُّوا حقه، والذين هم في صلواتهم دائمين، فدوام الشهود يغنيهم عن استصحاب النية الخاصة في كل خاص على أن الوضوء قد يكون قربة مشروعة مستقلة، كما دلَّ عليه ﷺ: «دم على الطهارة؛ يوسع عليك الرزق» .

فقد يلزم الطهارة في وقت، والصلاة غير مشروعة فيه، فعليك بالقربات، والدرجات، والصعود إلى المراتب العالية بخلوص النيات.

واعلم أن متعلّق نية الخواص: هو الحق تعالى؛ فهم محسنون متقون مقربون، ولهم النور التام يوم القيامة.

وإن متعلّق نية العوام: هو فضل الله ورحمته، فهم عاملون أبرار مقربون، ولهم الأجر التام يوم القيامة، ومقام الأولين: جنة عرضها السماوات والأرض؛ لاتساعهم وانشراحهم قلبًا وصدرًا، ومقر الآخرين: جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لمتابعتهم العلوم أو سالتهم الدموع، فأين الأجير المحجوب من المحسن المحبوب؟ فعليك بإعراب المطلوب. وانظر: مرآة الحقائق (ص٤٣٩) بتحقيقنا.

ومَهمَـــا تَرَى كُلَّ المقامات تَجتلِي عَلَـــيْكَ فحلْ عَنها فَعنْ مثلهَا حلنَا
وقُل لَيسَ لِي فِي غَيرِ ذَاتِك مَطلبُ فَلا صُورة تُجلَى ولا طُرفَة تُجنَى

فيا طالب هذا المقام العالي جد في السير واحذر من التواني، كما قال ﷺ:

٢٠- مَن تعلَّق بوعد الأماني لم يُفارق التَّواني.

بيَّن ﷺ إن الطريق إنما هو عمل واجتهاد، وترك تعلُّق بوعود الأماني، وسلوك سبيل السداد، فمَن لم تكن له قومة لم تكن له قعدة.

قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩]، فدلَّ على أن الهداية من ثمرة المجاهدات، ومَن لازم الخدمة حلَّت عليه العنايات.

جاء إنسانٌ إلى النبي ﷺ فقال: أوصني يا رسول الله، فقال له: «**قُلْ: آمنت بالله، ثم استقم**»[١].

فلم يأمره بشيء بعد الإيمان بالله بغير الاستقامة؛ لأنها الجامعة لأشتات السعادة، فمَن استقام فقد حاز كل مقام.

فلذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـــزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ إلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ*نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ*نُـــزلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠: ٣٢].

فانظر يا أخي إلى هذه الكنوز التي أعدَّها الله لصاحب الاستقامة، وما بشَّره بها من الخيرات التي هي عند العارفين أعظم كرامة.

فلذلك قال في الحكم العطائية: مطلبُ العارفينَ منَ الله الصدقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحقوقِ الرُّبوبيَّة[٢].

---

(١) رواه النسائي (٦/٤٥٨)، وأحمد (٣/٤١٣).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: المطلب مصدر بمعنى المفعول، أو اسم مكان أي مطلوب العارفين

ومقصودهم أو محل قصدهم ومحل نظرهم. إنما هو تحقق الصدق في العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية. إذ المكاتب عبد ما بقي عليه درهم. فما دام العبد مسجونا بمحيطاته محصورًا في هيكل ذاته لا تنفك عنه الحظوظ. إما دنيوية أو أخروية، فلا تتحقق عبوديته لله، وفيه عبودية لحظوظه وهواه، فلا يكون صادقًا في عبوديته، وهو مملوك لحظ نفسه، فإذا قال أنا عبد الله نازعته حظوظه وهواه، فلا تتحقق عبوديته لله حتى يتحرر من رق الأكوان، ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان، فحينئذ يكون سالمًا لله، حرًّا مما سواه. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، أي متخاصمون: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر:٢٩]، أي لا يستويان أبدًا إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك، وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه.

وقال رسول الله ﷺ: «تَعسَ» أي خاب وخسر: «عبدُ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ والخَميصَةِ إذا أُعْطِيَ رَضِيَ، وإذا لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ، فلا انْتَقَشَ» أي إذا أصابته شوكة، فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها، وهو دعاء على من حظه هواه بالتنكيس، وعدم الخروج مما يقع فيه.

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: شتان بين من همه الحور والقصور، وبين من همه الحضور ورفع الستور انتهى.

ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقق بالعبودية لمولاهم، بالتحرر من رق هواهم، والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم والإجلال لمولاهم، وهما متلازمان، فمهما تحقق الصدق في العبودية إلا حصل القيام بوظائف الربوبية، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح، وإذا حييت الروح عرفت، وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية، وهو مراد العارفين ومقصود السائرين، ومحط نظر القاصدين والطالبين. قيل لبعضهم: ما مراد العارف؟ قال: مراد معروفه انتهى. أي لا يريد إلا ما أراد سيده ولا يتمنى إلا ما يقضيه عليه مولاه، وقيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله فهذا يتحقق للعارف فناؤه، وبتحقيق فنائه يتحقق بقاؤه أي بقائه مع مولاه، والله تعالى أعلم.

فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهره بالنهوض إلى كمال الطاعات والحزن على ما سلف من الغفلات، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده والفناء في شهوده،

وقال أيضًا: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك، إن أردت أن تعرف قدرك عنده، فانظر في ماذا أقامك.

فاحرص يا أخي على الاستقامة، والتوجُّه إليه، ولا تجنح بهمتك إلاَّ إلى كل ما يوصلك إليه.

كما قال ﷺ:

٢١- السالك ذاهبٌ إليه، والعارف ذاهبٌ فيه.

السالك ذاهبٌ إليه؛ لأنه في البداية، والعارف ذاهبٌ فيه؛ لأنه في النهاية.

فابتداء السالك من الأكوان، وانتهاء العارف إلى مقام الإحسان.

فالسالك سائر من عالم طبيعته إلى عالم الملكوت، ومنه إلى عالم الجبروت، ومنه إلى حضرة اللاهوت؛ حضرة تنمحي فيها العبارة والإشارة، وتذهب الأسماء والرسوم، ولا يبقى هناك مشهود إلاَّ الحيُّ القيُّوم، فإذا ظهرت شمس المعرفة ذهبت بقوم التفرقة، ولا يشهد المنتهى إلاَّ مولاه، ولا يظهر له فعل ولا وصف ولا وجود إلاَّ لله(١).

فيكون ظاهره قائمًا بوظائف العبودية، وباطنه متحققًا بحقوق الربوبية، ثم إذا أحس بإجابة المطلب وحصول المنى والمرغب فرح قلبه وانبسطت روحه، حيث شمت نسيم الإقبال وروح الوصال، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاها، فيخرجها منه إلى القبض ثم يرحلها عنهما إليه. وانظر: إيقاظ الهمم (شرح الحكمة: ٩٨).

(١) فيه إشارة إلى حال السالك، فإنه ينبغي له أن يزرع أرض وجوده، وتراب نفسه بما يمكن له من الأعمال الصالحة الشرعية، ويسقيه بماء الصدق والخلوص؛ لينتفع بها يوم لا ينفع مال من الصفات، ولا بنون من القوى، فإن لم يكن له معرفة بكيفية الإصلاح والزرع، ولم يقدر على ذلك؛ فليسلِّم نفسه إلى مَن يقدر عليه من أرباب الإرشاد، فإنه يعرف كيفية الزرع من جهة أعمال الشريعة، ومن جهة أحوال الطريقة إلى أن ينبت نباتًا حسنًا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾ [الأعراف: ٥٨].

وذلك أن أكثر السُّلاَّك قاصرون عن الاستفادة الروحانية، أو السرية من غير توسُّط واسطة، ونعني بالاستفادة الروحانية: أن يأخذ بالروح من روح بقدر الطاقة، وبالسرية: أن يأخذ بالسر من الله تعالى.

مَن عرف الله شهده في كل شيء، فلا يستوحش من شيء، ويستأنس به كل شيء، ويشهد معنى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨] عيانًا(١).

ويفهم معنى قوله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها لبيد**»، قول لبيد:

ألا كـــل شـــيء مـــا خـــلا الله باطلُ(٢)

وتشرق عليه لمعة من قوله تعالى: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣].

ويتحلّى بخلقه: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥]، ويرتفع عنه اشتباه معنى قوله عزَّ مَن قائل: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق:١٦].

ويسمع بالحق، ويبصر بالحق، وينطق بالحق؛ لأن الحق يكون حينئذ سمعه وبصره ولسانه، كما في الحديث القدسي: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمعُ به، وبصره**

=

فالاستفادة الأولى بلا واسطة جسم من الأجسام وهو نادر، والثانية بلا واسطة روح من الأرواح، وهو أندر، وعليه أُويس القرني رحمه الله، ومَن يتصل به في ذلك ونظيره في القرن الموسوي برخ الأسود؛ فإنه مثل أويس في هذه الأمة.

ويُقال: لأمثالهم الذاتيون، ولغيرهم الصفاتيون، ولكل منهم مشرب مخصوص، وما يقل: من أن أُويسًا، وبرخ الأسود كانا يأخذان من الأرواح بالقلوب، والأرواح بلا واسطة صحبه جسمانية، ومكالمة لسانية، فليس بمسلمٍ عند كُمَّل أرباب الحقائق، فانحصر السلوك في ثلاثة الأخذ بواسطة صحبة جسمانية، كما هو الغالب، والأخذ بواسطة صحبة روحانية كما هو النادر، والأخذ بلا واسطة شيء من روحاني وجسماني وهو الأندر.

(١) أي: كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل.

فجعل الوجه الذي يلي وجه الحق غير هالك؛ بل الحقيقة الإنسانية جامعة لوجهي الإطلاق والتقييد، فوجه الإطلاق؛ هو وجه عين وجه الحق في الحقيقة، ولولا هذا الوجه؛ ما عُرف الحق؛ إذ لا مناسبة بين الحق والخلق أبدًا.

(٢) رواه البخاري (٣/١٣٩٥)، ومسلم (٤/١٧٦٨).

الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به»(١).

والحاصل: إن العارف يصل إلى حالة يفنى فيها عن أفعاله وأوصافه وذاته، وهذا يُسمَّى جمعًا، ومع ذلك لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، ولا صحوه عن سكره، ولا سُكره عن صحوه(٢)، كما قال العارفين:

لَه لَدى الفرَقِ جمعٌ يسْتضِيء بِه كالفرقِ فِي جَمعِهِ مَا زَالَ يلقيه
فِي ريِّه ظمأٌ والصحوُ يُسكرهُ والوجدُ يُظهرهُ طُورًا ويُخفيهِ

ويوضح لك ثمَّة من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧].

فنفى عنه الرمي أولاً بقوله: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾ وهو عين الجمع، وأثبته ثانيًا بقوله: ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾، وهو عين الفرق، ثم قال: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾: أي أن الرمي منسوبٌ إلى الله تعالى إيجادًا، وإليك إسنادًا؛ وهذا هو حقيقة الجمع والفرق(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال سيدي علي وفا: العارف عين معروفه، والمحقق حقيقة ما حققه، وعلى قدر شهود الكمال والتكميل تكون محبة الشاهد لمشهوده، وعلى قدر صدق المحبة يكون تحقق المحب بمحبوبه، وعلى قدر التحقق يكون ظهور المتحقق بحكم ما تحقق به عينًا وأثرًا، ولكل مقام مقال. ولكل مجال رجال، ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [التغابن: ١١]، ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾ [فصلت: ٥٤].

وهو هو بما هو هو سيدي وربي، وهو مولاي وحسبي ليس إلا هو، يا مولاي، يا واحد. يا مولاي، يا دائم، يا علي، يا حكيم.

(٣) فجمع بين رميه ﷺ الذي يلي جانب الوجه التقييدي، وبين رميه تعالى الذي جانب الوجه الإطلاقي، فهذه هي مرتبة الجمع بين التخصيص والتشكيك، فغير العارف إذا شاهد هذا الرمي عن يد النبي ﷺ؛ أسنده إليه، وذلك شرك جدًا.

وأمَّا العارف الغير الكامل فيسنده إلى الله تعالى، وذلك إلحاد قطعًا.

وأمَّا الكامل فيسندد الظاهر إلى الظاهر، والباطن إلى الباطن.

فإن تأثير الرمي في الخارج لم يكن من الحقيقة الكونية التي تلي جانب الخلق؛ بل من الحقيقة الوجوبية التي تلي جانب الحق، فإذا كان النبي ﷺ جامعًا بين مرتبة الخلقية الكونية

فنسبة الأشياء إلى الله إيجادًا جمع، ونسبتها إلى مواضعها إسنادًا فرق، وهذا في فرق الأفعال وجمعها، وفوقه الفرق في الصفات وجمعها، وفوقه الجمع في الذوات وجمعها، ومَن لم يتحقّق بالفرق الأول وجمعه حالاً وذوقًا لا يفهم ثمة من الفرقين والجمعين الآخرين؛ ولكن مقام الإيمان يسع ذلك كله، فيؤمن السالك في البداية بما انكشف للعارفين في النهاية على ما فهموا من غير أن يخوض فيها بفهمه، وهذه ولاية صغرى، كما قال الجنيد ﷺ: التصديق بطريقتنا هذه ولاية صغرى(١).

فيا أيُّها المؤمن المصدِّق بهذه المقامات جانب الخلق، وعِد نفسك في الأموات.

=

التقييدية، وبين المرتبة الحقية الوجوبية الإطلاقية؛ فصحَّ أنه هو الرامي من وجه وأنه غير الرامي من وجه.

فهذا الأدب الإلهي نظر إليه الكُمَّل فحافظوا على المراتب، ولم يقولوا: أنا الرامي، أو أنا الحق مثلاً؛ بل جعلوا المرتبة الواحدية جُنة على المرتبة الأحدية، فستروا المناسبة الذاتية الأحدية في المغايرة الصفاتية الواحدية؛ فسلَّموا الأمر إلى الله تعالى، وسلموا عن الغوائل، رزقنا الله تعالى وإياكم حلاوة هذا المقام من طريق الذوق والشهود، لا من طريق العلم والشعور فقط.

والحاصل أن مرتبة: لا إله إلا أنا: مرتبة موسى عليه السلام؛ لأنه هو المنادى به من صورة الشجرة.

ومرتبة: لا إله إلا أنت: مرتبة يونس عليه السلام كما قال في بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

ومرتبة: لا إله إلا الله: مرتبة محمد رسول الله ﷺ.

وكذا مرتبة: لا إله إلا هو، فإن هذه المرتبة: أي مرتبة: لا إله إلا هو، وإن كانت مرتبة هود عليه السلام كما قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] فعبَّر عنه تعالى بالهُويَّة الغيبية السارية؛ لكن كونها مرتبته؛ إنما هو من طريق باطن الهُويَّة، وكونها مرتبة نبينا ﷺ؛ إنما هو من طريق ظاهرها وباطنها.

فظاهرها: لا إله إلا الله.

وباطنها: لا إله إلا هو.

فانظر كيف أُدِّب النبي ﷺ في التوحيد حتى قال ليلة المعراج حين ما دخل عليه تعالى: «أنا العبد لا إله إلا الله»، فأثبت العبودية والأُلوهية جميعًا، ومَن مشى على طريقة هذا الاعتبار؛ أمن العثار.

(١) انظر: الكواكب الدرية للمناوي (٥٧٨/١)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٢٢٩).

٢٢- الموت كرامة، والفَوت حسرة وندامة، الموت انقطاع عن الخلق، والفَوت انقطاع عن الحق.

الموت كرامة يكرم الله به عبده؛ لأنه انفصال عن الخلق، ومتى انفصل العبد عن الخلق اتَّصل بالحق.

كما قال بعض العارفين لَّما سُئل عن الطريق، فقال: فصل ووصل، متى انفصلت وصلت، متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به.

والفوت حسرة وندامة، يهيئ الله به عبده، ويبعده عن حضرته، ويستوجب به طرده.

فامت نفسك يا أخي حتى تحيى، وامتثل قوله ﷺ في وصف الصدِّيق: «**مَن أراد أن ينظر إلى ميتٍ يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر الصدِّيق**»(١).

فالحاصل: إن للموت موتان: موت اضطراري: وهو معروف، وموت اختياري: وهو الموت المعروف عند أهل الطريق، ولا يرى الحق إلاَّ مَن مات(٢).

---

(١) ذكره المقري في نفح الطيب (٥/١٦٤)، والشعراني في العهود المحمدية (ص٢٣٠) وقال: وإنما سماه رسول الله ﷺ ميتًا لأنه مات عن التدبير والاختيار مع الله تعالى، وسلم نفسه لمجاري الأقدار ولم يبق عنده نزاع لها.

فاسلك يا أخي على يد شيخ ليصير الموت نصب عينيك طبعًا من غير تكلف، فلا ترى إلا عاملاً بخير أو مستغفرًا من ذنب قد سبق على أيام السلوك لك والله تعالى هداك.

(٢) اعلم أن الموت في اصطلاح هذه الطائفة يطلق على أربعة أقسام: موت أبيض، وموت أسود، وموت أحمر، وموت أخضر.

فالأول: الجوع ويسمَّى موتًا أبيضًا؛ لأن صفاء القلب وبياضه ومرآته من قلة الأكل، كما أن قساوته وصدأه من كثرة الأكل.

والثاني: الصبر وتحمل الأذى؛ لأنه موت وعناء.

ويسمَّى أسود لشدته، ولحرمانه عن حظوظات النفس في هذا المقام.

والثالث: مخالفة النفس في غير ما أمره الله ونهاه، ويسمَّي أحمر لاحمرار وجه قلبه لحياته بالحياة الأبدية، وفي هذا المقام يحل له السماع من وجوه الأول موت النفس عن الصفات الذميمة.

ومن هنا إذا يموت واحد منهم يعملون السماع في عرسه، والثاني تهنئة القلب لازدواجه بالمعاني

=

الغيبية، ومعاقدته الصفات الحميدة والسماع في إعلان النكاح سُنة.

قال النبي ﷺ: «أعلنوا النكاح ولو بضرب دف».

والثالث أن النفس لما فتحت لها عين ترى بها الحق، وحصل لها سمع تسمع به الحق بمقتضى الآية الكريمة: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨].

كل قول تسمعه في كسوة، وصوت مليح، ووزن موزون تفهم منه نداء (**ارجعي**) وتدرك ذوق خطاب (**ألست**) فيزيد منه شوقها إلى جانب الحق المطلق، ويكمل إعراضها عن الحق المقيد.

والرابع: القناعة والرضا بكلّ ما يُعطي إليه من اللذيذ وغيره والقليل وغيره والجديد وغيره ويسمَّى أخضرًا؛ لأنه في هذا المقام يخضر بستان عيشه، ويحصل له عيش جديد، فالسالك ينبغي أن يموت بالموتات الأربعة حتى يصير قابلاً للعروج في مدارج الملكوت، ومستعد للانتقال إلى الجبروت والعظموت واللاهوت والناسوت، فيشاهد الحي الذي لا ينام ولا يموت، وكان الفناء حينئذ مستلزمًا للمعرفة.

وهو ما يعرف بالموت الكلي: ومعناه الفناء في الحضرات الأربعة في ذات المتصف، وهذا عند الإطلاق يطلق عند المتصف مع مجموع الحضرات الموت؛ لأن الموت الأول نقلة وهذا الموت الكلى هو من حياة إلى حياة، فانتقل الشاهد بمجموع أوصافه من حياة التقييد إلى حياة الإطلاق لأنها تباين النقلة المعهودة المسماة بالموت في لسان العموم، وهذه نقلة تسمى فناء وهو البقاء الحقيقي بفناء الأشياء كلها، ولهذا قال: كلي لأن الكلّي لفظ ينطلق على المجموع فهذا كله في حال هذه النقلة الكلية يفنى أعيانها المتفردة وتبقى عيناً واحدة لذات واحدة تدرك صرف الإدراك الذي لا حجاب فيه وهذه صفة الإطلاق، ومنها يأخذ في التقييد ويعود الحضرات في حقه كالحال الأول عند الاتصاف لكنه مادام في مقام الإطلاق لا ينطلق عليه المذكور إلى أنقضاء آن آخر، فكأن الحضرات جمعت لهذا الشاهد في حال قوله جزئ وشهد فيها صورة الموت في الظاهر وصورة التمايز العلمي في الأولية وصورة الكمال في الباطن وصورة الإقرار في الآخر عند نقلة الكاملين من الباطن، فلما اتصف بها فنيت أعيانها في ذاته فانطلق عليها الموت لزوال عيانها وعلى الشاهد ففناء هذه الأعيان هو الكليّ المعبرَّ عنه، ومنه يقول الكامل: قد أعطيت سر الحياة من قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، فلما ذكر الكل وجب أن يكون فناء أعيانها الظاهرة وبقاء ذاته الحقيقية، فعند اتصاف الشاهد بهذا الاسم يطلق على نفسه التسمية بالسر المذكور لأنه فني كل شيء في ذاته.

ويعبِّرون عن الموت بالفناء؛ وهو الخروج عن الأوصاف البشرية بترك الاختيارات والإرادات، والتدبيرات والشهوات؛ إذ الميت لا إرادة له، ولا اختيار ولا تدبير، فمَن خرج عن إرادته وتدبيره واختياره، وحوله وقوته خرج عن نفسه، وهي أقرب الخلق إليه، ودخل في إرادته تعالى وتدبيره واختياره وحوله وقوته، وكان ذلك عين وصوله إليه؛ ولذلك قال:

وَلتفنَ حَتى عَن صِفاتِك أنَّه عَيْنَ البقاءِ فَعندَ ذَاكَ تَراهُ

وقال آخر:

وافنِ إنْ شِئتَ فَناءً سَرمدًا إنَّ الفَناءَ يُدني إلى ذَاكَ الفَناءِ

[قال الشيخ ﷺ: **التسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام وترك الشفقة عليها من الطوارق والآلام**] (١).

فيا مَن يتطلّع إلى مقامات أهل الفناء عليك بالتسليم في جميع أمورك؛ تذوق كأس الهناء، كما قال ﷺ.

إذا علمت يا أخي أن الحق تعالى عالم بأحوالك، قادر على كفايتك، أرحم بك من أبيك وأمك ومنك عليك، ومازجت لحمك ودمك هذا المقام، وتجرَّعت مرارته كما بتجرُّع كؤوس المدام، وأنشدت بلسان حالك وأنت سالكٌ في هذه المسالك:

وَلَيْتكَ تَحلُو والحَياة مَريرةٌ وَلَيْتكَ تَرضَى وَالأَنامُ غِضابُ
وَلَيتَ الَّذي بَينَكَ وَبَيني عامرٌ وَبَيني وَبَينَ العَالمينَ خَرابُ
إذَا صَحَّ مِنكَ الودُّ يَا غَايَةَ المُنَى فَكلُّ الذِينَ فَوقَ التُّرابِ تُرابُ

وانظر إلى وصيته ﷺ لذلك الذي استوصاه، فقال له: أوصني يا رسول الله، فقال له ﷺ: «**لا تغضب**».

ثم قال له: أوصني، فقال له ﷺ: «**لا تغضب**»(٢).

كرر عليه ذلك ليرشده إلى حلاوة ما هنالك؛ يعني: تحقَّق بمقام الرضا والتسليم،

(١) سقطت هذه الحكمة من نسخة الشرح، واستدركناها من «البيان والمزيد» (ص٢٠).
(٢) رواه البخاري (٥/٢٢٦٧)، والترمذي (٤/٣٧١).

واكرع من بحار هذا الشهود، وأقم في التنعيم، ولا تشهد في كل شيء إلاّ مولاك، ولا تعاين في السراء والضرَّاء إلا نعم من أولاك، فإنه متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجه لطفه عليك، فأنَّى يبقى القطب مع هذه المشاهد، وأنَّى تحضر الهموم مع الوصول إلى هذه المقاصد.

فلله در صاحب الحكم العطائية حيث قال: النعيم وإن تنوعت مظاهره؛ إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم، ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان.

فإن أردت يا أخي الوصول إلى هذه المنازل فاتَّبع ما قاله ﷺ:

٢٣- احرص أن تُمسي وتصبح مسلمًا أو مؤمنًا[١]؛ لعله ينظر إليك فيرحمك.

احرص أن تصبح مسلمًا بانقيادك للشريعة، ومؤمنًا باتِّباعك للطريقة؛ لعله ينظر إليك حيث تأهَّلت لذلك بإصلاح مواضع نظره، فيرحمك بتنزُّل فيوض رحمته، فيغنيك بهاطل مطره.

فلا تكن همَّتك أيُّها السالك إلاَّ إصلاح ما ظهر منك وما بطن، وامتثال ما أمرك به مولاك في كل وطن، فزيِّن ظاهرك بملابس الشريعة، واحرث أرض قلبك بآداب الطريقة تنصبُّ عليك أمطار الحقيقة، ويصير قلبك محلاًّ للنظر إلى الحق وتجلّيَاته، وموضعًا لتنزُّل فيوضه، وعظيم عناياته كما قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢].

فلا تكن همَّتك أيُّها السالك إلاَّ إصلاح مواضع نظره، وأعرض عن الدنيا المذلّة المعوِّقة للطالب عن قضاء وطره.

كما قال الشيخ ﷺ:

٢٤- مَن اشتغل بالدنيا ابتلي بالذلّ فيها.

سأل شخصٌ النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته أحبَّني الله، وأحبَّني الناس؟

---

(١) في البيان: (مفوضًا مستسلمًا).

(٢) رواه مسلم (١٩٨٧/٤).

فقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[1].

واعلم يا أخي أن المقسوم لك منها لا ينقص بطلبها، وغير المقسوم لا ينالك بطلبها فلم تعرض عن خدمة مولاك، وتقبل على طلبها، وقد قال لك مولاك: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]: أي انقطع إليه انقطاعًا كاملاً، وأي همٍّ يبقى لك يا أخي في طَلب الدنيا، وقد تضمن الله لك الرزق، ورفع عنك مشقة الطلب، فاجتهادك فيما ضُمن لك، وتقصيرك فيما طُلب منك؛ دليل على انطماس البصيرة منك، وأرح نفسك من التدبير، فما قام به عنك؛ لا تقم به أنت لنفسك.

قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه[2]: لو أقسمت على الله بالنبيين والصدِّيقين أن

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٧٣/٢)، والطبراني في الكبير (١٩٣/٦).

(٢) هو العالم بالله تعالى: سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبَّار الشاذلي رضي الله عنه، شيخ الطائفة العلية الشاذلية، وينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، العَلَمْ المشهور، وشهرته بالولاية والصلاح تغني عن تعريفه، أُلفَ الكثير من الكتب في مناقبه، والتعريف بشيء من سيرته الزكية، ومن أجلّ تلك الكتب ((**لطائف المنن**)) للشيخ ابن عطاء رضي الله عنه، و«**المفاخر**» للشيخ ابن عياد، وتعطير الأنفاس للوفائي.

وكان العز بن عبد السلام ينكر على القوم حتى اجتمع به فصار واحدًا منهم، شَهِدَ له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية، وكان الشيخ ابن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي.

فكان رضي الله عنه كبير المقدار، عالي المقام، له عبارات فيها رموز فوق ابن تيمية سهمه إليه فيرده عليه، وصحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وابن مشيش وغيرهما، وحجَّ مرات، ومات بصحراء عيذاب قاصد الحج، ودُفن هناك في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة، وقد ترجمه الشيخ تاج الدين بن عطاء في لطائف المنن بأنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل الأعيان، حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع، أبو الحسن الشاذلي جاء في هذا الطريق بالعجب العجاب.

=

=

كان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي.

وكان يقول: لقيت الخضر عليه السلام في صحراء عيذاب، فقال: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحبًا في المقام والرحيل.

ومن كلامه: عليك بالاستغفار، وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار النبي ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترف ذنبًا قط، وتقدَّس عن ذلك فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب في وقت من الأوقات.

وكان يقول: إذا كثر عليك الخواطر والوساوس فقل: سبحان الملك الخلاَّق: ﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠].

وكان يقول: لا تجد الروح والمدد، ولا يصح لك مقام الرجاء حتى لا يبقى في قلبك تعلق بعلمك، ولا بجدك واجتهادك، وتيأس من الكلِّ دون الله تعالى.

وكان يقول: إذا ثقل الذِّكر على لسانك، وكثر اللغو من مقالك، وانبسطت الجوارح في شهواتك، وانسد باب الفكرة في مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكمون إرادة النفاق في قلبك.

وكان يقول: ارجع عن منازعة ربك تكن موحدًا، واعمل بأركان الشرع تكن سنيًّا، واجمع بينهما تكن محققًا.

وكان يقول: قيل لي ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيوخ عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلس في الحقائق أبهى من مجلسك.

وكان يقول: من أحبَّ ألا يعصى الله تعالى في مملكته، فقد أحبَّ ألا تظهر مغفرته ورحمته، وألا يكون لنبيه ﷺ شفاعة.

وكان يقول: لا تشم رائحة الولاية وأنت غير زاهدٍ في الدنيا وأهلها.

وكان يقول: أسباب القبض ثلاثة: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو شخص يؤذيك في نفسك أو عِرضك، فإن أذنبت فاستغفر، وإن كنت ذهبت عنك فارجع إلى ربك، وإن كنت ظلمت فاصبر، واحتمل هذا دوائك، وإن لم يطلعك الله على سبب القبض فاسكن

=

تحت جريان الأقدار، فإنها سحابة سائرة.

وكان يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله، ما حقيقة المتابعة؟ فقال: «موافقة المتبوع عند كل شيءٍ ومع كل شيءٍ وفي كل شيءٍ».

وكان يقول: من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعيٌّ.

وكان يقول: إذا جالست العلماء فلا تحدثهم إلا بالعلوم المنقولة، والروايات الصحيحة، إما أن تفيدهم، وإما أن تستفيد منهم، وذلك غاية الربح معهم، وإذا جالست العبَّاد والزهَّاد فاجلس معهم على بساط الزهد، وحل لهم ما استمرروه، وسهِّل عليهم ما استوعروه، وذوِّقهم من المعرفة ما لم يذوقوه، وإذا جالست الصدِّيقين ففارق ما تعلم تظفر بالعلم المكنون.

وكان يقول: إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس بالجماعة فلا تعبأنَّ به.

وكان يقول: إذا انتصر الفقير لنفسه وأجاب عنها فهو والتراب سواء.

وكان يقول: إذا استحسنت شيئًا من أحوالك الباطنة والظاهرة، وخفت زواله فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وكان يقول: لا يتم للعالم سلوك طريق القوم إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح.

وكان يقول: لا تؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفوتها، أو بفوت غيرها، أو مثلها جزاءً لما كفر من ذلك الوقت فإن كل وقتٍ سهمًا في العبودية يقتصّه الحق منك بحكم الربوبية.

وأما تأخير عمر ﷺ الوتر إلى آخر الليل فتلك عادة جارية وسنة ثابتة، ألزمه الله تعالى إليها مع المحافظة عليها، وأنَّى لك بها مع الميل إلى الراحات والركون إلى الشهوات، والغفلة عن المشاهدات هيهات هيهات.

وكان يقول: من أراد عز الدارين فليدخل في مذهبنا هذا يومين فقال له القائل: كيف لي بذلك؟ قال: فرِّق الأصنام عن قلبك، وأرح من الدنيا بدنك، ثم كن كيف شئت، فإن الله تعالى لن يدعك بلا مدد، بل يمدك بمدده، ويغنيك بغناه.

وكان يقول: إن الله تعالى يعذِّب العبد على مد رجليه مع استصحاب التواضع للاستراحة من التعب، وإنما يعذِّبه على مد يصحبه التكبر.

وكان يقول: من لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا لربه وتواضعًا لخلقه فهو هالكٌ. وكان يقول: الزم جماعة المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين، وأقم عليهم الحدود، واهجرهم لهم رحمةً بهم لا تعززًا عليهم وتقريعًا لهم.

وكان يقول: كُلْ من طعام فسقة المؤمنين، ولا تأكل من طعام رهبان المشركين، وانظر إلى الحجر الأسود فإنه ما اسودَّ إلا من مسِّ أيدي المشركين دون المسلمين.

وكان يقول: ما ثم أعظم كرامة من كرامة الإيمان، ومتابعة السنة فمن أعطيهما، وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو مفترٍ كذَّاب، أو ذو حظًّا في العلم بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك فاشتاق إلى سياسة الدواب.

وكان يقول: كل كرامة لا يصحبها الرِّضا من الله، وعن الله، والمحبَّة لله، ومن الله فصاحبها مستدركٌ مغرور، وناقص هالك مثبور.

وكان يقول: سمعت هاتفًا يقول: إذا أردت كرامتي فعليك بطاعتي، والإعراض عن معصيتي.

وكان يقول: إذا أهان الله تعالى عبدًا كشف له حظوظ نفسه، وستر عنه عيوبه، فهو يتقلب في شهواته حتى يهلك ولا يشعر.

وكان يقول: إذا ضيَّق الله عليك في المعيشة فاعلم أنه يريد أن يواليك، فاثبت وإياك والضجر.

وكان يقول: إياك والوقوع في المعصية المرة بعد المرة، فإن من تعدَّى حدود الله فهو ظالمٌ، والظالم لا يكون إمامًا، ومن ترك المعاصي، وصبر على ما ابتلاه الله تعالى، وأيقن بوعد الله تعالى ووعيده فهو الإمام، وإن قلَّت أتباعه.

وكان يقول: إنا لننظر إلى الله تعالى ببصائر الإيمان، والإيقان فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، وصرنا نستدل به تعالى على الخلق: هل في الوجود شيء سوى الملك الحق؟ فلا تراهم وإن كانَ لا بد لَكَ من رؤيتهم، كالهباء في الهواء إن فتَّشتهم لم تجد شيئًا.

وكان يقول: إذا امتلأ القلب بأنوار الله عُميت بصيرته عن المناقص، وألزم الغيرة في عباده.

وكان يقول: مَن ادَّعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بطاعة الله تعالى، أو يطمع فيما في أيدي خلق الله تعالى فهو كاذبٌ.

وكان يقول: أَبَى المحققون أن يشهدوا غير الله تعالى لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية.

وكان يقول: أشقى الناس من اعترض على مولاه، وركس في تدبير دنياه، ونسي مبدأه ومنتهاه، والعمل لأخراه.

وكان يقول: أشقى الناس قد يئست من منفعة نفسي لنفسي، فكيف لا أيأس من منفعة غيري لنفسي! ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي؟.

=

وكان يقول: إذا أردت ألا يصدأ قلبك ولا يلحقك همٌّ ولا كربٌ، ولا يبقى عليك ذنبٌ فأكثر من قول: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، اللهم ثبِّت علمها في قلبي، واغفر لي ذنبي». وكان يقول: إذا أردت أن تصح على يديك الكيمياء فاسْقط الخلق من قلبك، واقطع الطمع من ربك أن يعطيك غير ما سبق لك، ثم امسك ما شئت يكون كما تريد.

وكان يقول ﷺ: إذا أردت الصدق في القول فأكثر من قراءة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

وإن أردت الإخلاص في جميع أحوالك فأكثر من قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وإن أردت تيسير الرزق فأكثر من قراءة قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وكان يقول: لا تُسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، وتنحل أعضاؤك فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها، إما بالهمة، أو بالإرادة، أو بالحركة.

وكان يقول: إذا توجهت لشيءٍ من عمل الدنيا أو الآخرة فقل: يا قوي يا عزيز، يا عليم، يا قدير، يا سميع، يا بصير.

وكان يقول: إذا ورد عليك مريد من الدنيا والآخرة فقل: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وكان يقول: خصلة واحدة إذا فعلها العبد صار إمام الناس.

وهي: الإعراض عن الدنيا، واحتمال الأذى من أهلها.

وكان يقول: إذا تداين أحدكم فليتوجَّه بقلبه إلى الله تعالى، ويتداين على الله تعالى، فكلما تداينه العبد على الله حقق أداؤه.

وإن عارض عارض من معلوم هو لك فاهرب إلى الله منه هروبك من النار.

وكان يقول: خصلة واحدة تُحبط الأعمال ولا ينتبه لها كثيرٌ من الناس، وهو سخط العبد على قضاء الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وكان يقول: إذا تداين أحدكم فليقل: اللهم عليك تداينت، وعليك توكلت، وإليك أمري فوضت، ﷺ.

وكلامه ﷺ في الحقائق وفي التمسك بالكتاب والسنة كثير جدًّا، راجعه في الكتب التي عرِّفت به، نفعنا الله به، آمين.

وانظر في ترجمته: طبقات الأولياء لابن الملقن (١/٤٥٨)، وطبقات الشعراني (٢/١٠٥)، والمفاخر العلية لابن عياد، وتعطير الأنفاس، والانتصار للأولياء الأخيار.

ينقصك ذرَّة مما قسم لك ما فعل، فكيف وأنت تطلب ذلك بلسان حالك وقالك.

وقال إبراهيم الخواص ﷺ: كل يوم أصبح تأتيني النفس فتقول: ماذا تأكل اليوم؟ فأقول لها: أكل الموت، فتقول: ماذا تلبس؟ فأقول: الكفن، فتقول: ماذا تسكن؟ فأقول: القبر، فتسكت حينئذٍ، والمقسوم لها يقبلها أحبت أم كرهت:

جَرى قلمُ القَضاءِ بِما يَكونَ ... فسيان التَّحرُّك والسُّكُون
جُنونُ شكٌّ أنْ تَسعَى ... لِرزقٍ ويُرْزَق فِي غَشاوَتِهِ

وقال آخر:

مَثلُ الرزقِ الذي تَطلُبهُ ... مَثلُ الظِّلِّ الذي يَمشِي مَعكَ
أنْتَ لا تُدرِكهُ تَبعًا ... وإذَا وَلَّيتَ عَنهُ تَبعَكَ

جاء رجلٌ إلى أبي القاسم الجنيد ﷺ[1] فقال له: أطلب الرزق؟ فقال: إن علمت

(١) هو سيّد الطائفتين، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وكان فقيهًا يفتي على مذهب الإمام أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وراوى مذهبه القديم، صحب خاله السقطي والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القفار، وكان من كبار أئمة القوم وساداتهم، وكلامه مقبولٌ على جميع الألسنة، مات يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، ودُفن بها وقبره ظاهر يُزار.
كان يقول: الغفلة عن الله أشد من دخول النار.
وكان يقول: إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق؛ فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.
وكان يقول: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله بالمحن، وحجب قلبه عن ذكره، وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع إلى الله كشف عنه المحن، وإن دام على السكون إلى غيره نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم، فيزداد مطالبه منهم مع فقدانه الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزًا وموته كمالاً وآخرته أسفًا، ونحن نعوذ بالله من الركون إلى غيره.
وكان يقول: يقول الله تعالى: «لو أن ابن آدم قصدني في أوَّل المصائب لرأى مني العجائب، ولو انقطع إلَيَّ في أول النوائب لشاهد مني الغرائب، ولكنه انصرف إلى إشكاله فرد في إشغاله».
وكان يقول: مكابدة العزلة أشد من مداراة الخلطة.
=

وكان يقول: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليلقِ الناس، فإن هذا زمان وحشة، فالعاقل من اختار الوحدة.

وجاءه مرة شخصٌ بخمسمائة دينار فوضعها بين يديه، وقال له: فرِّقها على جماعتك، فقال: ألك مال غير هذا؟ قال: نعم، قال: أتطلب زيادة على ما عندك؟ قال: نعم، فقال له الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منَّا، ولم يقبلها.

وكان يقول: إذا رأيت الصوفيّ يعبأ بظاهره فاعلم أن باطنه خراب.

وسُئل عن الإنسان يكون هاديًا فإذا سمع السماع اضطرب، فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذرية في الميثاق الأوّل بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] استغرقت عذوبة الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.

وكان يقول: تنـــزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع؛ فإنهم لا يسمعون إلاّ عن حقّ، ولا يقولون إلا عن وجد، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجازاة العلم فإنهم لا يذكرون إلا أحوال الأولياء.

وكان يقول: دخلت يومًا على السري فوجدت عنده رجلاً مغشيًا عليه، فقلت له: ما له؟ فقال: سمع آية من كتاب الله، فقلت: تقرأ عليه الآية مرة أخرى، فقرأت، فأفاق الرجل فقال السري: من أين علمت هذا؟ قلت له: إن قميص يوسف ذهب بسببه عينا يعقوب، ثم عاد بصره به، فاستحسن ذلك مني.

وكان يقول: ما رأيت أحد أعظم الدنيا فقرَّت عينه فيها أبدًا، إنما تقر عين من حقرها وأعرض عنها.

وكان يقول: من فتح على نفسه نية حسنة فتح الله عليه سبعين بابًا من التوفيق، ومن فتح على نفسه نية سيئة فتح الله عليه سبعين بابًا من الخذلان من حيث لا يشعر.

وكان يقول: ما احتشم صاحب من صاحبه أن يسأله حاجة إلا لنقص في أحدهما.

وكان يقول: إن للعلم ثمنًا فلا تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، قيل له: وما ثمنه؟ قال: وضعه عند من يحسن حمله ولا يضيعه، وقيل له: ما بال أصحابك يأكلون كثيرًا؟! فقال: لأنهم يجوعون كثيرًا، قيل له: فما لهم لا تمسهم قوة شهوة؟! فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزِّنا، ويأكلون الحلال، قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟! قال: وأي شيءٍ في القرآن يطرب في الدنيا، القرآن حقٌّ نزل من عند حق، لا يليق بصفات الخلق عند كل حرفٍ منه واجب، لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله ﷻ به، فإذا سمعن في الآخرة أطربهم، قيل له: فما بالهم

أين هو فاطلبه، فقال له: أسأل الله ذلك، فقال له: إن علمت أنه ينساك فاسأله، فقال له: أدخل البيت وأغلق الباب، فقال: هذه تجربة، والتجربة شكٌّ، فقال: ما الحيلة؟ فقال: ترك الحيلة.

فانظر يا أخي هذا الدواء النافع الذي أرشده إليه هذا العارف، فإن مَن خرج عن حوله وقوته، ودخل في حول الله وقوته، ومَن دخل في هذا الحصن؛ وصل إلى هذه الجنة، كيف يبقى له هم، وطلب شيء من الأشياء، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس، وتلذُّ الأعين؛ ولذلك قال ﷺ:

«(لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) كنـــزٌ من كنوز الجنة»(١).

=

يسمعون القصائد والأشعار والأنغام والغناء فيطربون؟! فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين، قيل له: فما بالهم محرومون من أموال الناس؟ فقال: لأنه تعالى لا يرى لهم ما في أيدي الناس؛ لئلا يميلوا إلى الخلق فيقطعوا، فأفرد القصد منهم إليه اعتنائه بهم.

وسُئل: من العارف؟ فأجاب: من نطق عن سرك وأنت ساكتٌ.

وكان يقول: ما أخذنا التصوف عن القالِ والقيل لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وكان يقول: إن أمكنك ألاَّ تكون آلة بيتك إلاَّ من الخزف فافعل، فكذلك كانت آلة بيته.

وكان يقول: الطرق كلها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ على مَن اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتَّبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخير كلها مفتوحةٌ عليه.

وكان يقول: لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله.

وكان يقول: أكثر الناس علمًا بالآفات أكثرهم آفات.

وقال رجلٌ له: مَنْ أصحب؟ قال: من تقدر أن تُطلعه على ما يعلمه الله منك.

وقيل مرة أخرى: مَنْ أصحب؟ قال: من يَقدر أن ينسى ما له، ويقضي ما عليه.

وكان يقول: من عرف الله لا يُسرُّ إلاَّ به.

وكان يقول: من نظر إلى وليٌّ من أولياء الله تعالى فقبله وأكرمه، أكرمه الله على رؤوس الأشهاد ﷺ وأرضاه. وانظر: كتابنا «الإمام الجنيد سيد الطائفتين» قدس الله سره.

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٤٦).

وقال أيضًا ﷺ: «**(لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) دواءٌ من تسعة وتسعين داء أقل ذلك الهم**»(١).

فمَن ظفر بكنـــز من كنوز الجنة، وتداوى بما هو دواء من تسعة وتسعين داء كيف يبقى عنده مرض الطلب للدنيا الدنيَّة، وكيف لا تُرفع همّته إلى المراتب العليَّة.

قال ﷺ:

٢٥- لا تَعْمَ عن نقصان نفسك فتطغى.

٢٦- مَن تزيَّن بزائل فهو مغرور.

لما بَيَّن لك أيُّها السالك طلب الدنيا، وأن طلبها مذلّة، شرع لك بحذرك أن تعمى عن نقصان نفسك، فتطيعها في العصيان، وتتوهَّم أن الزينة في الزائل فتغتر فيصحبك الخذلان.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ*قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ*الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ*الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٤: ١٧].

فانظر يا أخي إلى هذه الآية، وما أرشدت إليه، وما بيَّنت لك مما ظنَّه الناس زينة عندما عُميت نفوسهم عن نقصانها، وكيف دلَّهم ونصحهم، إن ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب.

ثم بيَّن ذلك، ووعد المتقين بما هنالك، ووصفهم بخمس صفات وهي للسالكين كالحواس الخمس.

فزيِّن يا أخي ظاهرك وباطنك بها، ولا ترفل إلاَّ بحلّها، فعند ذلك تظفر بالمقامات العليَّة، وتتزيَّن بالزينة البهيَّة، وتحوز الكمالات المحمَّدية، وتسود على سائر البريَّة، فإذا

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٩/٥)، والطبراني (١٨٧/٥)، والحاكم (٧٢٧/١).

تعافيت من هذه الأمراض الرديَّة لزمتك الحمية حتى تصح لك المقامات السنية.

قال رضي الله عنه:

٢٧- الحمية في الأبدان ترك المخالفة بالجوارح، والحمية في القلوب ترك الركون إلى الأغيار، والحمية في النفوس ترك الدعوى.

السالك كالمريض، واحتياجه إلى الحمية أشدُّ من احتياجه إلى الدواء؛ فالحمية رأس كل دواء، فما ينفع دواء الطاعات مع وجود المعاصي، وعدم الحمية من الخطيئات، ولكل محلٍّ من السالك حمية تخصه.

فالحمية في الأبدان ترك المخالفة بالجوارح؛ فلذلك قيل: الإرادة حفظ الحواس، والظَّن بالأنفاس، فيحمي السالك لسانه عن النطق بما لا يعنيه، وسمعه عن استماع ما لا يفيده فائدة تُقرِّبه إلى مولاه من أمور دنياه وأخراه، ويحمي بصره عن النظر إلى المحرَّمات، وهكذا سائر جوارحه لا يشغلها إلاَّ بما خُلقت لأجله حتى يحوز مقام الشكر، ويستوجب المزيد، ويصير من جملة العبيد، فيجد فيه حينئذٍ دواء الطاعات، ويصير من الأصحاء، ويتمكَّن من الخدمة، وسائر الأوقات.

والحمية في القلوب ترك الركون إلى الأغيار؛ وهذه الحمية هي قطب دائرة هذا المدار، فمَن لم يتقنها فقد حلَّ به الداء العضال، ومَن لم يرسخ فيها فقد انفصل من حيث يظهر الاتصال، فإذا حلَّت بك شدة أيُّها الأخ؛ فلا ترجع إلى حلِّها إلاَّ إلى مولاك، ولا تفرج بها على باب سواه، فتهلك أشدَّ الهلاك، وأنشد بلسان حالك، وترنَّم في هذه المسالك هذه الأبيات:

أَنَـــا لا أعْـــرفُ إلاَّ أنْـــتم ... فَأجِـــيزُونِي بِعطَـــاءٍ مِـــنكُمْ
كُـــلُّ شـــخصٍ لعزيـــزٍ ينْـــتَمِي ... وعَزيـــزِي لَـــيسَ إلاَّ أنْـــتمْ

قال النبي ﷺ لشخص: «**إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودع، ولا تتكلَّم بكلام تعذر فهمه**، واجمع الإياس **مما في أيدي الناس**»(١).

فانظر إلى ما ختم به ﷺ هذه الموعظة من قوله: (**واجمع الإياس مما في أيدي الناس**)، تعلم أن السعادة العظمى في عدم الركون إلى الناس، واليأس مما في أيديهم،

(١) رواه أحمد (٥/٤١٢)، وابن ماجه (٢/١٣٩٦).

واسمع أيضًا ما قاله ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «**يا غلام إني أعلمك كلمات تنفعك: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف**»(١).

تأمَّل هذا الكلام من نبيِّك ﷺ تجد الكيمياء حاضرة بين يديك، والكنوز مدفونة في ساحتك، إن فهمت وعملت بما أُلقي إليك؛ فلا تسكن بقلبك إلاَّ إليه، ولا تنطرح بذلَّتك وانكسارك إلاَّ بين يديه، فالحمية في النفوس ترك الدعوى؛ إذ الدعوى لها هو السمُّ القاتل، فماذا ينفع ترياق الطاعات، وقد أُصيبت القاتل؟ إذ دعوى النفس ينشأ من عجبها، وهو أشدُّ المهلكات.

كما شهد بذلك سيد الكائنات حيث قال ﷺ: «**ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأمَّا المنجيات: فتقوى الله في السرِّ والعلانية، والقول بالحق في الرِّضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأمَّا المهلكات: فهوى متبع، وشح مُطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن**»(٢).

فمَن كان عنده أشدُّ المهلكات كيف يتوقَّع الشفاء من أدوية الطاعات؟ فلذلك قال الشيخ رضي الله عنه: مَن مات ولم يتوغَّل في علمنا هذا مات، وهو مُصرٌّ على الكبائر، ولقد صدق فيما قال.

فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه، وأي شخص يصلِّي ولا يعجب بصلاته، وهكذا سائر الطاعات إلاَّ أن تحل عليه عناية مولاه بمعونة آداب الخدمة من مجالسة أطباء القلوب، وحلول عناياتهم عليه حتى يمحق العجب الذي حلَّ به من تلك الطاعات، ولا يعجب بعد ذلك إلاَّ بفضل مولاه.

كما قال في الحكم العطائية: لا تُفرِحُكَ الطَّاعةُ لأنها برزتْ منْكَ، وافرحْ بها لأنها برزتْ مِنَ الله إليكَ ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨](٣).

---

(١) رواه الترمذي (٦٦٧/٤)، وأحمد (٢٩٣/١).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٤٥٢/٥)، والحكيم الترمذي في النوادر (٧/٢).

(٣) قال الشيخ ابن عجيبة: والناس في الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام:

فلا تفرح يا أخي، ولا تعجب إلاَّ بنواله، ولا تصحب إلاَّ مَن يعلمك العلوم التي تُقرِّبك إلى حضرة كماله.

قال رضي الله عنه:

قسم: فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم ويدفعون بها من عذابه الأليم، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم لم يتبرؤا فيها من حولهم وقوتهم، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [الفاتحة:٥].

وقسم: فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضا والقبول، وسبب في القرب والوصول، فهي هدايا من الملك الكريم، ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم، لا يرون لأنفسهم تركًا ولا فعلاً ولا قوةً ولا حولاً، يرون أنهم محمولون بالقدرة الأزلية مصرفون عن المشيئة الأصلية وهم من أهل قوله تعالى: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:٥].

فأهل القسم الأول: عبادتهم لله.

وأهل القسم الثاني: عبادتهم بالله وبقدرة الله، وبينهما فرق كبير.

وقسم ثالث: فرحهم بالله دون شيء سواه، فانون عن أنفسهم باقون بربهم، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنة لله، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدبًا مع الله، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلة، ولا يزيد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة لأنهم بالله ولله، من أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، وهم العارفون بالله. فإن ظهرت منك أيها المريد طاعة أو إحسان فلا تفرح بها من حيث أنها برزت منك فتكون مشركًا بربك فإن الله تعالى غني عنك وعن طاعتك، وغني عن أن يحتاج إلى من يطيعه سواه، قال الله تعالى: ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت:٦].

وقالَ ﷺ حاكيًا عن ربه ﷻ: «يا عِبادي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ، ما زادَ ذلكَ في مُلْكي شيئًا» الحديث.

وافرح بها من حيث إنها هدية من الله إليك تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله وإحسانه، فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس:٥٨]، ففضل الله هو هدايته وتوفيقه، ورحمته هو اجتباؤه وتقريبه، وقيل: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن، وقيل: فضل الله هداية الدين، ورحمته جنة النعيم، وقيل: فضل الله توحيد الدليل والبرهان، ورحمته توحيد الشهود والعيان، وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وانظر: الإيقاظ (شرح الحكمة: ٧٧).

٢٨- أنفع العلوم العلم بأحكام العبيد، وأرفع العلوم معرفة التوحيد(١).

(١) قال الشيخ الباني في شرح حكم الشيخ الأكبر: فالمراد بالقوم هم الموحدون، ولا يعرف الموحد إلا بمعرفة التوحيد فعرفه، فقال الشيخ: (**التوحيد نفي الإثنينية، وإثبات العينيَّة**): (التوحيد) في اللغة مصدر وحده أي: أفرده، وفي القاموس التوحيد والإيمان متلازمان، وقيل: إن الإيمان اختياري، والتوحيد اضطراري، والمراد هنا الذوقي الشهودي المعتبر عند القوم أي: التوحيد الحقيقي الذوقي الشهودي المعتبر عند أهله المنسوب إلى العبد، أن تنفي الإثنينية بين الحق والخلق، وتثبت العينية لهما بأن تثبت أنهما عين واحدة، ولا تمايز إلا بالإطلاق والتقييد والوجوب والإمكان، ولا تقل: إنهما من عين واحدة؛ لأن فيه توهم الإثنينية فليس بتوحيد، بل المراد أن تعرف أن كلاً من الحق والخلق هو العين الواحدة باعتبار ارتفاع النِّسَب الاعتبارية من البين، وأيضًا هو العين الكثيرة إذا اعتبرت تلك النِّسَب و لوحظت أحكَامها، فإذا نفى العبد الإثنينية من كل شيء، وأثبت العينية في كلِّ شيءٍ فهو موحد، والنفي والإثبات المذكوران توحيد.

وليس التوحيد حكمك وعلمك بالوحدانية أي: بأنه هو لا أنت ولا نفي الأغيار وإثبات الواحد القهار مع بقاء وجودك وشعورك بهذا، ولا نفي وجودك، وإثبات الذَّات المقدسة مع الحلول والاتِّحاد، بل التوحيد نفي الغيرية، وإثبات العينية في الغيرية بلا حلول واتحاد.

كما أشار إليه الشيخ قدس سره ثانيًا بقوله: (**التوحيد فناؤك أيُّها الموجود وحدك، وبقاؤه فيك وبعدك**) أي: التوحيد الذي هو نهاية أن تفنى عن وجودك أيُّها المُدَّعي بأنك موجود حال كونك منفردًا عن هذا الفناء أي: ترى نفي وجودك فيك الثابت بزعمك، وترى بقاء الحق ثابتًا فيك، وترى بُعدك عنه؛ لأنك عدم وهو وجود وبينهما بون بعيد فتعرف بقاؤه فيك بلا دخول ولا خروج، ولا اتِّصال ولا انفصال؛ لأن الوجود لا يدخل في العدم ولو دخل لوجد، ولا يخرج عنه ولو خرج لما ظهر، وقد ظهر، وكذا الاتِّصال والانفصال، وهذا لا يكون إلا بتجريد القلب عن الغيرية، ورؤية الإثنينية في العينية، والعينية في الإثنينية فحقًا لا تحجبه الكثرة عن الوحدة، ولا الوحدة عن الكثرة، وحاصل التوحيد أن يثبت معنى مطلقًا منــزهًا عن الإطلاق، وهو ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا مجزأ ولا مركب ولا داخل ولا خارج ولا متصل ولا منفصل ولا منــزه ولا مشبه ولا مطلق ولا مقيد، وهذه المعاني كلها مراتبه فظهر بالصور والمعاني كلها فتقع عليه العبارات كلها، ومنــزه عنها كلها، ومنــزه في بعض، ومشبه في بعض، فهو الواحد الأحد الموصوف بالوحدانية. وهو المتعدد الموصوف بالإثنينية والغيرية، فأنت أيها العبد لست بموجود بوجود زائد عن وجود

الحق تعالى، وأنت موجود من حيث هوية الحق لا من حيث أنك أنت فافن أنانيتك في حقيتك تكن موحدًا وعبدًا لربك، وتكون مُنــزهًا له عن كلّ خلقه، وتنسحب عباداتك من هنا على جميع عبادة عبدها أحد من الخلق إلى حين وجودك.

ومن هنا قال الشيخ قدس سره: «من عبد الاسم فهو كافر، ومن عبد المسمَّى فهو مشرك، ومن عبد المعني فهو منــزه للحق عن جميع الخلق».

فما سوى الحق اسم والحق المطلق المنــزه عن القيود مسمًّى، والمطلق عن هذا الإطلاق المقابل للتقييد معنى فافهمه فإنه لطيف فإذا أوعيت هذا فهذا التوحيد هو الذي يقول به المحققون الكاملون الواصلون بعد التمكين إلا برد اليقين عندهم الحق بديهي ضروري، ولا حاجة للكسب والفكر والمجاهدة، فليس أحد من الوجودين يوحد الله بهذا التوحيد سواهم فإنهم المجبولون على الدين الخالص، المؤيدون بتأييد الحكيم الخبير، المتصفون بصفات المولّى القدير فعلموا بهذا التوحيد بعلم الله أو بالله أو بإعلام الله على اختلاف درجاتهم.

وهذا غير التوحيد الذي أمر به العبد فإنه مركَّب مخلوق، ولا يصدر عن المخلوق إلا المخلوق وذات كانت منــزهة في نفس الأمر لا بتنــزيه المنــزه، وهو كان بهذا الوصف ولا أنت، والآن كما كان فتوحيده الذي وحَّد به ذاته المعرى عن الغير، والواسطة الذي هو عبارة عن عِلمه بنفسه لنفسه في نفسه لا يعلم بعلم ولا دليل ولا برهان، ولا يزاحمه عقل ولا فهم، ولا إدراك ولا إشارة، فسبحان الله عما يصفون، فالعارف بمعرفة نفسه من غير تعريف الله له إياه، ويزعم أنه عارف بالله وتوحيده، فهو مشرك بالله لإثباته نفسه مع الله وهو غير ومعدوم مع الله في توحيده إيَّاه؛ لأن ميدان الوحدة ماحية لما سوى الله، فالعارف بعرفانه مُشرك بالله، ولا شعور له به، ويظن أنه موحد وليس بموحد، فهو كمن دخل على السلطان فهو في قصر عظيم فقال: وعزتك ما في القصر غيرك ولم يدر أن وجوده يكذبه.

فاجتهد غاية الاجتهاد قبل يوم الميعاد في خلاصك عن الشرك، وتدبر مِن أي وجهة تقع فيه ولا تخلص أنت من الشرك، ولا تعرف التوحيد المذكور إلا إذا لم تر نفسًا، ولا وجودًا، ولا صفة، ولا ذاتًا إلا بنفسه وجوده وصفته وذاته، ولا ترى هذه الرؤية فليس في الدارين ولا يرى فيهما إلا هو، والغير عينه بلا غيرية الغير، فهو الذي قال بعض الأكابر:

ذات لا ترى عين ما يرى، فبطونها كنــز لا يرى، وظهورها عين ما يرى. فلا يعرف الله إلا الله؛ لأن ذاته منــزهة عن معرفة العارف لكونها غير معلومة لسواها من جميع الوجوه قال الله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران:٢٨].

أي: أنفع العلوم العلم الذي يعرف به أحكام العبيد، وكيف يتوصَّلون به إلى

=

وقال ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله».
وقال أيضًا في جواب من سأل عن رؤية الرب:
«ويحك نورًا أني أراه، وإني للعبد» أي: كيف أرى؟.
وإن كان بكسر الهمزة فمعناه (إني أراه) بالله لا بنفسي، فهذا لا ينافي ما مرَّ فهو تعالى لا يُشاهد إلا في الصورة من نفس العبد أو غيره.
فأعلم العلماء العارفين اعترف بأنه عرفه حق المعرفة.
وقال الصديق ﷺ: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، فدلَّ على أن ثَمَّة أمر يُعجز عن إدراكه، وإن التوحيد هي الوحدة الحقيقية التي لا يُزاد عليها شيء لا من حيث الظهور، ولا من حيث البطون؛ لأنه تعالى من حيث إطلاقه المنــزه عن الإطلاق، والتقييد، والتشبيه والتنــزيه غير الظهور والبطون، وأفراد العالم كلها مع أنه ليس بخارج منها، ولا داخل، ولا مُتصل، ولا منفصل ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معه شيء زائد؛ لأن ذاته غنية عن العالمين، وقال ﷺ: «كان الله ولا شيء معه»، فالآن كما كان؛ لأن كان وجودية لا زمانية ففيه معنى الدوام والثبوت، فمن هذه الحيثية لا يصح أن يحكم عليها بنفي ولا إثبات.
ومن هذا قال أحد العارفين: من سأل عن التوحيد فهو جاهل، ومن أجاب عنه فهو مُلحد، ومن عرَّفه فهو مشرك، ومن لم يعرف ذلك فهو كافر يعني التوحيد لا يحصل بالطلب والسعي والحيلة، فلا يمكن تحصيله، وطلب المحال مُحال، والجواب عنه ميل وعدَّل عن حقيقة الأمر؛ لأنه لا يدخل تحت حيطة العبادة مع أنه مجهول للنفوس البشرية، فكل من تكلم فيه فقد تكلم بالمُحال بغير دراية الحال، فإنه ليس بالقيل والقال.
قال أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»، وكذا جميع الأنبياء والأولياء.
وقال سيد الطائفتين الجنيد البغدادي قُدِّس سرَّه: «والله، ثم والله، ثم والله ما عرف الله سوى الله».
وكل من يقول: أنا عارف بالتوحيد فهو مشرك بعرفانه بالله؛ لأن الذات المطلقة تأبى عن مشاركة العرفان لها وعن كلِّ مشارك، ومن لم يعرف بأن الحق تعالى له هذا التوحيد مثل ما مرَّ، وأنه تعين بهذه التعينات كلها فهو كافر ساتر لما هو الأمر عليه. وانظر: شرح الحكم الأكبرية للبالي (ص٢٥٠) بتحقيقنا.

عبوديتهم من إصلاحهم الظواهر للخدمة، والبواطن للوقوف بالحضرة، وذلك علم الشريعة والطريقة.

فبالشريعة يعرف السالك إصلاح الظاهر، وبالطريقة يصير الباطن من دنس الشرك طاهر، فمَن تحقَّق بهؤلاء الطاهرين صحَّ له أن يدخل الحقيقية، ويظفر بقرة العين، وينتفع حينئذٍ، وينفع ويقبل عليه كل شيء، ويخضع ويغترف من بحار التوحيد، ويستقر في مقام التفريد، وتتفجر من قلبه ينابيع الحكمة، ويصلح له أن يتكلَّم في أرفع العلوم من علم التوحيد ويفهمه.

فعليك يا أخي بصحبة مَن جعل الله قلبه معدنًا لهذه اللطائف، وإيَّاك وصحبة أهل الدنيا، فإن قلوبهم محلُّ الغفلة والكثائف.

قال الشيخ رضي الله عنه:

٢٩- جعل الله قلوب أهل الدنيا محلاً للغفلة والوسواس، وقلوب العارفين مكانًا[١] للذكر والاستئناس.

فإن جالست أهل الدنيا سرت فيك غفلتهم، وأحاطت بقلبك وسوستهم، وإن جالست العارفين أشرقت عليك أنوارهم، وأحاطت بقلبك لطائفهم وأسرارهم:

عنْ المرءِ لا تَسأَلْ وسلْ عَن قَرينِه ... فَكــلُّ قَــرينٍ بِالمقــارنِ يَقْتَدِي

وقال غيره:

عَلَــيْكَ بِأربَابِ الصُّدورِ فمَن غَدَا ... مُضــافًا لأرْبــابِ الصُّدورِ تَصدر

فلا تصحب يا أخي إلاَّ مَن تستيقظ بأقواله، ويحرك إلى مولاك حسن أفعاله، وقوة حاله، قال ﷺ: «**يُحشر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يُخالل**»[٢].

وقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) في البيان (محلاً).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٩/٤)، والترمذي (٥٨٩/٤)، وأحمد (٣٠٣/٢).

فلا تخالل يا أخي ولا تكن إلاّ مع الصادقين، ولا تخالط ولا ترافق إلاّ الصالحين، واجتهد أن يكون الخوف محرِّكك إلى هذا الطريق؛ ليزول عن قلبك كل تعويق.

قال ﷺ:

٣٠- فإن الخوف سوط يسوق ويعوق: يسوق إلى الطاعة، ويعوق عن المعصية.

ينبغي للسالك أن يُحرِّك جواد همّته بسوط الخوف؛ ليسوقه إلى الطاعات، ويعوقه أن يجمع به إلى المعاصي واللّذات، ويتلو على نفسه ما ورد من الوعيد لأهل الجنايات، ويكرم ذلك عليها في سائر الأوقات، ويقول لها بلسان حاله:

ألا يَا نفسُ وَيْحكِ خبِّريني ... إلى كَمْ هَذا التَّغافُل والتَّعامِي
وكَمْ يَومٍ يمرُّ عقيبَ يَومٍ ... وأنْتَ مَع الخُسارةِ فِي التَّمامِ

ويستعين عليها في ذلك بمحرِّك العضلات، ومنزل الفيوض على القلوب بمحض العنايات، ويقول بلسان ذلّته وانكساره:

يظنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وإنِّي ... أشرُّ النَّاسِ إنْ لَمْ تَعفُ عنِّي
وكَمْ مِن ذِلَّة لِي فِي الخَطَايا ... وأنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضلٍ ومَنِّ

ويشرع ويناجي مولاه، ويقبل عليه، ويقول بقلب أوّاه:

إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك عليَّ المنّة، وإن ظهرت المساوئ فبعد ذلك، ولك الحُجة عليَّ.

إلهي كيف تكلني وقد توكّلت لي؟ وكيف أضام وأنت الناجي لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفيُّ بي؟ ما أنا أتوسَّل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسَّل بما هو مُحال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يُخفى عليك؟ أم كيف أترجم إليك بمقالي وهو منك برز وإليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.

فعند ذلك تشعل في القلب نيران الاشتياق، ويركض الجواد في ميدان الطاعة، ويقول: السباق السباق، وتعلم أن الطريق؛ إنما هو الذلّة والانكسار، وإن الزاد إنما

هو بالاستعانة بالله بمزيل الافتقار، فأكثر من هذا الزاد يا أخي إن أردت قطع الطريق، فتواضع ولا تتكبَّر يزول عنك كل تعويق.

كما قال ﷺ:

٣١- لا ينفع مع الكبر عمل، ولا يضر مع التواضع بطالة(١).

(١) قال الشيخ باعشن في شرح هذه الحكمة: يعني أن العمل إذا أورث لصاحبه الكبر فليس يمحو الذنوب، فإذا كان العمل للاستكبار فهذا عمل تشترى به الأوزار وأورث العامل كبرته، فوقع الكبر أجرته، فأفسد عليه عملته، فعند منقلبه في آخرته يصدم بعقوبته، لأن عمله عمل الفائزين، وظنه ومراده مراد الضالين، فبئس مثوى المتكبرين، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين، وكذا لا تضر البطالة مع الندامة لأن تحقيق الخضوع هو التوبة عن المعاصي والرجوع، فمن أساء ثم تاب وخضع واستكثر ما فعله وأقلع، فلا شكأن سيائته تمتحي أجمع، فالبعمل الصالح إلى الملأ الأعلى يرفع، وبالخضوع يرتفع إلى الأعلى، وبالكبر يسلب الدين فضلاً وعدلاً، قال ابن عطاء الله في حكمه: (رب معصيةٌ أورثتْ ذُلاً وافتقارًا خيرٌ منْ طاعة أورثتْ عزًّا واستكبارًا].

وقال الشيخ ابن عجيبة: إنما كانت المعصية التي توجب الانكسار أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار لأن المقصود من الطاعة هو الخضوع والخشوع والانقياد والتذلل والانكسار، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، فإذا خلت الطاعة من هذه المعاني واتصفت بأضدادها فالمعصية التي توجب هذه المعاني وتجلب هذه المحاسن أفضل منها، إذ لا عبرة بصورة الطاعة، ولا بصورة المعصية، وإنما العبرة بما ينتج عنهما: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ ولا إلى أعمالِكُمْ، وإنَّمَا ينظرُ إلى قلوبِكُمْ»، فثمرة الطاعة هي الذل والانكسار، وثمرة المعصية هي القسوة والاستكبار، فإذا انقلبت الثمرات انقلبت الحقائق صارت الطاعة معصية، والمعصية طاعة، ولذلك قال المحاسبي ﷺ: إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد، وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبةً لله ﷻ وخوفًا منه فهو أطوع لله ﷻ من العالم والعابد بقلبه انتهى.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: كل إساءة أدب تثمر أدبًا فليست بإساءة أدب. وكان ﷺ كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة، وكان ﷺ يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالي به، وربما دخل عليه عاص فأكرمه،
=

٣٢- إن أقامك به ثبت، وإن قمت بنفسك سقطت، اللَّهم فهمنا عنك، فإنا لا نفهم عنك إلاّ بك.

اسمع يا أخي هذا الدواء النافع، وداوِ به أمراض قلبك، واصحب مَن يرشدك إلى تحصيله؛ فإنه الشفاء إليك، فإن الطريق إلى الحق عبودية وانكسار، والكبر منازعة للربوبية وافتخار، فأنَّى تجتمع العبودية مع المنازعة في الربوبية، وأنَّى تشرق الأنوار الإلهية مع الاتِّصاف بالصفات البشرية.

فسبحان مَن ستر سِتر الخصوصية في ظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية، ما طلب لكل شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع لك بالمواهب مثل الذلّة والانكسار.

تحقَّق بأوصافك؛ يمدَّك بأوصافه.

تحقَّق بفقرك؛ يمدَّك بغناه.

تحقَّق بضعفك؛ يمدَّك بحوله وقوته.

تحقَّق بعجزك؛ يمدَّك بقدرته.

=

لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله وناظر لفعله، وذلك العاصي دخل بكثرة معصيته وذلته ومخالفته، قاله المصنف في لطائفه.

وقال أبو يزيد ﷺ: نوديت في سري خزائني مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار،

وقال رسول الله ﷺ: «لوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عليكم ما هو أَشَدُّ من ذلك: العُجْبُ» كذا في الصحيحين.

وقال عليه السلام: «لولا أنَّ الذنبَ خيرٌ من العُجْبِ ما خَلا اللهُ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وذَنْبٍ أبدًا».

وقال الشيخ أبو مدين ﷺ: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وقال شيخ شيوخنا ﷺ: معصية بالله خير من ألف طاعة بالنفس انتهى.

ومعنى كلام الشيخ أن العبد إذا أجريت عليه زلة لم يقصدها بقلبه، وإنما جرته القدرة إليها رغمًا على أنفه ثم ندم وانكسر، فهي في حقه خير من ألف طاعة يشهد فيها نفسه ويتبجح بها على عباد الله. وانظر: إيقاظ الهمم (الحكمة١١٩)، والبيان والمزيد (ص٢٧).

تحقَّق بذلك؛ يمدَّك بعزَّته.

فإيَّاك والكبرَ فإنه لا تنفع معه الأعمال، وعليك بالتواضع؛ فإنه ينفعك، وإن كنت بطَّال، واطلب هذا المقام من مولاك، فإنه إن أقامك ثبت، وإن قمت بنفسك سقطت.

وقل في دعائك: اللَّهم فهمنا عنك، فإننا لا نفهم عنك إلاَّ بك.

إيَّاك نعبد، وإيَّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

ربنا لا تزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهَب لنا من لَدنك رحمة إنك أنت الوهَّاب:

ربِّ هب لِي مَذلَّةً وانْكسارًا ... وأنْلني تَواضُعًا وانْكسارَا

وفِّقْ القَلبَ واهْدِهِ لخَلاصٍ ... وأذِقني حَلاوةً واصْطِبارَا

واجتهد أيُّها الأخُ في تصحيح تواضعك بالعبودية والانكسار، وشمِّر عن ساق الجدِّ في طلب هذا المقام بالليل والنهار.

قال رضي الله عنه:

٣٢- ليس مَن أُلبس ذُلّ العجز؛ كمَن أُلبس عزّ الاقتدار(١).

قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال ﷺ لذلك الذي طلب أن يكون رفيقه في الجنة:

«**أعنّي على نفسك بكثرة السجود**»(٢).

فدلَّ كلام الله تعالى وكلام رسوله على أن المجاهدة لا بُدَّ منها في الطريق، وأن مَن أُلبس عزّ الاقتدار وأُزيل عنه لباس ذلِّ العجز؛ فقد تخلَّص من التعويق، فمَن جدَّ وجد، ومَن قرع بابًا ولجَّ وَلَجَ، اصبر على مضض الإدلاج بالسَّحر، وللرَّواح على

(١) في البيان (الافتقار).

(٢) رواه مسلم (٣٥٣/١)، وأبو داود (٣٥/٢)، والنسائي (٣٥/٢).

الطاعات في البكر، قيل:

إنِّــي وجــدتُ وفِي الأيَّامِ تَجربةٌ لِلصــبْرِ عَاقِــبةٌ مَحمُــودةُ الأثَرِ
وقُــلْ مَــن جَــدَّ فِي أمْرٍ يُؤملهُ واسْتصْحبَ الصبْرَ إلاَّ فَازَ بالظُّفرِ

فاجتهد أيُّها الأخ السالك في خدمة مولاك على الدوام، واخلص في خدمتك، ولا تتوقَّع لنفسك حالاً ولا مقامًا.

قال رضي الله عنه:

٣٣- مَن طلب[١] لنفسه حالاً أو مقامًا فهو بعيدٌ عن طُرقات المعارف[٢].

يا أسير العبادات والشهوات والمكاشفات انتهز وأنت مشغول بك عنك، فمَن طلب حالاً ومقامًا أو مكاشفة؛ فهو مشغول لحظِّ نفسه دون اشتغاله بخدمة ربه، ما أحببت شيئًا إلاَّ وكنت له عبدًا، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، فكل ما التفت إليه السالك، ومال إليه؛ كان حجابه ودنياه وقاطعًا له عن طريق مولاه.

وما أحسن ما قيل:

قــال لِي حُسنُ كُلِّ شيءٍ تجَلَّى بِي تَمَلَّى! فقُلتُ: قَصدِي وراكا[٣]

فلا تطلب أيُّها السالك سوى مولاك، ولا تفرح إلاَّ بما به أولاك.

قال رضي الله عنه:

٣٠- السعيد[٤] مَن يئس من الفرح إلاَّ من عند مولاه. [ما فات لا يستدرك، لأن الوقت الثاني غير الأول[٥]].

---

(١) في البيان (من نسب).

(٢) في الأصل: (المعاملة).

(٣) من كلام الشيخ الولي الصالح المفترى عليه سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه، من قصيدة مطلعها: ته دلالا فأنت أهل لذاكا. الديوان (ص١٣٣).

(٤) في البيان (العبد)، والحكمة بنحوها.

(٥) قال الشيخ ابن سبعين قدس الله سره: والوقت: هو الحال الحاضر الذي بين الماضي والمستقبل من الزمان، والله: هو القائم بذاته الذي قام به غيره، وليس لوجوده سبب، وهو
=

وذلك علامة تحققه في التوحيد، ورسوخه في أوج علاه.

فلا تجنح يا أخي بهمّتك إلاَّ إلى أفضاله، ولا تقبل بقلبك إلاَّ إلى حضرته، ولا تشهد إلاَّ عظيم نواله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فإذا شهدت هذا المشهد العظيم؛ فعليك بمراقبة هذا الأمر العميم.

قال رضي الله عنه:

٣٤- أفضل الطاعات عمارة الوقت بالمراقبات[1].

فعمّر أوقاتك بمراقبة مولاك: بأن تعلم أنه الذي أعطاك بكل فضيلة، وأزال عنك كل رذيلة، وغذّى قالبك بأقواته، وأحيى قلبك بذكره بعد مماته، وجعلك عبدًا له، وعلّمك آداب الخدمة، وفهّمك طريق عبادته، وألزمك الحرمة، ومع ذلك هو ناظرٌ إليك، ومقبلٌ بألطافه عليك، ما من حركة ولا سكون منك إلاَّ وهي بإرادته، ولا لفتة ناظر ولا فلتة خاطر إلاَّ وهي بقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

الفاعل المختار الذي يثيب العبد المكلف على الحسنات، ويعاقبه على السيئات إن شاء، ويقبل التوبة، ويعفو عن السيئات كما وعد.

الوقت: عبارة عن حالك، وهو ما يقتضيه استعدادك لغير مجهول، في زمن الحال الذي لا تعلق له بالماضي والمستقبل فلا يظهر فيك من شؤون الحق الذي هو عليها، في الآن، إلا بما يطلبه استعدادا، فالحكم للاستعداد وشأن الحق محكوم عليه. هذا هو مذهب التحقيق، فظهور الحق في الأعيان بحسب ما يعطيه استعدادها، فلذلك ينبوع فيها فيض وجود الحق، وهو في نفسه على وحدته الذاتية، وإطلاقه وتجرده، وتقدسه غنى عن العالمين، فالوقت هو الحاكم والسلطان، فإنه يحكم على العبد فيمضه على ما يقتضيه استعدادا، ويحكم على الحق بإفاضة ما سأله العبد منه بلسان استعداده في زمن الحال، إذ من شأن الجواد التزام توفيه استحقاق الاستعدادت كما، ينبغي، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾. تأييد لهذا التحقيق إن كانت «ما» موصولة في موضوع النصب على أنه مفعول مختار، ومن كان يحسب ما خاطبه به الشرع في كل حال، فهو في الحقيقة صاحب وقته، فإنه قام بحقه، ومن كان هكذا فهو عند ربه من السعداء.

(١) في نسخة: (بالموافقات).

ولذلك كان يتوسَّل بعض العارفين في تصحيح المراقبة بمريديه بهذه الأذكار الثلاثة: الله معي، الله ناظري، الله شاهدي، ثم يقول بعد ذلك للمريد: مَن كان الله معه، وناظره وشاهده كيف يعصيه؟.

فاسمع يا أخي هذه الوصية، واعمل بمقتضى هذه القضية؛ تحز مقام المراقبة، وتصل إلى الفتوة التي هي مقام الكُمَّل على سبيل المعاتبة.

قال ﷺ:

٣٥- الفتوة ألاَّ تشتغل بالخلق عن الحق.

لِما بيّن لك أيُّها السالك أن أفضل الطاعات عمارة الوقت بالمراقبات، شرع محصن على هذا المعنى، ويدخلك في أوج هذا المعنى، وبيَّن لك أن الفتوة التي هي مقام الكمال من الرجال؛ هي عدم اشتغالك بالخلق، وذلك عين اشتغالك بالحق؛ لأنك متى انفصلت وصلت.

والاشتغال بالحق هو عين المراقبة؛ لأن حقيقتها أن تعلم أن الله مطَّلع عليك على أحوالك، فتراقب هذا المعنى بأن تصير رقيبًا له، وحارسًا لمعناه، ومتوسِّلا لطلب ما يفيض عليك من ظلال مبناه، والمراقبة التي هي عين الفتوة أصل جميع السعادات.

وما أحسن ما قيل: إلهي عُميت عين لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبِّك نصيبًا؛ وهي مقام الإحسان مقام دخول العارف بقلبه إلى أعلى الجنان، وهي الباب الجامع لكل خير في الطريق نافع، وهي التي متى أشرقت شمس ضحاها على القلوب أذابت منها كل رذيلة، ونمت عرائس المحبوب.

الفتوة: هي التي تُكسِّر سائر الأصنام، وتفنى من ساحة المحبوب سائر الآثام.

هي التي تُزيِّن الأسرار، وتجلو عين البصيرة حتى لا يرى السالك إلاَّ المحاسن من العبيد، وتطيب له السريرة.

ولذلك قال ﷺ:

٣٦- القوة[١] رؤية محاسن العبيد، والغيبة عن مساوئهم.

وذلك لأن من لازم الاشتغال بالحق الغيبة عن مساوئ الخلق؛ إذ مَن اشتغل بالحق لم يشهد فعلاً إلاَّ فعله، ولا وصفًا إلاَّ وصفه، ولا وجود إلاَّ وجوده، فمَن لم يشهد في العبيد إلاَّ أوصاف الحق وأفعاله ووجوده؛ لم يشهد إلاَّ محاسنهم، ويغيب عن مساوئهم؛ إذ المساوئ مفقودة في نظر هذا الشاهد:

إذَا مَـــا رَأيْتَ اللهَ فِي الكلِّ فَاعلاً   رأيْـــتَ جَمـــيعَ الكَائِنات مِلاحَا

وما أحسن ما قال ابن الفارض ﷺ:

وكُـــلُّ الذِي شَاهدَتَه فِعلٌ واحِدٌ   بِمفـــرَدهُ لَكِـــنَ بِحجبِ الأكنَّةِ
إذَا مَـــا أزالَ السَّـــترَ لَمْ تَـــرَ غَيرهُ   ولَمْ يَبقَ فِي الأشكَالِ أشْكَالَ رَيْبةِ

فيا أيُّها الغنيُّ المتحقِّق بالفتوة أخلص لله في معاملتك، واخرج عن حولك والقوة.

قال ﷺ:

٣٧- مَن أخلص لله في معاملته تخلَّص من الدعوى الكاذبة[٢].

---

(١) في نسخة (الفتوة).

(٢) قال سيدنا الشرقاوي في شرح الحكم الكردية: قيل لسهل بن عبد الله ﷺ: أي شيءٍ أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، وكم أجهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر. قال أبو طالب ﷺ: والإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق النفس. وعند المحبِّين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وإلا يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع. وعند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال، وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال انتهى.
فإذا حمل العبد في نفسه وألزمها التواضع والمذلَّة، واستمرَّ على ذلك حتى صار له خلقًا وحيلة بحيث لا يجد لضعته ألمًا ولا لمذلته طعمًا زكت نفسه واستنار بنور الإخلاص قلبه، ونال من ربه أعلا درجات الخصوصية، وحصل أوفى حظ ونصيب من المحبة الحقيقية، فهذا لا يكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص في نفسه ولا يحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنـزلة في نفسه، فصارت الذلة والضعة صفة لازمة له، لزوم العرض للجوهر، فإن كان مع الله تعالى بالذل طلبه واستحلاه، كما =

إذ الدعوى الكاذبة تنشأ من النفاق، وإظهار خلاف ما في الباطن، ومَن علم أن الله تعالى رقيبه، مطّلع على ما في ضميره، قادر على الانتقام منه؛ لزمه الإخلاص لله في المعاملة، واجتهد في الصدق في أفعاله وأقواله وأحواله.

وما أحسن ما قال بعضهم: عليك بالصدق، ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد، وابغِ رضا المولى، فأغبى الورى مَن أسخط المولى وأرضى العَبيد، واجتهد في تصحيح هذه الخصلة يا أخي تحز مقام الفلاح.

=

يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة لغيَّر قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش، فإذًا لا بدَّ للمريد إسقاط جاهه وإخمال ذكره، وفراره عن موضع اشتهاره وتعاطيه أمورًا مباحة تسقطه من أعين الناس، كقصة لسائح الذي سمع به ملك زمانه فجاء إليه، فلما علم بذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكله أكلاً عنيفًا بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره فانصرف عنه ذا ماله.

وقد بالغ بعضهم في مداواة علة الجاه الذي علِقَ في القلوب، حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع، ورأوا فعل ذلك جائزًا لهم ولغيرهم، وذلك مثل قصة الرجل الذي دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس، بحيث تظهر ومشي بذلك متمهلاً بحيث يُرَى ويُظَن بذلك السرقة، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه، ورموا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة، حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام، فحينئذ وجد قلبه.

ومثل ما يُروى عن أبي يزيد ﷺ في قصة الشاهد، الذي أمره بحلق رأسه ومخلاته مغلقة في عنقه أيضًا، وإعطائه من ذلك لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحال في المحافل والمحاضر ذكر ذلك أبو حامد الغزالي ﷺ وغيره.

وإذا جاز لمن غصّ بلقمة حلال أن يسيغها بالجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره، مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته بترك الجرعة إلا حياة فانية، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين عليه أولى؛ إذ يفوته بترك المنكر في ظاهر الشرع الحياة الباقية والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطريقة من الرياضات ماتت نفسه، وحيا قلبه وقرب من حضرة ربه، واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام.

وتلك الثمرة أخلاق الإيمان، التي تكيفت بها نفسه وصارت كصفاته ذاتية له، وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله في قلوب عباده المتواضعين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال الشيخ ﷺ:

٣٨- أهل الصدق قليلٌ في أهل الصلاح.

فشمِّر الذيل يا أخي في تصحيح هذا المقام، وعض بالنواجذ على حفظ آدابه، وأدِّبه في شوارده، وتمسَّك بذيل أهله، وصحبة أربابه، وحاسب نفسك في الحركات والسكون، وتفطَّن لما يصدر منك في دَسَائس الكلمات، واعلم أن الرقيب حاضر والحق تعالى إليك ناظر، فترد أيُّها الأخ عن المخالفات، والبس حلل الطاعة، وجُر ذَيل الموافقات، واخرج ملاحظة السوى عن قلبك؛ تشرق عليك أنوار الفقر، فاستره وتوسَّل به إلى ربك.

قال الشيخ ﷺ:

٣٩- الفقر نورٌ ما دُمت تستره، فإذا أظهرته ذهب نوره.

إذ حقيقة الفقر(١): التجرُّد عن السوى الذي هو عين الإقبال على المولى، وهذا

---

(١) **فائدة:** قال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس الله سره في قوانين الحكم: قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [فاطر: ١٥].

تحقيق: حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو باطن الحقيقة، فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه لمن شهد ذلك ورآه.

تدقيق: تفاخَر الغني مع الفقير.

فقال الغني: أنا وصف الرب الكبير، فما أنت أيها الحقير.

فقال الفقير: لولا وصْفي لما تميَّزَ وصفك، ولولا تواضعي ما رفع قدرك، فأنا وصْفي وسِمَ بذلّ العبودية، وأنت وصفك نازع الربوبية، ومن نازع قصِم، ومَن سَلَّم سَلِمَ.

تحقيق: التبس حال الفقير على غير النبيه، فقال: الفقير غير الفقيه، وما علم أن الراء هي الهاء.

إنَّ الفقيرَ هو الفقيهَ وإنما ... راء الفقيرِ تجمعت أطرافها

تدقيق: الفقير الفقيه من حَطَّ حمل الرحال على أعتاب الرجال، حتى أرضعته طريَّ لبن الصدور، وأغنته عن قديد ميت السطور.

فانتصح يا فقيه القال، واسمع يا فقير الحال، وافْن بالله عن الرسوم، واخرج عن كل معلوم.

يا فقيه الجدال، هذا الجدّ آل أدخل حَانَ أخيارنا، نصيِّرك من أحْبَارنا، ونسقيك صافي الشراب بعد نقيع السراب.

يا فقيه النقل، يا عقول العقل، سَتَر عنك نور الكشف حجاب أنيّتك العقلية، والذوق غيَّر طعمه عندك مرارة العلوم النقلية.

=

يا فقيه الاسم دون المسمَّى الغلط أوجبه تشابه الأسماء لو عرفت معنى الفقير والفقيه كنت الحاذق التنبيه.

الفقيه سن فقه عن الله، وفنى به عمن سواه، فلو كنت بهذا الوصف كنت الفقير صدقًا، والفقيه عند الله حقًا.

تحقيق: فضَّل قوم الغني على الفقر، وعكس آخرون الأمر، والحق أن غنى النفس بالأعراض البشرية لا يخرجها عن افتقار صفاتها الذاتية.

تدقيق: مَن ادَّعى الغنى وقع في العنا، بخلاف من أظهر الفقر؛ فإنه خلص من الأمر.

تحقيق: الفقير من اتَّصف بحقيقة الافتقار عن إرادة منه واختيار، لا عن ضرورة ردته لمركز الاضطرار.

تدقيق: من استكبر بوصف الغني على الفقير استوجب حكم العكس من القدير.

ألم تــرَ أن الفقــر يُــرجَى لَه الغنى ... وأن الغــنى يُخشـــى علــيه من الفقرِ

تحقيق: سمة الفقر سمة الأحباب، وحليته حلية العبد الأواب، من لبس اسمًا له كان ذلك وسمًا له في وجود أهل القبول، ولهم من الله نيل المسئول.

وجـــوه علــيها للقــبولِ علامـــةٌ ... ولـــيس عـــلى كــلِ الوجـــوهِ قبولُ

تدقيق: من افتخر على الفقراء بماله، أو تباهى عليهم بجماله؛ افتقر وعاد وقد انكسر.

لا تفخـــرن بمـــا أُوتيـــت مـــن نعم ... عـــلى ســـواك وخف من كسر جبارِ

فأنـــت في الأرض بالفخـــار مشـــتبه ... مـــا أســـرعُ الكسرِ في الدنيا لفخارِ

تحقيق: جواهر معاني الزمان أنفس من أن تضيعها في الهذيان، فيالله العجب ممن عمره انقضى وذهب في جمع الفضة والذهب، وهو بما جمع فقير ليس له نصير.

ومَـــن يـــنفق الســـاعات في جمع ماله ... مخافـــة فقـــرٍ فَـــالذي فَعَـــل الفقـــرَ

تدقيق: من أفقر إلى الله استغنى به عن كل شيء، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء، ومن افتقر إلى كل شيءٍ، فقد أوحشه كل شيء، و لم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

لكـــلِ شـــيءٍ إذا فارقـــته عـــوضٌ ... ولـــيس لله إنْ فارقـــتَ مـــن عوضِ

تحقيق: خاصية مغناطيس فقر الذات هي الجاذبة للعطايا والهبات، فمن كان وصف افتقاره أكثر كان نصيبه أجزل وأكبر.

تدقيق: اختصاص الفقراء بالسؤال خصوصية لهم في الحال والمآل، يعرفها من وجد ثمر المطالب، وقضيت له الحاجات والمآرب.

=

أمر ذوقي معنوي لا يليق إظهاره، كالجوهرة النفيسة لا يسمح صاحبها بإظهارها إلاَّ بقدر الضرورة، وهكذا الفقر.

إذ عين التوحيد وهو كالدواء عند العارف لا يذكره إلاَّ للمريض المحتاج، ولا يسمح بإفشائه لأهل الاعوجاج.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: ليكن الفرق بلسانك موجودًا، والجمع بقلبك مشهودًا؛ فالعارف مَن ستر فقره وتوعيده، وأظهر فوقه، وسار سيرة حميدة، يعاشر الخلق في الباطن كأنه منعزل عنهم.

وما أحسن ما قيل في المعنى:

ومِـــن دَاخِلِ كُنْ صَاحِيًا غَيرَ غَافلٍ ومِن خَارِجٍ خَاطرُ كَبعْضِ الأَجَانبِ

متخلّق في معنى ذلك بمعنى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٧].

يُحكى أنه دخل بعض أهل الأحوال على بعض أهل الكمال، وكان ذلك الفاضل مشغولاً بفصل الخصومات مع الناس، فلمَّا رآه ذلك الداخل بتلك الحالة فرش سجادته على حوض على نهر ما كان هناك، وشرع يصلّي فالتفت إليه ذلك الكامل، فقال له: ما هذه البدعة التي تفعلها؟ ليس الشأن أن يكون الرجل بين الخلائق، وسرُّه عند الخالق، ولقد صدق فيما قال، وبيَّن ما عليه أهل الكمال من الرجال.

فلذلك قيل: العارف كائن بائن؛ كائن بظاهره مع الخلق، بائن بسرِّه مع الحق.

=

تحقيق: اتِّصاف الرب سبحانه بوجود الغنى المطلق، هو الذي أوجب لنا الفقر المحقق، وبهذا الاتصاف حصلت الألطاف؛ لأن من رحمة الغني أن يجود على الفقير، ويجبر المسكين الكسير.

تدقيق: ما أتى باب الغني الكريم فقير فخاب، ولا قصد حماه فغلق دونه الأبواب.

عـــلى بـــابك الأعلى مددتُ يد الرجا ومَـــن جـــاءَ هذا البابُ لا يختشى الردى

فالأول: فرق لا بُدَّ منه في الطريق.

والثاني: جمع لا بُدَّ منه في التحقيق.

قال ﷺ:

٤٠- الجمع ما أسقط تفرقتك، ومحا إشارتك، والجمع استغراق أوصافك، وتلاشي لقوتك.

شرح ﷺ: يبيِّن معنى الجمع[1] بأنه ما أسقط التفرقة، ومحا الإشارة؛ إذ التفرقة والإشارة تقتضي الأغيار.

وصاحب هذا المقام لا يشهد إلاَّ الواحد القهَّار، قد انمحت عنه الرسوم، وذهب عنه العلم والمعلوم، قد فنيت أفعاله في أفعاله، وأوصافه في أوصافه، وذاته في ذاته؛ ولذلك قال ﷺ: الجمع استغراق أوصافك، وتلاشي لقوتك.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لن يصل العبد إلى الله حتى يُفني أفعاله في أفعاله، وأوصافه في أوصافه، وذاته في ذاته، وهذا غاية ما يصل إليه السالك في سلوكه؛ ويُسمَّى جمعًا وفناءً، ثم يرجع منه إلى عالم الفرق والرسوم، ويرجع إليه ما فارقه من علم ومعلوم، ويصير مرشدًا ومقتدًا، جامعًا وفارقًا، وارثًا لسيد الورى؛ ولذلك لَمَّا سُئل الجنيد ﷺ عن النهاية قال: الرجوع إلى البداية.

فالمنتهي مَن رجع إلى بداية قوته وعبوديته، قد عرف المقصود من خلقه، وانخلع عن أوصاف بشريته، لا يشير إلى أوصافه، ولا إلى خدمته.

قال ﷺ:

٤١- المدَّعي: مَن أشار إلى نفسه.

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الجمع هو نفي المعية، وسقوط الفرق بالكلية، وحقيقته: اتحاد مراتب العالم في واحد يتعيّن مع وجود ما اتحد فيه به، ويبطن عند تحليل ما به تعينٌ، وغايته: رؤية الأبد بعين الأزل، الذي لا يُخبِر ولا يُخبَر عنه اهـ.

إذ الإشارة إلى النفس فرع إثباتها ورؤيتها، وهو ينافي مقام الفناء، ويباين مشرب مَن ارتشف كأس الهناء؛ ولذلك قال ذو النون ﷺ لمّا سُئل: ما أشدُّ الحجاب وأخفاه؟ قال: رؤية النفس وتدبيرها، فمَن حُجب ورأى نفسه شيء أشار إليها؛ فكان مُدَّعيًا، وهو عن مذاق أهل الفناء بمعزل.

ولذلك قال الشيخ رسلان: كلُّك شرٌّ خفيٌّ، وما يبين توحيدك إلاَّ إذا خرجت عنك، فمَن خرج عن نفسه لا يراها، ولا يشير إليها، ولا يحوم حول مُدَّعاها، وحينئذٍ تكون مقتديًا بالدليل، واصلاً إلى أعلى مراتبها ومنتهاها.

قال ﷺ:

٤٢- إنما حُرموا الوصول لترك الاقتداء بالدليل، وسلوكهم الهوى.

أشار ﷺ إلى الطريق القويم الموصِّل إلى الصراط المستقيم؛ طريق أهل الاقتداء بالدليل المحمَّدي المعرضين عن الهوى، المودِّين بالفضل السرمدي، التابعين له ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال؛ مقام أهل الجنة والوراثة الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

وأشار إليه ﷺ في قوله: «**مَن عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»[(١)].

فمَن وصل إلى المقصود لم يصل إلاَّ من هذا الطريق، ومَن حُرم الوصول فلتركه هذا المنهج، واقتطاعه بعلائق التعويق[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الشيخ سيدي أحمد الرفاعي في حكمه: [**رُبَّ علْمٍ ثَمَرَته جَهْلٌ، ورُبَّ جَهْلٍ ثَمَرَته علْمٌ**]. وألحقها بقوله: [**كَيْفَ يَصِحُّ لَكَ عزُّ العلْمِ وأَنْتَ كَسَوْتَ علْمَكَ ثَوْبَ الذُّلِّ؟**]

قال الشيخ الصيادي: أراد ﷺ بقوله: (رُبَّ علم ثمرته جهل): أي رُبَّ علم اختطفت صاحبه أجنحة الغرور بالعلم، فاكتفى به عن العمل، وتعالى عن الخلق، فأنتج له العلم المذكور ثمرة القطيعة التي ينتجها الجهل.

وأراد بقوله: (ورُبَّ جهل ثمرته علم): أي ورُبَّ جهل ألزم صاحبه الانكسار، والاحتقار بنفسه. فلزم أبواب العارفين والعلماء العاملين، وأخذ عنهم وانتفع منهم، فأورثه اعترافه وانكساره معه علمًا.

=

=

وما أحسن ما قاله سيدنا الرفاعي ﷺ في كتابه «**البرهان**» وهو:

أي سادة، كل حال القوم من أولهم إلى آخرهم تحت أربع درجات، وكل حال العلماء والفقهاء كذلك.

فأما الدرجة الأولى من حال القوم: فدرجة رجل طلب المرشد، لما رأى من إقبال العامة على الطائفة فأحب ذلك، وفرح بالرواق والجمعية والزي.

والدرجة الثانية: درجة رجل طلب المرشد عن حسن ظن بالطائفة فأحبهم، وأحب ما هم عليه، وأخذ بصميم القلب كل ما نقل عنهم، وأخذ منهم الاعتقاد الصحيح النظيف.

والدرجة الثالثة: درجة رجل سلك المقامات، وقطع العقبات، وبلغ من الطريق العوالي من الدرجات، ولكن وقف تارة عند قوله تعالى:﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا**﴾[فصلت: ٥٣].

فساعة يرى الكون بمشهد الآية التي أربت له، فيغيب بها عمن أراه إياها، وساعة يرى نفسه بمشهد الآية التي أربت له في نفسه فيغيب بها، وهذا المشهد مشهد الإدلال.

ومنه تحصل الشطحات، والتجاوز، وإظهار العلو على الأعالي والبروز بمجال السلطنة، والظهور بالقول والفعل، والحول، والقوة.

والدرجة الرابعة: درجة رجل سلك الطريق مقتفيًا آثار النبي ﷺ في كل قول، وفعل، وحال، وخلق حاملاً راية العبدية، فارشًا جبين الذل في الحضرة الربانية، يشهد على هامة ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، ويقرأ من صحيفة كل ذرة مخلوقة: ﴿**أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف:٥٤].

يقف عند حده، ويبسط على تراب الأدب بساط خده، ويمر في أثناء سيره على عقبات الآيات، فينصرف عنها إلى المعبود، قال تعالى: ﴿**وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ [الكهف:١١٠].

فصاحب الدرجة الأولى: محجوب، وصاحب الدرجة الثانية: محب، وصاحب الدرجة الثالثة: مشغول، وصاحب الدرجة الرابعة: كامل.

وفي كل درجة من الدرجات المذكورات درجات كثيرة تظهر للعارف من حال الرجل.

وأما درجات العلماء والفقهاء:

فالدرجة الأولى: درجة رجل طلب العلم للمباراة، والجدال، والتفاخر، وجمع المال، وكثرة القيل والقال.

والدرجة الثانية: درجة رجل طلب العلم لا للمناظرة، ولا للرئاسة، ولكن ليحسب في إعداد العلماء، فيمدح بين أهله وعشيرته، وأهل قريته مكتفيًا بهذا المقدار، متمسكًا بالظاهر لا غير.

=

=

والدرجة الثالثة: درجة رجل حل عويص المشكلات، وكشف دقائق المنقولات والمعقولات، وغاص بحور، مضمرًا الهمة لنصرة الشرع في أحواله، إلا أنه أخذته عن العلم على من هو دونه، وإذا انتصر للشرع وعورض بدليل اختطفته نصرة نفسه فأفرط، وأقام الأدلة على خصمه، وشعَّ عليه، وربما كفَّره، وطعن فيه، وهجم عليه هجوم الحيوان المفترس، مع عدم رعاية الحد المحدود شرعًا في كل حال من أحواله، وأحوال خصمه.

والدرجة الرابعة: درجة رجل علمه الله فنصب نفسه لتنبيه الغافل، وإرشاد الجاهل، وردِّ الشارد، ونشر الفوائد، والنصيحة، وإنكار ما يُنكر شرعًا، وقَبول ما يُقبل شرعًا بحسن التجرُّد من الغرض، يرى أن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع.

يأمر بالمعروف أمر حكيم غير غليظ ولا فظ، وينهى عن المنكر نهي مشتق غير ظالم ولا عاد.

فصاحب الدرجة الأولى: سيء، وصاحب الدرجة الثانية: محروم، وصاحب الدرجة الثالثة: مغرور، وصاحب الدرجة الرابعة: عارف.

وفي كل درجة من الدرجات المذكورات كذلك درجات تظهر في حال الرجل والمعصوم من عصمهُ الله انتهى.

فانظر ما أجمل هذا التفصيل الحسن، فإنه إذا فقه استوفى مراتب الصوفية، والفقهاء وتدبَّر كيف التفت مخاطبًا إن أشاع ثمرة العلم، وطلب عزه، فقال له: كيف يصح لك عز العلم الذي هو بركة العمل التي تنتج العلم اللدني بشاهد قوله ﷺ:

«من عَمل بما يعلم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

وأنت كسوت علمك ثوب الذِّل والإهانة، بترك العمل والانحراف عن الطريق المستقيم، الذي يوصل أهل العلم بالله إلى الله.

وهذا عين مضمون البيت المنسوب إلى الإمام الشافعي ﷺ وهو:

ولَــو أنَّ أهْــل العِلم صَانُوه صَانهم ولَــو عَظَّمُــوه في الــــنفُوس لَعُظِّمُوا

فتعظيمه في النفوس إنما هو تعظيم شعائر الله، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

ومن كان عالمًا بالدنيا، جاهلاً بالآخرة، فهو مبغوض عند الله بدليل قوله ﷺ:

«إن الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة».

فالله نسأل، وبرسوله العظيم نتوسل أن يجعلنا من العالمين العاملين المقبولين عنده، المرضيين، إنه أرحم الراحمين. وانظر: قلائد الزبرجد (ص١١٤) بتحقيقنا.

أَيُّهـا المـنكحُ الـثُّريَّا سُـهيْلاً عَمـرك اللهُ كَـيفَ تَجـتمعَان
هِـي شَـامِيةٌ إذَا مَـا اسْـتقلَّتْ وسُـهيْلُ إذَا اسْـتقَلَّ يَمَـان

فإن أردت أيُّها الأخ الاستقامة في هذا الطريق، وقلبك عن القواطع مَصون، تتخلَّق بمقام التوكُّل، وتحقَّق معناه؛ كي لا تقطعك الظنون.

قال ﷺ:

٤٣- التوكُّل وثوقك بالمضمون، واستبدال الحركة بالسكون.

التوكُّل: اعتمادك على مولاك، ورجوعك إليه، وخروجك عن حولك وقوتك، وانطراحك بين يديه.

التوكُّل: التفاؤل بعلم الله فيك عن تعلُّق القلب بسواه، ورجوعك في أمورك إلى الله.

عِبارَاتـنَا شَـتَّى وحَسبُك وَاحدٌ وكـلٌّ إلى ذَاكَ الجَمَّـالِ عِـيلُ

فالحاصل أن مَن علم أن مولاه أمره بالتوكُّل حيث قال تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾ [الفرقان:٥٨]، ثم زاد سبحانه وضمن له على الكفاية حيث قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣]: أي كافيه وناصره، وزاد بفضله ووعده عليه المحبَّة حيث قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران:١٥٩]، لزمه أن يثق بما ضمن له مولاه، ويستبدل حركته بالسكون؛ حيث علم أن الحق هو الذي يرعاه، ومَن مازج لحمه ودمه ذلك اعتمد على الله، ورجع إليه، وخرج عن حوله وقوته، وانطرح بين يديه، واكتفى بعلم الله فيه، وصار له ذلك جنة عاجلة، وله فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، فما نظره إلا لأجله.

كَانَـت لِقلْـبِي أهْـوَاءٌ مُفـرَّقةٌ فَاستُجمعتْ إذْ رَأتْ الْعيْنُ أهْوَاءه
تَركْـتُ للـنَاسِ دُنيَاهُم ودِينَهُم شَـغلاً بحـبِّكَ يَا دِينِي ودُنيَاي
وصَـارَ يُغـبِطَنِي مَن كُنتَ أغْبطَهُ وصِـرتُ مَولَى الوَرى إذ صرت

فهنيئًا لك يا أخي إن ظفرت بهذا المقام، وسِرْ مع هذه القافلة، وأحسن الصحبة مع الخواص والعوام.

قال الشيخ ﷺ:

٤٤- أنصف الناس من نفسك، واقبل النصيحة ممن دونك؛ تدرك شرف المنازل.

أنصف الناس من نفسك، وإن لم ينصفوك، وأوف لهم حقوقهم وإن لم يوف حقوقك وجَفوك، وقابل سيئاتهم بالحسنات، وصل مَن قَطعك، وأطعم مَن حرمك، واعفُ عمَّن ظلمك؛ تحز أعلى المقامات، واقبل النصيحة من كل واحد، وإن كان دونك، وخُذْ الحكمة من كل مَن تسمعها منه؛ «**فإن الحكمة ضالة المؤمن**»[1]، ومَن وجد ضالته أخذها من أي مكان، فإذا فعلت ذلك كنت متواضعًا.

كما قال الفضيل ﷺ[2]: التواضع قبول الحق من كل أحد، ومَن تواضع

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥١)، وابن ماجه (٢/١٣٩٥).
وأمَّا الحكمة: فلها معاني متعددة، وعند الطائفة هي: الفهم عن الله والمشهور وضع الشيء موضعه من حيث حصول المناسبة المخصوصة الكاملة المجهولة الكيفية.

(٢) قال المناوي: هو الناقل من المهالك إلى الحصون والرياض، وهو التميمي الخراساني شيخ الحرم، كان من الخوف نحيفًا، وللطواف أليفًا، وقد قال: التصوف المبادرة في السفر، والمسامرة في الحضر، وكان إمامًا ربانيًا صمدانيًا قانتًا زاهدًا عابدًا عظيم الشأن شديد الخوف دائم الفكر. ولد بسمرقند، ونشأ بآمورد، مات بمكة. وكان أولاً يقطع الطريق فعشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع هاتفًا يقول: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فتاب وهام على وجهه.

وقال: مكثت في جامع الكوفة ثلاثًا لم أطعم طعامًا فهزني الجوع في الرابع، فدخل المسجد رجل مجنون بيده حجر كبير وفي عنقه غل ثقيل والصبيان من خلفه فجعل يجول في المسجد حتى جاءني فجزعت منه وقلت: إلهي جعلتني وسلطت علي من يقتلني، فالتفت إلي وقال:

محلُّ بيان الصَّبر فيــك غريــزةٌ   فيا ليتَ شعري هل لــصبرِك آخــرُ

فزال جزعي وطار هلعي، وقلت: يا سيدي، لولا الرجاء لم أصبر، قال: فأين مستقر الرجاء منك؟ قلت: بحيث مستقر هموم العارفين، قال: أحسنت يا فضيل، إنما لقلوب الهموم عمرتها، والأحزان أوطانها، عرفته فأنست به وارتحلت إليه، فعقولهم صحيحة وقلوبهم ثابتة. ثم ولى وهو ينشد أبياتًا- قال فضيل: فبقيت عشرة أيام لا آكل ولا أشرب وجدًا لكلامه.

ومن كلامه: إذا أحب الله عبدًا أكثر همّه وغمّه، وزوى عنه حتى لا يجد عشاءً ولا غداءً إلا
=

=

قدر شَرك، وإذا أبغضه وسع دنياه وفرحه بما آتاه وشغله بها عنه.

وقال: إني لأنصرف من صلاتي وأنا مستح من الله أكثر من استحيائي إذا شربت خمرًا.

وقال: لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليّ على ألاّ أحاسب عليها لتقذّرتها كما يتقذّر أحدكم الجيفة.

وقال: نرى ترك العمل للناس رياء والعمل لأجلهم شركًا.

وقال: إني لأعصى فأعرف ذلك في سوء خلق خادمي وحماري.

وقال: أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة به، وأوحى الله إلى أحد أنبيائه: إذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

وقال: طوبى لمن استوحش بالخلق وأنس بالحق.

وقال: من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عرفه من طريق الخوف انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عرفه من طريقهما معًا أحبه وقربه ومكنه وعلمه، ومن عرف الله حق المعرفة فهو بعيد من الضلال، ومن أنـــزل الموت حق منـــزلته لم يغفل عنه.

وقال: أهل الفضل هم أهله ما لم يروا فضلهم.

وقال: إذا اغتابك عدوك فهو أنفع لك من الصديق فإنه كلما اغتابك أعطاك من حسناته.

وقال: من أعطي فهم القرآن أعطي علم الأولين والآخرين.

وقال: لو قيل لي: أمير المؤمنين داخل عليك فسويت لحيتي، خفت أن أُكتب في جريدة المنافقين.

وقال: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

وقال: كانوا يراءون بما يعملون والآن يراءون بما لا يعملون.

وقيل له: ما لنا لا نرى خائفًا؟ قال: لو كنت خائفًا لرأيت الخائفين؛ لأن الثكلى لا يراها إلا ثكلى.

وقال: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

وقيل له: إن عليًا ابنك يقول: وددت إني بمكان أرى الناس ولا يروني، فبكى وقال: ويح علي، أفلا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروني.

وقال: ابعد من القراء ما استطعت؛ فإنهم أن أحبوك مدحوك بما ليس فيك فغطوا عليك عيوبك، وأن أبغضوك جرحوك زورًا وبهتانًا وقبل الناس منهم ذلك.

=

=

وقال: إذا أقبل الليل فرحت به وقل أخلوا بربي ولا أرى الناس، وإذا طلع الفجر استرجعت كراهة لقائهم.

وقال: إني لأجد للرجل عندي يدًا إذا لقيني لا يسلم علي، فإذا مرضت لا يعودني وقال: من حرم العقل فليصب العمل، فإن حرمهما فالموت خير له.

وقال: لو خيرت بين أن أبعث فادخل الجنة وألا أبعث اخترت ألا أُبعث.

وقال: لو خيرت بين أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لاخترت ألاّ أراها.

وقال له رجل: كيف أصبحت؟ وكان يثقل عليه ذلك فقال: في عافية، قال: كيف حالك؟ قال: عن أي حال تسأل: عن حال الدنيا أو الآخرة؟ أما الدنيا: فقد مالت بنا وذهبت كل مذهب.

وأما الآخرة: فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه وضعف عمله وفني عمره و لم يتزود لمعاده و لم يتأهب للموت؟ وقال: من أحب أن يُذكر لم يُذكر ومن كره أن يُذكر ذُكِر.

وقال: عامل الله بالصدق في السر، فإن الرفيع من رفعه الله لم يضره شيء- ومن خاف غيره لم ينفعه شيء.

وقال: وعزته وجلاله لو أدخلني النار وصرت فيها ما أيست منه.

وقال: ليست الدنيا دار إقامة، وإنما هبط آدم إليها عقوبة- ألا ترى كيف يزويها عن أحبابه ويمررها عليهم مرة بالجوع ومرة بالعري ومرة بالحاجة؟.

وقال: كثير من العلماء زيه أشبه بزي كسرى وقيصر منه بزي إمام المرسلين، فإنه لم يضع لبنة على لبنة ولكن رفع له علم فشمر إليه.

وقال: إنْ قيل لك: حب الله أو تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم وليس وصفك وصف المحبين الخائفين، فاحذر المقت.

وقال: ما بكت عين عبد قط حتى يضع الرب سبحانه يده على قلبه، ولا بكت عين إلا من فضل رحمة الله. وقال: ليكن شغلك في نفسك لا في غيرك، ومن كان شغله في غيره فقد مكر به.

وقال: النظر إلى صاحب بدعة يورث العمى.

وقال: ما تزين العباد بشيء أفضل من الصدق، إن الله يسأل الصادقين عن صدقهم فكيف بالكاذبين؟ وقال: إنما جعلت العلل ليؤدب بها العباد- ليس كل من مرض مات.

وقال: كم من قبيح يكشف يوم القيامة غدًا. ومرض فحبس بوله فقال يحيى: إياك ألا أطلقته فشفى حالاً.

=

فَالــنَّفْسُ لاَ تَــرْجَع عَــنْ غَيِّهَا حَــتَّى يَكُــنْ مِــنْهَا لَهَــا زَاجِرُ

فلا يرجع القلب عن هواه حتى يقع في القلب مولاه، كما قال أحدهم: خاطبني الحق من جناني فكان وعِظي من لساني، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أوقع في قلبه بذر اليقظة والانتباه، وأنبت من ذلك البذر غرس الإرادة ونمَّاه، وأورق أغصانه بحسن الاستقامة، وأينع ثماره، وأجزل له الكرامة، وجعله من العبيد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وأدخله في دائرة أوليائه الذين: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٢٦٢]، فكل ذلك من عمارة القلب بذكر الله.

قال ﷺ:

٤٦- توكَّل على الله حتى يكون الغالب ذكره على ذكرك، فإن الخلق لن يغنوا عنك من الله شيئًا.

إذا علمت أن ذكر الله أصل كل السعادات فأقبل عليه بكلك، واستغرق في تلك الأوقات، فإنه قد ورد في الحديث: «**إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة لا يتحسَّرون إلاَّ على ساعة مرَّت بهم في الدنيا بغير ذِكر الله تعالى**»(١).

فالسباق السباق يا أخي إلى هذه الفضيلة، واغتنم الفرصة لنيل هذه المرتبة الجليلة، وصحِّح مقام توكُّلك حتى يكون الغالب عليك ذكره، وكُنْ عبده، وامتثل نهيه وأمره، وحاسب نفسك، وضيِّق عليها بالمعاتبة.

قال ﷺ:

٤٧- بالمحاسبة يصل العبد إلى مقام المراقبة.

فإنها أصل الطريق كله، ومداره على المحاسبة، فمَن أتقنها وصل إلى درجة المراقبة.

فينبغي للسالك أن يجعل لكلِّ يومٍ وقتًا يحاسب نفسه فيه، وأحسن الأوقات

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩٣/٢٠)، والبيهقي في الشعب (٣٩٢/١)، بنحوه.

لذلك بعد العصر؛ لكونه آخر النهار، وبعد الصلاة الوسطى، فينظر ما مرَّ له في نهاره كله، فإن كانت طاعات فيشكر الله ويحمده حتى يكون ذلك سببًا للمزيد، وإن كانت سيئات، كما هو شأن الغالب على أمثالنا؛ فيستغفر الله من ذلك، ويغسله بصابون الاستغفار، وليدفع عنه وسخ بلاء الأوزار، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣] (١).

---

(١) **فائدة في معنى الآية**: قال سيدي إسماعيل حقي: المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لإصفاء أمته؛ فيكون كقوله: «لولاك، لولاك لما خلقت الأفلاك»؛ فإن المراد به: لولالك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.
ومَن ذَهل عن هذه الدقيقة؛ وهم الفقهاء المحجوبون؛ منع صحة تلك المقالة، وزعم أن فيها تحقيرًا لسائر الأنبياء - عليهم السلام -.
وأمَّا قول المرتضى كرَّم الله وجهه: كان في الأرض أمانان، فرُفع أحدهما، وبقي الآخر، فأمَّا الذي رُفع؛ فهو رسول الله ﷺ، وأمَّا الذي بقي؛ فالاستغفار.
وقرأ بعده هذه الآية.
فالمراد به: الأمان الكامل، فإنه لا شك مرفوع عن هذه الأمة، وبقي ما دونه من بعض الأمان؛ وهو ما حصل بوجود الورثة في كل عصر حتى أنه قد يحصل لبعضهم التألُّم من وجود بعض المصرِّين، فيقال له: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم.
وقد يرتفع الأمان حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، كما ارتفع من أهل بغداد حين استولى عليهم هولاكو الكافر الجنكيزي حتى استأصَّلهم مع وجود كثير من الورثة فيهم على أنهم استشهدوا أيضًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فلهم في ذلك رفع الدرجات، وتكميل مراتب المحبية، والمحبوبية، ولِمَن فعل بهم ذلك من الدركات، وتنـزيلهم في أسفلها؛ لأنه اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبيًا، أو قتله نبي.
وأولئك الأصفياء من حيث ورثهم في حكم الأنبياء؛ ولذا يغضب الله لهم كما يغضب الأسد لشبله، فقد يكون الرحمة في صورة الغضب، وقد يكون الأمر بالعكس، نسأل الله لطفه وكرمه.
والمراد بالتعذيب الثاني هو: التعذيب الأخروي الذي دخل فيه التعذيب الروحاني، وذلك إن الاستغفار طلب ستر النفس بالأنوار الروحانية حتى لا يلحقها عذاب من الظلمات الطبيعية،

فلذلك قال العارفون: ينبغي للسالك أن يستغفر الله عقب صلاة العصر سبعين مرة، ويذكر في أثناء استغفاره ما مرَّ له من السيئات، ويستغفر منها، بل وما مرَّ له من الطاعات؛ لأنها من الذنوب عند المتصف من أهل المعاملات، أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته.

سأل شخصٌ الشيخ السهروردي ﷺ: إني إن عملت وقعت في الرياء، وإن

=

فكل عذاب جسماني أو روحاني؛ فإنما يلحق المعذَّب به من جهة نفسه المظلمة المنكدرة، فإذا استنارت النفس بالأنوار القلبية الروحانية؛ خَلُصت من العذاب مطلقًا.
فظهر أن العذاب من النار، وكما أن النعيم من الجنة، فنار عاجلة وآجلة، وكذا النعيم.
وإلى ما قلنا أشار قوله: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].
فإن حال الحضور ليس كحال الغيبة، فإذا فني العبد عن نفسه، وبقي بالله تعالى؛ استراح كحال أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه؛ ولذا كان لا يقطعه السيف، وهو مع الله تعالى في حال غيبته عن الحسِّ.
فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٣] إلخ.
كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنـــزلة الوجود المحمَّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتُّل إليه.
فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره؛ يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.
فإن الله تعالى معه مع استمالة الجمالية؛ لكونه خارجًا عن دائرة الغضب، كما أشار إليه غير المغضوب عليهم ولم يبقَ الجلال إلا في باطنه بالقوة، وقد يظهر ذلك الجلال في أولاده بصورته وحقيقته، نسأل الله تعالى الأمان من العذاب، والجلال مطلقًا في حق النفس، وفي حق صورها من الأولاد. انظر: مرآة الحقائق (ص٢٠٠).

تركت العمل وقعت في التعطيل، فماذا أصنع؟

فقال له: اعمل واستغفر، وعد طاعاتك من جملة سيئاتك، فمثل هذه الطاعة تكون أقرب إلى القبول، ويشهد لذلك استغفاره ﷺ عقب الصلاة ثلاثًا.

فمَن حاسب نفسه هذه المحاسبة تزكّت جوارحه، وطهّر قلبه، وتجلّى عليه ربه، وراقب الله، وصار يعبده كأنه يراه، فحينئذٍ يرق قلبه، ويحزن ويتأسَّف على تقصيراته في كل زمن.

قال ﷺ:

٤٨ - فقد الأسف والبكاء في مقام السلوك علم من أعلام الخذلان.

إذا علمت أيُّها السالك ذلك فاغسل بماء النواظر الخدود، وتأسَّف على ما مرَّ لك في ذلك الزمن من نقض العهود.

وقل بلسان ذلَّتك وانكسارك، معفرًا محياك على عتبة مولاك، ناظرًا لضعفك وافتقارك:

ذُنوبِــي ثِقَــال فمَـا حِيلَـتِي إذَا كُنْـتَ فِـي الحَشْـرِ ممَّا لَهَا
فَسَامِحْ إلَهِـي عَـبدًا عَصَـى وعَامِلـه بِـاللطْفِ يَقْـوَى لَهَا

وقُلْ أيضًا وناجِ وتضرَّع لمولاك في ظلم الدياجي: ألاَّ يا الله بنظرة من العين الرحيمة تداوي كل حالي من أمراض سقيمة، فإذا أكثرت من أمثال هذه المناجاة، وتضرَّعت بظاهرك وباطنك في جوف الليالي، وأوقات الأسحار، وجدت العبرات من عينيك هاطلة، ورأيت الفيوض الإلهية على قلبك نازلة، فحينئذٍ يبلي قلبك الشهوات، ويتعافى من أمراض الخطيئات.

كما قال ﷺ:

٤٩ - إذا سلا القلب عن الشهوات فهو معافى.

إذ المرض عند أهل البصيرة إعراض القلب عن مولاه، وإقباله على شهوته وهواه، فإذا أعرض القلب عن الشهوات وسألها، كان ذلك دليلاً على عافيته وبلوغه من الصحَّة منتهاها.

...و قلبك يا أخي بسكنجبين[1] الإقبال، واشرب على ذلك شربة من حسن ... مع مولاك في الأفعال والأقوال، واحمِ جوارحك من سائر المخالفات، ... في ذلك بأولياء الوقت من أهل المعاملات، وأسرع إلى مولاك، وتذلّل له؛ ...ـرّ لك النفس حتى تشهد المرّ كالعسل.

... ﷺ:

...- مَن لم يستعنْ بالله على نفسه صرعته.

... عداوتها قوية، وشهوتها سبعية، وأنت محتاج إلى مداراتها؛ لأنها عطيّتك في ... كيف يكون حال مَن يريد أن يكون السبع مطيّته؟ فكيف الحيلة كمَن يريد ... صارت الوحشة طبيعية، فليس له ملجأ ولا منجى إلاّ مولاه يدفع عنه هذا ... تحصين بحضرة لا إله إلاّ الله، ولا يظفر بزمامه، ويقوده حيث شاء إلاّ ...

... مَن أطاع الله أطاعه كل شيء، وأول الأشياء نفسه وجوارحه، فتوافق ... طاعات، وتصير حينئذٍ مطيّته الذلول، وذلك عند أهل المعرفة من أعظم ... فلا تستغرب تسخير الوحوش في البرية؛ ولكن استغرب تسخير هذه ...

... قال بعض العارفين من أهل الله: ليس الشأن أن تُطوى لك المسافة ... ن في مكة أو نحوها؛ إنما الشأن أن تُطوى لك أوصاف نفسك، فتكون ... مطلب العارفين من الله تعالى هذا المقام لا خرق الغواية المشغول بها ... بالتخلّق بآداب أهل المعاملات؛ لعلّك تصل إلى منتهى النهايات.

... :

... مَن لم يقم بآداب أهل البدايات كيف يستقيم له دعوى مقام أهل ...

---

[1] ... أدوية الطبيعية، من الصموغ.

الطريق كله أدب، فمَن فارق الأدب انفصل وحصل العطب، وكلَّما ازداد السالك كمالاً وقربًا ازداد عبودية وحبًّا، وكلَّما صفت القلوب ازدادت الجوارح خدمة للمحبوب، وتلذَّذ بالطاعات، كما يتلذَّذ غيره بالطاعات، وصفت له المعاملات، وذهبت عنه المشقَّة، وتخلَّص من الكدورات، يُحيي الليالي الطوال بطول القنوت، ويتلذَّذ بمناجاة الحيّ الذي لا يموت، مقتديًا في ذلك بمورثه الذي قام حتى تورَّمت منه الأقدام.

فقيل له: كيف تفعل ذلك، وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك، وما تأخَّر؟.

فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

فدلَّ قوله ﷺ على أن الشكر هو القيام بآداب الخدمة، وأن الكامل مَن لزم طريق بدايته، واستوفى الخدمة؛ فلذلك لم يترك الجنيد ﷺ ورده عند النـــزع، فقيل له في ذلك، فقال: ومَن أولى منّي بهذا في هذا الوقت، وهذه صحائفي تُطوى.

فإذا عرفت ذلك أيُّها الأخ فتفرَّغ للخدمة؛ تكن من النُّسَّاك، وأعرض عن القواطع، واجتهد في عبادة مَن رزقك وأعطاك.

قال ﷺ:

٥٢- اطرح الدنيا على مَن أقبل عليها، وأقبل على مولاك، ومَن يتفرَّغ من أشغال الدنيا؛ أشغله الحق بالخدمة.

لما حرَّضك أيُّها السالك على القيام بآداب الخدمة، وشوَّقك إلى ذلك، وبيَّن لك أن الرفعة في لزوم الخدمة شرعٌ يُبيِّن لك طريق الوصول إلى ذلك، وكيف يستهل عليك السلوك في تلك المسالك، وذلك بطرح الدنيا على أربابها، والإقبال على مولاك بعدم الاشتغال بأسبابها، فمَن تفرَّغ في أشغال الدنيا؛ أقامه الحق في خدمته، وبلَّغه الرتبة العُليا.

وما أحسن ما قال بعضهم :

---

(١) رواه البخاري (١٨٣٠/٤)، ومسلم (٢١٧١/٤).

إن لله عـــــبادًا فطـــــنًا ... أَطْلَقُــوا الدُّنــيَا وخَــافُوا الفتنَا
نَظَــرُوا فِــيهَا فَلمَـا أنْ رَأُوا ... أَنَّهَــا لَيســت لِحــيٍّ وطــنَا
تَـــزكُوهَا لجُــــةً واتَّخـــذُوا ... صَــالحَ الأعْمــالِ فِــيهَا سُــفنَا

وقال آخر:

وهْــبكَ بَلغتَ المُلْكَ فِيهَا أَلَمْ تَكُنْ ... لِتَــنــزَعه مِــن فِيك أعْدَى المَنيَّة
ولَــو نُلتَ مِنهَا مَالَ قَارُون لَمْ تَنلْ ... سِــوى لُقمَةٍ فِي فِيكَ مِنهَا وخِرقَة

فأعرض أيُّها الأخ عن هذه الدنيا الدنيَّة، وتوجَّه لنيل المراتب العليَّة، واقطع العلائق، واجتهد في خدمة الخالق الرَّازق، وطهِّر قلبك من الأغيار، ولا تُدنسه بذكر جنة ولا نار.

٥٣- شتَّان بين مَن همَّته الحور والقصور، وبين مَن همَّته رفع الستور ودوام الحضور.

أي فرقٌ بعيدٌ بين مَن يقصد بعبادته الحور والقصور في الجنان، وبين مَن يخدم مولاه؛ لرفع الحجب، ونيل مقام الإحسان، ذلك لم يرتفع بهمَّته عن مفارقة الأكوان، وهذا انفصل عنها بهمَّته العالية إلى حضرة مَن: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩].

كما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال ﷺ: «**فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»[1].

فلا تلتفت في سرِّك يا أخي إلاَّ إليه، ولا تنظر إلى حال ومقام، واجعل همَّتك مقصورة عليه.

قال رضي الله عنه:

٥٤- العبد مَن انقطعت آماله إلاَّ من عند مولاه.

(١) تقدم تخريجه.

فاقطع آمالك يا أخي مما سواه، واستوفي مقام عبوديتك تكن عبد الله، وأعرض عن الأغراض، وارضَ بما قسم به المولى، ولا تجنح بهمّتك إلى الإعراض، فحينئذٍ تكون من عباد الله الصالحين، قد أعدَّ لك: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(١).

أخبر بذلك سيد المرسلين، فهنيئًا لمَنْ تجرَّع من هذه المدامة جرعة، ثم بُشرى لَمن أنصت لهذه الفوائد، وأحضر قلبه، وشقَّ سمعه، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق:٣٧].

فأتح مطايا همَّتك أيُّها الأخ بساحة هذا الشأن؛ تكن من المحفوظين، وتُحشر في زمرة الأحباب.

قال ﷺ:

٥٥- المحفوظون على طبقات: محفوظٌ عن الشرك والكفر بالهداية، ومحفوظٌ عن الكبائر والصغائر بالعناية، ومحفوظٌ عن الخطرات والغفلات بالرعاية(٢).

شرع ﷺ يبيِّن مراتب السائرين إلى طريق الله، وإن الكلَّ محفوظٌ بفضل مولاه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النور:٢١].

فالقسم الأول: أهل البداية؛ وهم المحفوظون عن الشرك والكفر بالهداية، فلو لم يمن الله عليهم بالهداية لما أسلموا.

قال أحد العارفين: لو أن جميع الأدلة العقلية والنقلية تظهر للإنسان لا تفيده شيئًا ما لم تحل على قلبه عناية الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأنعام:١١١].

(١) رواه البخاري (١١٨٥/٣)، ومسلم (٢١٧٤/٤).

(٢) وفي نسخة بـ(العيان).

وهؤلاء اليهود كانوا يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وما أفادهم ذلك شيئًا لما لم تحل عليهم العناية، ولم تشملهم الهداية.

والقسم الثاني: المتوسطون؛ وهم أهل السلوك من القوم، محفوظون عن الكبائر والصغائر بمحض العناية، وإن المعصية لهم كبيرها أو صغيرها، محوها وغسلوها بالاستغفار إلى الغاية، لا يزالون في قطع المنازل، ولم يبرحوا واردين كل يوم منهلاً من المناهل، يستبقون بالدلجة في قطع تلك القفار، ويستبقون مطاياهم في دياجي الأسحار.

والقسم الثالث: أهل النهاية؛ وهم المحفوظون عن الخطرات والغفلات بالرعاية، إذا صارت قلوبهم ومعاملاتهم قلبية، وحركاتهم وسكناتهم خفية، يقطعون في ساعة ما يقطعه غيرهم في الدهور، والذرَّة من أعمالهم تزن الجبال، خرجوا عن حولهم وقوتهم إلى حول مولاهم وقوته، وأعرضوا عن السوى فأكرمهم بعامل جنته، طهَّر قلوبهم عن ورود الخواطر والغفلات، فهم الأحرار قد تحقَّقوا بمقام الرِّضا، وانتفى عنهم الإعراض في الحال، وما سيأتي وما مضى.

قال رضي الله عنه:

٥٦- مَن أعرض عن الأعراض أدبًا فهو الحكيم المتأدِّب.

إذ الاعتراض؛ إنما يكون لكمال شهود التوحيد، ورؤية الله تعالى في كل شيء، فمَن شهد هذا المشهد؛ فهو الحكيم المتأدِّب، ومَن شرب هذا المشرب؛ فقد رُوي من صافي الشراب، واستعذب، ومَن تخلَّق بهذه الأخلاق؛ يشهد الألطاف في الشدائد، ويستعذب المؤمن الضر لما يرى فيه من الفوائد:

مَـن لَمْ يَذقْ ظُلمَ الحَبيبِ كظُلمِه عَذبًـا فَقَـدْ جَهِـلَ المَحبَّةَ واعْتَدَا

إن أعطى شهد في العطاء مرة، فإن منع شهد في المنع مرة، فهو في الحالين ناظر إلى تعرف مولاه، ومشاهد إقباله عليه، ومَن كانت هذه حاله؛ استوت عنده السراء والضرَّاء، والمنع والعطاء، وصار موطنًا في كل مكان، وغنيًّا بلا درهم ولا دينار، وكان بغير جند ولا أعوان.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: إن أردت ملك الدَّارين؛ فادخل في طريقتنا هذه يومًا أو يومين، فإذا أردت يا أخي الملك المهني؛ تنال فوق ما تمنَّى.

قال ﷺ:

٥٧- المحَبَّة: الأُنس بالله، والشوق إليه.

الأُنس بالله يتحقَّق بدوام ذكره، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وتطهير القلب عن الشواغل، ودوام الخدمة في البكور والآصال.

والشوق إليه يتحقَّق بالتهالك في كل هذه المسائل، وهجران إخوان السوء، ورفع العوائق حتى لا يكون شعاره ودثاره، وفكره وورده، وغذاؤه وشربه، ومحياه ومماته، وصلاته ونسكه إلاَّ في خدمة مولاه، وبالقرب في غدوه وآصاله:

لَو أنَّ رُوحِي فِي كَفِّي وَجدْتُ بِها ... عَلى اليَسِيرِ بِكمْ يَا مَن هو أمَّة
مَا إنْ وَفّيتَ بِبعضٍ مِن حُقوقِكم ... وصِرتُ مِن عَدمِ الاتِّصافِ فِي مَحلّ

وما أحسن ما قال هذا العارف:

مَن ذَاقَ طَعمَ شَرابِ القَومِ يَدرِيه ... ومِن دَارِه غَدا بِالرُّوحِ يُشْرِيه
ولَو تَعوَّض أرْواحًا وجَاد بِها ... فِي كلّ طرفَة عَينٍ لا تُساوِيه
وذُو الصَّبابةِ لَو يُسقَى عَلى عدَدِ ... الأنْفاسِ والكَونُ كَأسٌ لَيسَ يَرْوِيه
يُروَى ويَظمأ لا يَنفكّ شَارِبُه ... يَصحُو ويَسكَر والمحْبُوبُ يُسقِيه

فيا أيُّها المتعطِّش لهذه المشارب، ويا مَن يريد قرب الحبيب، ونيل هذه المطالب:

٥٨- شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له.

فإنك إذا ما شاهدت مشاهدته لك، وعرضت عنايته فيك، وإنه معك على الدوام، ناظرٌ إليك بلطفه، مقبلٌ عليك بفضله، انتهت همَّتك إليه، وخجلت من إعراضك عنه، وقلت في نفسك: إذا كان ملك بهذه العظمة والجلال والاستغناء عنك ينظر إليك، ويقبل عليك؛ فكيف يسوغ لك أيُّها الضعيف الحقير الاشتغال

بسواه؟ وكيف تفتر لحظة عن خدمته؟ وكيف لا يحصل لك الانتباه؟.

وتقول بلسان حالك وقالك في بكورك وآصالك: إلهي ما أعظم جهلي! وما أرحمك بي مع لطفك مع قبيح فعلي! ما أقربك مني! وما أبعدني منك! ما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟ خلقتني ورزقتني، وسترتني وجبرتني، وعن العباد بفضلك أغنيتني، وإذا مرضت شفيتني، وإذا دعوت أجبتني، وإذا هربت رددتني أقلتني، وإذا عصيت رحمتني، وإذا أطعت جزيتني.

يا سيدي كُنْ راضيًا عني، فقد أرضيتني، وإذا تمّت لك هذه المشاهدة، وحلّت عليك العناية؛ كانت لك في الطريق أعظم مساعد، واغتنمت حينئذٍ الأنفاس، وحفظت الحواس، فإن أنفاسك جواهر، فأي غنيمة بأعظم من حفظ هذه الذخائر؟.

قوله: (**ولا تشاهد مشاهدتك له**)؛ لأنها موجبة لقطيعتك وحرمانك، وبُعدك عن مقام إحسانك؛ إذ في مشاهدتك هذه الشرك الخفي لإثباتك فعلك، وذلك عين بعدك عن المقام الوفي، فافنَ عن أفعالك في أفعاله تصل، واخرج عن أوصافك في أوصافه تضمحل.

٥٩- مَن لم يخلع العذار لم تُرفع له الأستار.

أي مَن لم يخرج عن القيود الرسمية، ولم يفارق الصفات البشرية؛ لم تُرفع له الحجب، ولا تشرق عليه الأنوار الربّانية، فسبحان مَن ستر سّر الخصوصية في ظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية، فكلّما تحقّق السالك بمقام عبوديته أكثر؛ قطع الطريق بسرعة، وكانت المشاق عليه أيسر.

فما طلب لك أيُّها السالك في هذا الطريق مثل هذا الاضطرار، ولا أسرع لك بالواصف من الذلّة والانكسار، فتحقّق أيُّها الأخ بهذه الصفات تخرج عن أسر النفس والهوى والشهوات.

[ولذا قال رضي الله عنه]:

٦٠- الأسارى: أسير نفس، وأسير شهوة، وأسير هوى.

أشار ﷺ أنك لا تبلغ مقام الأحرار حتى تخرج عن رقّ الأسر، وتفارق هذه الدار.

والأسر أقسام: أسر نفس، وأسر شهوة، وأسر هوى.

وأسر النفس هو الأصل؛ فلذلك قدَّمه عليهما؛ لأنهما المأوى، ولأنهما قد تفارقا لك، وهي لازمة لك على سائر حياتك، فما أشدُّ محاورة عدو قد مازج لحمك ودمك، وما أعسر الخلاص من غريم إن كنت له [أهلكك]، وإن أكرمته ما أكرمك؛ فلهذا كان الجهاد الأكبر هو جهادها، والغنيمة العظمى؛ هو الظفر بها وقطعها وأوتادها، ويحصل هذا الظفر العظيم، ويتم هذا الملك الجسيم بجنود لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، ويقول: لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله.

عَلَيكَ بِذكرِ اللهِ تَظفرْ بِكل مَا ... أَردْتَ مِنَ الأعْداءِ وكلَّ غَنيمةِ
وحَولَ جِيوشِ الذِّكرِ في كُلِّ ساعةٍ ... وجَاهِد بِحولِ اللهِ وانْهضْ بِقوةِ
تَرقَ لَكَ الشَّهوَات والنَّفسُ والهوى ... وتَغدُو مُطيعَات بِأعظَمِ ذِلَّةِ

هذا النصُّ العظيم، وهذا التأييد الذي غناه وملكه مقيم، فاضرع إلى الحق، إن يُظهِر لك حقيقة من حقّه، وأن يؤيدك في ذلك ظهور سمة فيك من صدقه.

٦١- أغنى الأغنياء مَن أبدى له الحق حقيقة من حقّه، وأفقر الفقراء مَن سُتر الحق عنه.

أي مَن أظهر له الحق، وكشف له الحقيقة من فيض فضله عليه، وتعرفه بكرمه، وإحسانه إليه، وفتح له عن قلبه حجاب الغفلة، ودخل سرادقات الحضرة، وتشرَّف بالفناء، وتشرَّب لذيذ كأس الهناء، وحاز مقام المشاهدة والمكالمة، وصار ممن يفتيه قلبه عن ربه، وصار ما كان له غيبًا شاهده، وطوى المنازل والمناهل حتى وصل إلى ما وصل إليه القوم، فذاك أغنى الأغنياء؛ إذ غناه بغنى مولاه، وارتفاعه بارتقائه إلى حصن (لا إله إلاَّ الله)، ومَن كانت هذه كنوزه وذخائره كيف لا يُغنى، ومَن تحصَّن بحصن (لا إله إلاَّ الله) كيف لا يرتقي وينال الملك المهنَّى.

ومَن ستر عنه الحق ذلك، ولم يتفضَّل عليه بذرَّة مما هنالك؛ فذلك الواقع في

أعظم المهالك، فلا عذاب عند أهل البصيرة أشدُّ من الحجاب، ولا نعيم عند أهل القلوب أعظم من الحضور، والشرف بلذيذ الخطاب.

قال أبو يزيد ﷺ(١): رأيت أشدّ ما يُعذّبني الله، فلم أرَ أشدّ من الغفلة.

وقال أيضًا: إذا أعطاك حلاوة من ذكره؛ فما تريد بالجنة؟!.

فأشدُّ العذاب: وجود الحجاب.

وأتمُّ النعيم: النظر إلى وجهه الكريم.

فاجتهد أيُّها الأخ في إصلاح قلبك؛ حتى يميل إلى هذه المنازل ويشتاق، واحذر أن تفرِّط في ذلك، فيخلى قلبك مما امتلأت منه قلوب العُشَّاق.

---

(١) اسمه طيفور بن عيسى، مات سنة إحدى وستين ومائتين.
ومن كلامه: مددت رجلي ليلةً في محرابي، فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.
وسُئل عن السُّنة والفريضة، فقال: السُّنة: ترك الدنيا بأسرها، والفريضة: الصحبة مع الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن السُّنة كلها تدل على ترك الدنيا، والكتاب كله يدل على صحبة المولى.
وكان يقول: رأيت رب العزة تبارك وتعالى في النوم، فقلت: يا رب كيف السبيل إلى الوصول إليك؟ فقال: فارق نفسك وتعالَ إليّ.
وقيل له: متى يكون الرجل متواضعًا؟ فقال: إذا لم يرَ لنفسه مقامًا، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه.
ودخل على أبي يزيد عالم بلده وفقيهها يومًا، فقال: يا أبا يزيد أخذت علمك هذا عن من؟ وممن؟ ومن أين؟ فقال له أبو يزيد: علمي هذا من عطاء الله، وعن الله، ومن حيث قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عمل بما يعلم ورثه علم ما لم يعلم»، فسكت الفقيه.
وسُئل أبو علي الجرجاني عن الألفاظ التي تحكي عن أبي يزيد فقال: يسلم له حاله؛ فإنه يتكلم على حد غلبة، أو حال سكر، ومن أراد أن يرتقي إلى مقام أبي يزيد فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد، فهناك يفهم كلام أبي يزيد ﷺ. وللمزيد انظر: كتابنا في الإمام الجنيد، وروضة الحبور لابن الأطعاني (بتحقيقنا).

٦٢- الخالي من الشوق مؤخَّر، والآيس فاقد المحبة[١].

الخالي من الشوق مؤخَّر؛ إذ لا يسوق السالك إلى حضرته إلاَّ كمال الاشتياق، والآيس فاقد المحبة؛ إذ لا يوجدها إلاَّ حسن الرجال، والتوقُّع لملاذ التلاق، فمَن خلا عن الشوق أخذته مطاياه، ومن آيس من حصول الشوق آثر دنياه على محبَّة مولاه.

فأكثر يا أخي التأمُّل في نعم مولاك حتى يهزَّك الشوق إليه، فتُطرح في محبَّة دنياك، واعلم أن كل نعمة حصلت لك في ظاهرك وباطنك؛ فمن محض فضله، وكل نعمة ارتفعت عنك؛ فمن ألطافه وحسن فعله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: نحن قومٌ لا نحب إلاَّ الله.

فقال له شخصٌ: قد قال جدُّك: جُبلت القلوب على حسب مَن أحسن إليها.

فقال: نحن قومٌ لا نرى المحسن إلاَّ الله تعالى، وهذا هو علامة التوحيد الصحيح، فمَن وجد لم يشهد المحسن إلاَّ الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحد.

وتأمَّل يا أخي ما امتنَّ به مولاك عليك من النعم في سورة الواقعة، وما أيقظك به عظيم فضله؛ لعلَّ تلمع في قلبك من أنوار محبَّته لامعة؛ حيث تفضَّل عليك بإيجادك من العدم، ثم تفضَّل عليك ثانيًا بما تحتاجه من المطعم، ثم تمَّ ذلك ثالثًا بما تستر به تتميمًا للكرم، وأتبع ذلك بالنعمة التي يتم بها لذَّات جميع ما تقدَّم.

فإذا علمت ذلك فكيف يبقى لك يا أخي ميل ومحبَّة لسواه، وإذا فهمت ما هنالك؛ كيف لا تجعل روحك مراعيًا لهذا الفضل، وشيخك في الخدمة وقايةً له، وتتميمًا لعروجه ومسراه.

---

(١) في البيان: (الخالي من الأنس والشوق فاقد للمحبة).

٦٣- للأرواح الرعاية، وللأشباح الوقاية.

أي للأرواح الرعاية لفضل مولاها، ومشاهدة لنعمه التي أنعم بها عليها وأعطاها.

وللأشباح الوقاية؛ لأنها تقيها من التقصير في الخدمة.

إذ لولا الأشباح لِما تيسَّر للأرواح نهضة في الطريق، ولا عزمة، فتلك في الرعاية بدوام الشهود، وهذه في الوقاية بدوام الخدمة والوفاء بالعهود.

فاعرف أيُّها الأخ آداب الطريق، واصحب مَن يرشدك إلى ذلك؛ كي يزيل من قلبك التعويق.

٦٤- نافخ الكير إن لم يحرقك بناره آذاك بشرره، وحامل العطر إن لم يحذك من عطره متَّعك بنشره.

أيُّها السالك احذر في طريقك من صحبة الأشرار، وعض بالنواجذ إن ظفرت بصحبة الأخيار، فإن الرفيق الرديء نافخ الكير إن لم يحرقك بناره آذاك بشرره، كذلك الرديء إن لم يضرَّك بمقاله آذاك وجرَّك إلى الفحشاء بقبح فعاله، والرفيق الخيِّر كحامل العطر إن لم يعطك من عطره متَّعك بنشره، كذلك الخيِّر إن لم ينفعك بمقاله جذبك إلى مولاك بحسن سيرته وفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا كسَّلت في العبادة نظرت إلى محمد بن واسع نظرةً، فأعمل بها إلى أسبوع.

وقال بعضهم: دخلت على ذي النون، فرأيته وأصحابه في المراجعة، فانتفعت برؤيته قبل أن أتشرَّف بمخاطبته، وهكذا كان الصحابة ﷺ ينالون المراتب العليَّة من السلوك بالنظر إلى طلعته ﷺ، وهذه طريقة معروفة عند القوم تُسمَّى بالرابطة؛ وهي رؤية الشيخ، فإنها أشدُّ تأثيرًا من الذكر إذا استجمعت شروطها؛ لأن أنوار قلب العارف تسطع في محياه، ومَن شاهد ذلك النور، وخضع له أحياه، ولذلك قال ابن علوان ﷺ مشيرًا إلى ذلك بقوله:

سَعدتْ أعينٌ رأتكَ وَقَرّتْ وكَذا أعْينٌ رأتْ مَن رَآكَ
مَا يَعرفُ الشَّوقَ إلاَّ مَن يُكابِدُه ولا الصَّبابةَ إلاّ مَن يُعانِيهَا

وجاء شخصٌ أعمى إلى النبي ﷺ فقال: «**هل تجد عذرًا في الوصول إلى الجماعة، فإن الطريق التي أصل بها إلى المسجد كثيرة الهوام والموانع؟ فقال له أولاً: نعم، ثم تركه حتى وصل إلى الباب، ثم ناداه فقال: هل تسمع الأذان؟ قال: نعم، فقال له: لا أجد لك عذرًا**»(١).

فانظر يا أخي إلى هذا الحديث، وتأمَّل دقائقه ومعناه تجد الجماعة للسالك من أعظم مادة، فأقوى مطاياه في هذه المسالك، فأكثر من زادك أيُّها الأخ في الطريق يقوده إيَّاك، تصل إلى محبَّة مولاك بغير تصديق.

قال ﷺ:

٦٥- مَن لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد.

اسمع هذه الوصية يا أخي، وعض بالنواجذ على صحبة مولاك، وعفِّر الخدود على بابه، ولازمه في صباحك ومساك، واقبل بقلبك عليه، واطرح الحول والقوة، وانطرح بين يديه، وقل:

لا أبْرحُ البَابَ حتَّى تصْلحُوا وتَقبلُوني عَلى عَيْبِي ونُقصَانِي
فإنْ رَضِيتمْ فيَا عِزِّي ويَا شُوقِي وإنْ أبَيْتمْ فمَن أرْجُو لِعُصيَانِي

فليس للعبد إلاَّ باب مولاه، ولا ينفعه إلاَّ من بنعمه غذَّاه وربَّاه، فخير مَن تصحب مَن يطلبك لا لشيء منك، وخير مَن يلزم أعتاب مَن يكرمك؛ وهو غنيٌّ عنك، ما صحبك إلاَّ مَن صحبك، وهو بعيبك عليم، وليس ذلك إلاَّ مولاك الكريم، فإن استقمت في صحبته؛ ظفرت بسعادته ودعوته، وإن لم تستقم؛ ابتلاك بصحبة العبيد، وألهم نفسك وهواك، وكل شيطان مريد.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨/٣٠) بنحوه.

فإيَّاك والهمَّة [الخصمة][(١)]، وأعرض عن سواه؛ تظفر بالمراتب العلية، تجرَّد عن العلائق، واقطع العوائق، واخرج عن الأوطان، وسافر في الفيافي حتى تصل إلى مقام الإحسان، وتحظى بصحبة المنـــزَّه عن المكان الذي هو: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]:

تَغَرَّبْ عنِ الأوْطَانِ فِي طَلَبِ العُلا وسَافِر فَفي الأسْفَار خَمسُ فَوائِدِ
تَفــرُّج هَــمٍ واكْتِســابُ مَعيشَةٍ وعَظــمٍ وآدابٍ وصــحبةِ مَا جَد

فإذا قطعت الطريق، ولاحت لك المعالم، وشممت رائحة القرب، وفنيت عن العوالم؛ أشرفت عليك حينئذٍ أنوار الصحبة، وعرفت النفس، فلم تغتر بمدح أهل الرغبة.

٦٦- مَن عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس.

هذا ميزانٌ عظيمٌ لمعرفة النفس؛ إذ الناس لا يمدحونك إلاَّ لما يظنون فيك، وأنت متيقِّن بعيوب نفسك، عارف مساوئك، فكيف يترك العاقلَ المتيقَّن، ويلحظ المظنون؟ أم كيف لا يستفتي قلبه، وإن أفتاه المفتون؟.

فأجهل الناس مَن ترك يقين ما عنده لظنِّ غيره.

وأبعدهم عن الطريق مَن نظر لضرِّه، وجاوز النظر عن غيره.

وعليك باتِّهام نفسك بالإهمال، وإيَّاك أن ترضَ عنها، فإنها غدَّارة، وجانب أيُّها الأخ الدعوة؛ تصفو لك العبودية، وتخلص من البلوى.

٦٧- الدعوى من رعونة النفس، والمدَّعي منازع للربوبية.

الرعونة الحمق، فلولا حمق النفس لِما ادَّعت، ولولا جهلها لِما سعت في هذا المقام ولا طمعت.

والمدَّعي منازع للربوبية؛ إذ هو بدعواه متعدٍّ، مجاوز أوصاف العبودية،

(١) كذا بالأصل.

فأوصاف العبودية فقر وضعف، وعجز وذلّة وانكسار، المدّعي مجاوز ذلك، مثبت لنفسه العزّة والافتخار.

فمن اتّزر بإزار الحق، وارتدى بردائه قُصم، ومَن تحقّق بأوصافه، وارتدى رداء ذلّته وانكساره عُصم، فلا تتخلّق أيُّها الأخ في خدمة مولاك إلاّ بأخلاق العبيد، ولا تلبس في هذه الحضرة إلاّ ملابس الذلّة والانكسار، تستوجب المزيد، وتكون في ذلك مقتديًا بالأنبياء والمرسلين، وينــزعج قلبك حينئذٍ كانـزعاجهم لمعرفة ربِّ العالمين.

٦٨- انــزعاج القلب لروعة الأنبياء[1] أرجح من أعمال الثقلين.

روعة الأنبياء وخوفهم من الحق تعالى أشدُّ من كل أحد؛ لمعرفتهم بجلال الله تعالى وكماله، فكلّما كانت المعرفة أكثر؛ كانت الخَشية أكثر، كما قال ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأخشاكم له**»[2].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

ومَن شابهت معرفته معرفة الأنبياء اشتدّت خَشيته، وكملت روعته، وانــزعج قلبه؛ إذ ليس مَن يرى نفسه في مخاليب الأسد، أو بين أنيابه، كمَن يسمع ذلك ويشهده من وراء حجاب، فمن تحقّق قلبه بهذا الانــزعاج، وصارت له هذه الروعة كرأي العين؛ كان له ذلك أرجح من عمل الثقلين.

إذًا ما من عملٍ إلاّ وهو محفوف بالآفات، وهذه موصِّلة له إلى مولاه، مميت له أشدُّ الموات.

فاجتهد أيُّها الأخ في الاقتداء بهم في الأفعال، وزكِّ نفسك على طريق تزكيتهم؛ ترثهم في الأحوال، وبالغ في الأعمال، فإن الرياضة في الأعمال كما قال أهل البصيرة:

بِقــدْرِ الكَــدِّ تَكسَــب المَعَالِي ومَــن طَلَــبَ العُلا سَهر اللّيالي

---

(١) في البيان (الانتباه).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٣١/١) بنحوه.

تُـــريدَ الحـــقَّ ثُـــمَّ تَـــنامَ عَـــنهُ يَغوصُ فِي البحْرِ مَن طَلَبَ اللآلِي

واسمع ما قال مولاك، وأطعه فيما أمرك به؛ تظفر لعُلاك.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ*أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣: ١٣٦].

وقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

فتأمَّل يا أخي ما أمرك به مولاك، واعمل بمقتضاه تظفر بالرياضة، وتكن من النُّسَّاك، وتستقيم لك العبادة، وتصير من أبناء الآخرة، ويخدمك الأحرار، وتظفر بكل فضيلة فاخرة.

قال ﷺ:

٦٩- أبناء الدنيا يخدمهم العبيد والإماء، وأبناء الآخرة يخدمهم الأحرار الكرماء.

أبناء الدنيا عبيد النفس والهوى؛ فلذلك يخدمهم ما هو من جنسهم من العبيد والإماء.

وأبناء الآخرة قد خرجوا من رقِّ الأغيار؛ فلذلك يخدمهم الكرماء من الأحرار.

أبناء الدنيا عبيد الدرهم والدنيا؛ فلذلك يخدمهم مَن هو مُشترى بالنقدين من معاملة هذه الدار.

وأبناء الآخرة عبيد ربِّ العالمين؛ فلذلك يخدمهم مَن هو يُشترى بالجنة المشتملة على القصور، والحور العين.

فاجتهد أيُّها الأخ أن تكون من أبناء الآخرة، وصحِّح المعاملة بالرياضة الفاخرة.

٧٠- الرياضة في المعاملات قطع الالتفات إلى الأعمال، حُجبوا بالأعمال عن ملاحظة المعمول له، ولو لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية الأعمال.

الطريق الموصِّل للسالك إلى الله تعالى؛ الرياضة في المعاملات بقطع الالتفات إلى الأعمال، فإن النظر إليها سمٌّ قاتلٌ عند أهل الكمال، وهي حجاب عن ملاحظة القصور، ولو لاحظوا لاشتغلوا به عن الأعمال، وتمَّت لهم العهود.

فلذلك قيل: مَن ظنَّ أن يصل بعمله فهو متقنٌ، ومَن ظنَّ أن يصل بلا عملٍ فهو متمنٍ.

فاعمل ولا تنظر إلى الأعمال، واجعل نظرك كله مقصورًا على ذي الجلال والإكرام، فالظاهر في الخدمة، والباطن في الحضرة، تعرف بظاهرك مع الأكوان، وتجمع بقلبك في مقام الأحضان متحقِّقًا في ذلك بمعنى: إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، مهتديًا في ذلك للصراط المستقيم، مستوجبًا في ذلك الدخول في دائرة الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

فانتهض بعزمك أيُّها السالك إلى هذه المسالك، ولا تتكلَّم إلاَّ فيما احتجت إليه، ولا تصرف أوقاتك إلاَّ فيما يوصلك لديه.

٧١- الحديث: ما استدعيت من الجواب.

والكلام: ما صدمك من الخطاب[١].

أي الحديث النافع الذي ينبغي للكامل أن يتحدَّث به، ويصرف وقته في الاشتغال به.

(**ما استدعيت**): أي ما طلب منك الجواب به؛ لأن الجواب يتم به مقصود السائل، ويتداوى به من دابة الجاهل.

(**والكلام**): الكلام النافع الذي يعدَّه أهل البصائر كلامًا.

(**هو ما صدمك**): أي وصلك إليك وصولاً مؤثِّرًا فيك؛ كالصبية المؤثِّرة في محلِّها.

(**من الخطاب**): أي خطاب الحق وإلهامه إيَّاك.

يعني الكلام المعتبر الذي ينبغي للكامل أن يعرف وقته فيه، ويتكلَّم به ما كان عن خطابٍ إلهيٍّ وإلهامٍ ربَّانيٍّ.

والحاصل أن أنفاس العارف جواهر، فلا يصرف أنفاسه إلاَّ فيما يعنيه من الحديث، والكلام بقدر الضرورة لجواب سائل، وكلام وارد إلهي على قدرة الضرورة.

ولذلك قيل: الإرادة حفظ بالحواس، والضنّ: أي البخل منها بالأنفاس، فضن بأنفاسك أيُّها الأخ، وغر عليها، واستعن على ذلك بالعزلة، واعتكف لديها.

٧٢- الغيرة ألاَّ تَعرف ولا تُعرف.

أي الغيرة[٢] والحمية، والهمَّة العليَّة أن تجتهد بها في البعد عن الخلائق حتى لا

---

(١) وفي نسخة ما صدقك.

(٢) الغيرة غيرة في الحق لتعدي الحدود. والغيرة تشعر بثبوت الغير، ومشاهدته، ومن حيثية الغيرة تظهر لفواحش، والغيرة إنما تظهر عند رؤية المنكر والفواحش، والأغيار الثابتة، فكثرتها إما نسب، وأحوال مختلفة معقولة قائمة بعين واحدة، لا وجود لها إلا في تلك العين، وإما آثار استعدادات المظاهر في الظاهر فيها، فعلى التقديرين لا وجود في الأغيار مع ثبوت حكمها في العين الظاهرة بها.

تعرف أحدًا منهم، ولا يعرفك إيثار صُحبة الخالق، كُنْ عن الناس جانبًا، وارضَ بالله صاحبًا.

قال عقبة بن عامر ﷺ: فيمَ النجاةُ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**احفظ عليك لِسَانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك**»[1].

وما أحسن ما قال بعضهم في المعنى:

لِقاءُ النَّاسِ لَيسَ يُفيدُ شَيئًا ... سِوى الهَذَيان مِن قَيلٍ وقَالِ
فاقْلِلْ مِن لَقاءِ النَّاسِ إلاَّ ... لأخذِ العِلْمِ أوْ إصْلاحِ حَالِ

فادفن وجودك.أيُها الأخ في أرضِ الخمول، واجعل نفسك من الموتى؛ كي تحظى بمقام الوصول.

٧٣- الحق تعالى لا يراه أحدٌ إلاَّ مَات، ومَن لم يمتْ لم يرَ الحق.

أشار ﷺ بذلك إلى حالتي أهل الكمال من السلوك وهما: المجذوب السالك، والسالك المجذوب.

فالمجذوب السالك هو الذي حلَّت عليه العناية أولاً بانكشاف الحجب، وتشرُّقه بالأنوار، وفنائه عن الأغيار، وحياته وقربه من سرادقات حضرته، وبعد ذلك يتمُّ له السلوك.

فخذ من هذا التقريب من أين ثبوت نشأت الفواحش؟ ولم حرمت؟ والإنسان مأمور بأن يجعل نفسه وقاية للظاهر فيه، والغيرة محمودة ومذمومة، فالمحمودة: هي التي اتصف بها الحق، والرسل، وصالحوَ المؤمنين على أنها مرموزة في الطبع فلا بدَّ منها.

وغيرة تطلق بإزاء كتمان الأسرار: الأولى غيرة في الحق، وهذه غيرة على الحق، وهذه حالة الألباء الأصفياء الذي يسعون في ستر أحوالهم ومقامهم على الخلق فلا يتميزون بعاداتهم وعباداتهم عن العامة. وغيرة الحق صفته على أوليائه.

وهذه غيرة من الحق، ولهم خلف حجب العوائد الواصلة الدائمة، وعندية الحق معهم تقتضي أن يكون التمييز بين الظاهر، والمظاهر أخفى، فهم عنده كهو عندهم، فأخفى العين في العين.

(١) رواه الترمذي (٤/٦٠٥)، وأحمد (٤/١٤٨).

وأما السالك المجذوب فهو الذي سلك الطريق أولاً حتى وصل إلى مقام الفظ والموت، فانكشفت له الحجب حينئذ، وصار من أهل المشاهدات، فعاين بعين بصيرته آخر ما عاينه ذاك أولاً، ولكلٍّ وجهته مشرب، وكلٌّ عند مولاه بقرب، فإن أردت أيُّها الأخ ثمة من هذه المواهب، فعليك بالانكسار، فإنه الترياق المجرَّب لنيل تلك المطالب.

٧٤- انكسار العاصي خيرٌ من صولة المطيع.

كان الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ يدخل عليه العابد الزاهد، فلا يحتفل به، ولا يقبل عليه، ويدخل عليه العاصي المخلِّط فيقبل، ويظهر له البشاشة، فسُئل عن ذلك، فقال:

أعامل الأول بالإعراض لِما أشاهد عنه من العجب والافتخار بعبادته.

وأعامل الثاني بالإقبال لِما أشاهد فيه من الذلّة والانكسار.

فجعل انكسار العاصي لإقباله، وصولة المطيع وافتخاره سببًا لإعراضه، وبُعده عن نواله.

ويدلُّ على ذلك ما ورد في الحكاية المشهورة عن بني إسرائيل: إنه اجتمع عابد وعاصي في موضع، فتقرَّب العاصي من ذلك الطائع، وقال في نفسه: لعلَّ الله يرحمني بقربه، فبعد عنه ذلك العابد عجبًا بنفسه واستكمالاً لها واستنكافًا من قرب ذلك العاصي منه، فأوحى الله إلى نبي ذلك الوقت أن قال: يستأنفان العمل، فالعابد حبطت أعماله في جميع عمره بالتكبُّر والعجب في تلك الساعة، والعاصي غفرت له ذنوبه كلها بانكساره في تلك الساعة.

فانظر يا أخي كيف حبطت أعمال العمر الطويل بتكبُّر ساعة؟ وكيف غُفرت الذنوب الكثيرة بانكسار ساعة؟[1].

---

(١) قال الشيخ الأكبر في حكمه: **(ولا تخف مما أنت مقهور فيه ولو كان معصية)** أي: لا ينبغي لك الخوف من كلِّ شيء أنت مقهور في ذلك الشيء ولو كان ذلك الشيء معصية لعدم قصدك فيه وكونك مقهورًا، والمقهور لا يُسأل عما يُقهر عليه، ومن هنا قيل: قضى عليك ربك بالذنب فكان سببًا للوصول لك كما ورد في الحديث: «رُبَّ ذنب أدخل صاحبه الجنة»، وهو الذنب الذي صدر منه حالة كونه مقهورًا فيه، وقيل: معصية أورثت ذلاً وافتقارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزّا واستكبارا، وذلك؛ لأن الطاعة وإن كانت في ذاتها خيرًا والمعصية في ذاتها شرًا، لكن قد يصير بالعوارض الخير شرًّا والشر خيرًا مثلاً الذنب شرّ
==

فعليك أيُّها الأخ الصديق بالتواضع والانكسار، وإيَّاك ثم إيَّاك أن تميل إلى العُلو والافتخار.

٧٥- **حبُّ العُلو على الناس سبب الانتكاس.**

إذ حبُّ العلو ينشأ عن رؤية النفس، والرِّضا عنها، وذلك عين البُعد والانتكاس.

قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ**﴾ [القصص:٨٣]، فعُلم من الآية أن مَن أراد العُلو؛ فلا نصيب له في تلك الدار، فكيف عمَن أراد القرب من حضرة العزيز الغفَّار.

وقال في الرسالة القشرية: أول منازل القُرب ألاَّ يرى السالك لنفسه قربًا، فهو

=

لكن إذا حصل منه الانكسار والتوبة إلى الله والتشمير لخدمة الله يكون خيرًا له، والطاعة خير لكن إذا اعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها ويطالب العوض عليها يكون شرًّا له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] أي: المعصية في الطاعة والطاعة في المعصية، كما قاله الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى، وقال أبو مدين ﷺ: **انكسار العاصي خير من صولة المطيع**. فهذا كله من رؤية العمل، والنية فيه بخلاف ما إذا نسى العمل ولا يرى لنفسه قصد أو نية؛ لأنه حقًا لا يكون فاعلاً لما هو طالبه، بل لما هو مطلوب منه، ومن هنا قيل: ما توقف مطلب أنت طالبه بربه، ولا تيسر مطلوب أنت طالبه بنفسك، وقيل أيضًا: ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه، وإلى هذا إشارة قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] أي: لا بنفسي﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠] أي: لا بنفسي، والمقصود ترك النية في الأعمال مع الشهوة؛ لأن الإرادة والقصد تتعلق بالشيء من حيث الشهوة ومن غيرها.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثامن والعشرين وثلاثمائة: «فالسعداء أخذوا الأعمال بالإرادة والقصد، وأخذوا بالشهوة، فمن رُزق الشهوة في حال العمل فالتذ بالعمل التذاذه بنتيجته فقد عُجل نعيمه له، ومن رُزق الإرادة في حال العمل من غير شهوة فهو صاحب مجاهدة»، ثم قال: «وأكثر الناس لذة بأعمالهم العباد، وأقلهم لذة: العارفون». وانظر: شرح الحكم الأكبرية للباني (ص٨٠) بتحقيقنا.

وأما الـ ... ـبيس كقرب الأجساد، ولا ينال ثمة من ذلك إلاّ مَن
والمـ ... ، وأكثر من هذا الزاد، فتواضع أيُّها الأخ لكلّ مَن تلقاه من
... الخشية جليستك تسد على كلّ آمين.

... ـمية العارف الخشية والهيبة.

إ‍ـد قلب العارف لا ينفك عن شهود الجلال، وجسده لا يغتر عن الخدمة في البكور والآصال، ومَن كان كذلك كانت الخشية لقلبه زينة، والهيبة لظاهره حلية يمينه.

كَأَنَّـــهُ وهُـــوَ فَـــردٌ فِي جَلاَلَتِهِ فِي ... عَســـكَرٍ حِـــينَ تَلقَاهُ وفِي حَشَمِ

وهذا وإن كان واردًا في حقّه ﷺ، لكن الوراثة نصيبٌ من ذلك، وللحائز مقام العارف ذلك المحبَّة بالمتابعة ثمة من هذه المسالك، فلا تُزيِّن قلبك أيُّها الأخ إلاّ خَشية، وارفع همَّتك إليه، واحذر من الطمع في أحد من خليقته.

٧٧- الطمع في الخلق شكٌّ في الخالق.

تأمَّل يا أخي هذه الحكم، واعمل بمقتضاها، واستنشق روائحها، وانغمر في فيوضها، واستتر بنورها، وسر في سناها، وأقبل على خالقك، ولا تطمع بقلبك في أحد سواه، وتحصَّن في هذه المهلكة بحصن (لا إله إلاّ الله)، واخرج من حولك وقوتك تظفر بكنـــز من كنوز الجنان، واستقم في هذا المقام؛ تحظى:

«بما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ[٢]:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قد أفرده العلماء بالتأليف، ونحن نذكر بعون الله تعالى ملخص ما قالوه.
فنقول: هو السيد الجليل الحسيب النسيب أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله ابن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى، ابن أمير المؤمنين الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

=

وُلد سنة سبعين وأربعمائة، وتُوفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، وله من العمر إحدى وتسعون سنة.

وحُكي عن أمه رضي الله عنها، وكان لها قدمٌ في الطريق أنها قالت: لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضى يلقم ثديي في نهار رمضان، ولقد عمَّ على الناس هلال رمضان فأتوني وسألوني عنه، فقلت لهم: إن ولدي لم يلقم اليوم ثديًا، ثم اتَّضح أن ذلك اليوم كان من رمضان، واشتهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه وُلد للأشراف ولدٌ لا يرضع في نهار رمضان.

وكان ﷺ يلبس لباس العلماء، ويتطيلس ويركب البغلة، وترفع الغاشية بين يديه، ويتكلم على كرسي عال، وربما خطى في الهوى خطوات على رؤوس الأشهاد الناس، ثم يرجع إلى الكرسي.

وكان يقول: بقيت أيامًا لم أستطعم فيها بطعام، فلقيني إنسان فأعطاني جرة فيها دراهم، فأخذت منها خبزًا سميدًا وخبيصًا، فجلست آكل فإذا برقعة فيها مكتوب: قال الله تعالى في بعض كتبه السالفة: (إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقي؛ ليستعينوا بها على الطاعات، أما الأقوياء فما لهم والشهوات) فتركت الأكل وانصرفت.

وقال له رجلٌ مرة: كيف الخلاص من العجب؟ فقال: مَنْ رأى الأشياء من الله تعالى وهو الذي وفَّقه لعمل الخير، وأخرج نفسه من البين، فقد سلم من العجب.

وقيل له مرة: ما لنا نرى الذباب تقع على ثيابك؟ فقال: على أي شيءٍ يعمل الذباب عندي، وما عندي شيء من دنس الدنيا ولا عسل الآخرة!.

وكان يقول: أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفَّف الله عنه العذاب يوم القيامة.

وكان رجل يصرخ في قبره ويصيح حتى آذى الناس فأخبروه به، فقال: إنه رآني مرة ولا بدَّ أن يرحمه الله تعالى لأجل ذلك، فمن ذلك الوقت ما سُمع له صراخ.

وتوضأ يومًا فبال عصفور عليه، فرفع رأسه إليه وهو طائرٌ فسقط ميتًا، فغسل الثوب ثم باعه وتصدَّق بثمنه، وقال: هذا بهذا.

وكان يقول: يا رب كيف أهدي لك روحي وقد صحَّ أن الكل لك؟!.

وكان يتكلَّم في ثلاثة عشر علمًا، وكانوا يقرؤون عليه دروسًا من التفسير، ودروسًا من الحديث، ودروسًا من المذهب، ودروسًا من الخلاف والأصول والنحو.

وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر، وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ﷺ، وكانت فتاواه تُعرض على علماء العراق فيتعجبون منها أشد الإعجاب ويقولون: سبحان من أنعم عليه!.

ورُفع له سؤال في رجلٍ حلف بالطلاق أنه لا بدَّ أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في

وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات، فأجاب عنه على الفور يأتي مكة ويخلي له الطواف، ويطوف أسبوعًا وحده فيحل بيمينه، فأعجب علماء العراقيين، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها.

ورفع إليه شخص سؤالاً أنه يرى الله ﷻ بعين رأسه، فقال: أحق ما يقولون عنك؟ فقال: نعم، فانتهره وأهانه عن هذا القول، وأخذ عليه العهد أنه لا يعد إليه، فقيل للشيخ: أمحقٌّ هذا أم مبطلٌ؟ فقال: هو محقٌّ ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ثم انخرق من بصيرته إلى بصره منفذ، فرأى بصره بصيرته، وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده، فظنَّ أن بصره رأى ما شهد به بصيرته، وإنما رأى بصره بصيرته فقط وهو لا يدري.

وكان يقول: تراءى لي نور عظيم ملأ الأرض، ثم بدت لي صورة تناديني: يا عبد القادر أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات، فقلت: اخسأ يا لعين فإنك شيطانٌ، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال لي: يا عبد القادر، نجوت مني بعلمك بحكم ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه سبعين من أهل الطريقة، فقلت: لله الفضل، فقيل له: كيف علمت أنه شيطانٌ؟ فقال: بقوله: قد حللت لك المحرمات؛ إن الله لا يأمر بالفحشاء.

وسُئل عن المعرفة فقال: هي أن يتعرى العبد بنفسه عن حبِّ الدنيا، وبروحه عن التعلق بالعقبى، وبقلبه عن إرادة شيء مع إرادة المولى، وتجرد بسره عن أن يطمح إلى الكون، أو يخطى على سره.

ولما اشتهر أمره في الآفاق اجتمع مائة فقيه من أدباء بغداد؛ ليمتحنوه في العلم، فجمع كل واحد منهم سؤالاً وجاءوا إليه، فلمَّا استقرَّ بهم المجلس أطرق الشيخ رأسه فظهرت من صدره بارقة من نور، فمرَّت على صدور المائة فمسحت ما في قلوبهم، وبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدةً، ومزَّقوا ثيابهم، وكشفوا رؤوسهم، ثم صعد المنبر وأجاب الجميع عمَّا كان عندهم، واعترفوا بفضله.

وكان من أخلاقه مع جلالة قدره يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء، ويفلي ثيابهم، وكان لا يقوم قط لأحد من العلماء ولا لأعيان الدولة، ولا أَلَمَّ قط بباب وزير ولا سلطان، وكان يرى الجلوس على بساط الملوك، ومن داناهم من العقوبات المعجلة للفقير، وكان إذا جاءه الخليفة أو الوزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم لأحد؛ إعزازًا للطريق في أعين الفقراء.

وكان الشيخ علي الهيتي ﷺ يقول عن الشيخ عبد القادر الكيلاني: كان قدمه على التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد مع الحضور في موقف العبودية.

=

وكان الشيخ عدي بن مسافر الأموي ﷺ يقول: طريق الشيخ عبد القادر الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتحاد الظاهر والباطن، والسلامة من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر في القرب والبعد.

وكان الشيخ بقاء بن بطؤ ﷺ يقول: كان طريق الشيخ عبد القادر اتحاد القول والفعل، واتحاد النفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسُّنة في كل نفسٍ وخطرةٍ ووارد وحال والثبوت مع الله ﷻ.

وعنه ﷺ أيضًا كانت قوة الشيخ عبد القادر في طريقه إلى ربِّه كقوى جميع أهل الطريق شدةً ولزومًا، وكانت طريقته التوحيد وصفًا وحكمًا وحالاً، وحقيقته الشرع ظاهرًا وباطنًا، ووصفه قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرةٍ صافيةٍ لا تتجاذبها السلوك، وسر لا تـــنازعه الأغيار، وقلب لا يفارقه البقايا.

وكان الشيخ أبو الفتح الهروي ﷺ يقول: خدمت الشيخ عبد القادر أربعين سنة، وكان في مدتها يصلِّي الصبح بوضوء العشاء، وكان كلما أحدث جدَّد في وقته وضوء ثم صلّى ركعتين، وكان يصلِّي العشاء ويدخل خلوته، ولا يمكِّن أحدًا يدخلها معه، فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر، وقد أتاه الخليفة يريد الاجتماع به ليلاً فلم يتيسَّر له الاجتماع به إلى الفجر، وقال: بتُّ عنده فرأيته يصلِّي أوَّل الليل يسيرًا، ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضي الثلث الأول، ويقول: المحيط الرَّب الشهيد المجيب الفعَّال الخلاَّق الخالق البارئ المصوِّر، فتطاول جثته مرَّة، وتعظم مرة، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصري مرة، ثم يصلِّي قائمًا على قدميه يتلو القرآن حتى يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجوده جدًّا، ثم يجلس متوجهًا مراقبًا مشاهدًا إلى قريب طلوع الفجر، ثم يأخذ في الدعاء والابتهال والتضرُّع والتذلُّل، ويغشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب عن الأبصار.

قال: وكنت أسمع عنده: سلام عليكم، وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر.

وكان ﷺ يقول: أقمت في صحراء العراق وخرابه خمسًا وعشرين سنة متجرِّدًا سائحًا، لا أعرف الخلق ولا يعرفوني، وكانت طوائف من رجال الغيب أعلمهم الطريق إلى الله تعالى، ووافقني الخضر عليه السلام في أوَّل أمري ودخولي العراق وما كنت عرفته، وشرط عليَّ ألا أخالفه وقال: اقعد ها هنا، فجلست في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرَّة، ويقول لي: اقعد مكانك حتى آتيك، قال: ومكثت سنة في خراب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات، فآكل المنبوذ ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، ومكثت سنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام.

واجتمع عنده مرة الفقراء والفقهاء في مدرسته النظامية فتكلَّم في القضاء والقدر، فبينما هو

=

يتكلّم إذ سقطت حيَّة عظيمة في حجره من السقف، ففرَّ منها كل من كان حاضرًا عنده و لم يبقَ إلا هو، فدخلت الحيّة تحت ثيابه ومرَّت على جسده، وخرجت من طوقه والتفَّت على عنقه، وهو مع ذلك لم يقطع كلامه، ولا غيَّر جلسته، ثم نزلت إلى الأرض وقامت على ذنبها بين يديه فصوَّتت، ثم كلمها بكلام لم يفهمه الحاضرون، ثم ذهبت فرجع الناس فسألوه عما قالت، فقال: قالت لي: اختبرت كثيرًا من الأولياء فلم أرَ مثل ثباتك، فقلت لها: وهل أنت إلا دويدة يحركك القضاء والقدر الذي أتكلم فيه! قال ﷺ: ثم إنها جائتني بعد ذلك وأنا أصلّي ففتحت فمها موضع سجودي، فلما أردت السجود دفعتها بيدي وسجدت، فالتفَّت على عنقي ثم دخلت من كمّي وخرجت من الكم الآخر، ثم دخلت من طوقي ثم خرجت، فلما كان الغد دخلت خربة، فرأيت شخصًا عيناه مشقوقتان طولاً فعلمت أنه جني، فقال لي: أنا الحية التي رأيتها، ولقد اختبرت كثيرًا من الأولياء بما اختبرتك به فلم يثبت لي أحد منهم كثباتك، وكان منهم من اضطرب باطنه وثبت ظاهره، ومنهم من اضطرب ظاهرًا وباطنًا، ورأيتك لم تضطرب لا ظاهرًا ولا باطنًا، وسألني أن يتوب على يدي فتوّبته.

قال ابن الأخضر ﷺ: وكنا ندخل على الشيخ عبد القادر ﷺ في الشتاء وقوة البرد وعليه قميصٌ واحدٌ، وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده، وحوله من يروِّح عليه بمروحه كما يكون في شدة الحر، وكان يقول لأصحابه: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تفرقوا، وانتظروا ولا تيئسوا، واجتمعوا على الذّكر ولا تفرقوا، وتطهَّروا من الذنوب ولا تلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا.

وكان يقول: إذا أقامكَ الله تعالى في حالة فلا تختر أعلى منها ولا أدنى.

ولما حضرت وفاته استوصاه ولده الشيخُ عبد الوهاب، فقال له: عليك بتقوى الله وطاعته، ولا تخف أحدًا سواه، ولا ترجه، وكِل الحوائج كلها إلى الله واطلبها منه، ولا تثق بأحد سوى الله تعالى، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه وتعالى، التوحيد، التوحيد، التوحيد، وجماعُ الكل التوحيد.

وقال ﷺ في مرض موته: إذا صحَّ القلب مع الله ﷻ لا يخلو منه شيء، ولا يخرج منه شيء، أنا لب لا قشور، وقال للأولاد: ابعدوا من حولي؛ فقد حضر عندي غيركم، فأوسعوا لهم، وتأدَّبوا معهم، ها هنا رحمة عظيمة، فلا تضيِّقوا عليهم المكان.

قال الشيخ عفيف الدين، وسأله بعض ولده عمَّا يجده فقال: لا يسألني أحدٌ عن شيءٍ، أنا هو ذا، أتقلب في علم الله تعالى.

وأخبرني ولده عبد الرزاق وموسى ﷺ أنه كان يرفع يده ويمدها ويقول: وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته، ادخلوا في الصف، هو إذًا أجنح إليكم.

إذا متَّ عن الخلق قيل لك: رحمك الله، وأماتك عن هواك.

وإذا متَّ عن هواك قيل لك: رحمك الله، وأماتك عن إرادتك ومُناك.

وإذا مت عن الإرادة قيل لك: رحمك الله، وأحياك.

فحينئذٍ تحيى حياة لا تموت بعدها، وتُغنى غنى لا فقر بعده، وتُعطى عطاء لا منع بعده.

وقال إبراهيم بن أدهم ﷺ(1): ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا، ولا نطلب كشفه من ربنا، ثكلت أم عبد أحبَّ مخلوقًا لدنياه، ونسي ما في خزائن الله:

حَرامٌ عَلى مَن وحَّـــد اللهَ ربَّـــه ... ووَحَّدهُ أنْ يحتَذى أحَـــدًا رِفـــدَه

=

وكان يقول: ارفقوا ارفقوا، ثم أتاه الحق وسكرة الموت، فكان يقول: استعنت بالحي القيوم الذي لا يموت ولا يخشى الفوت، سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر العباد بالموت، لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

وقال ولده موسى: ولما قال (تعزَّز) لم يؤدها لسانه على الصِّحة، فما زال يكرِّرها حتى قال: (تعزز) ومدَّ بها صوته وشدّدها حتى صحَّ لسانه بها، ثم قال: الله الله، ثم خفي صوته ولسانه ملتصقٌ بسقف حلقه.

تُوفي ﷺ ليلة السبت ثامن ربيع الآخر، ودُفن ببغداد ﷺ وقدَّس سره.

وانظر: خلاصة المفاخر لليافعي، والروض الزاهر للبرهان، والسيف الرباني لابن عزوز، وقلائد الجواهر للتاذفي، وبهجة الأسرار للشطنوفي، كلها في مناقب سيدي عبد القادر، وهي بتحقيقنا، وكذلك سر الأسرار، وفتوح الغيب للشيخ.

(١) هو الحازم الأحزم كان عن المقطوع المرذول ذاهلاً، وبالمرفوع الوصول متشاغلا، وكان شرع الرسول منهاجه، واختياره عليه الصلاة والسلام مزاجه، ألف الميمون الموصول، وخالف المفتون المغذول، أصله من أولاد ملوك بلخ، ومن فوائده: أن الرجل الحر الكريم من تخرج نفسه عن الدنيا قبل أن يخرج منها.وقال: إياكم والغرة بالله لا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.

ومن كراماته أنه كان في رفقة فعرض لهم سبعٌ، فجاء إلى السبع وقال: إن كنت أمرت فينا بشيءٍ فامضه، وإلا فارجع. فرجع. مات بالجزيرة سنة اثنتين وستين ومائة، وحمل فدفن بصُور، وقبره بها مشهورٌ. انظر: الكواكب الدرية (١/ ١٤٢).

فَيَا صَاحِبِي قِفْ بِي مَعَ اللهِ وَقفَةً   أَمُوتُ بِها وجْدًا وأُحيَى بِها وَجدا
وقُلْ لِمُلوكِ الأَرْضِ تَجهَدْ جَهدهَا   فَذا المَلكُ مَلكٌ لا يُبَاعَ ولا يُهدَى

فاستقم يا أخي في استقامة مُلكك هذا بإصلاح رعيتك من عامة الجوارح، وشيِّد بنيانه برعاية خاصيتك من قلبك وروحك، وصنهما عن رديء الخواطر والسوانح.

٧٨- بفساد العامة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصة تظهر الدَّجاجلة الختَّالون عن الدِّين(١).

أي سبب ظهور ولاة الجور فساد العامة من الرعية، وسبب ظهور الدجاجلة الختَّالين عن الدين فساد الخاصة منهم، كما قال ﷺ: «**كما تكونوا يول عليكم**»(٢).

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى:٣٠].

فالعامة لَّما فسدوا بالتعدِّي في الأموال، ولَّى عليهم مَنْ يعتدي عليهم فيها على حسب ما كانوا عليه.

والخاصة لَّما فسدوا بالتعدِّي في الدين سلط الله عليهم من هو من جنسهم مسلول من الدين، كانسلال الشعرة من العجين: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل:١١٨].

وقوله تعالى: ﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾ [الكهف:٤٩].

أفا علمت أيُّها السالك ذلك، فتنبَّه لما أُريده منك، وأصلح مالك من الممالك، فإنك في ذاتك عالم مستقل بفسادها، جوارحك تظهر ولاة الجور من النفس والهوى، وبفساد خاصة باطنك تظهر وُلاَة الجور من الشياطين، ويبلغ كما قال:

دَوَاكَ فِيكَ ومَا تَشْعرُ   ودَائكَ فِيكَ ومَا تُبصرُ
وتَزْعم أنَّكَ جِرمٌ صَغيرٌ   وفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

(١) وفي نسخة: الفتَّانون في الدين.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤٠٦).

فأصلح أيُّها السالك عامة رعيتك وخاصتها؛ تذهب عنك ولاة الجور ودجاجلتها، وتصير خلافتك خلافة محمَّدية، ولذاتك لذات سرمدية، واستعن في تشييد أركان هذه الخلافة بصحبة أربابها، واحذر من المبتدعة وصحبتهم؛ فإنهم من أشدِّ الراغبين في قطع أسبابها.

٧٩- احذر صحبة المبتدعة؛ إبقاءً[1] على دينك، واحذر صحبة النساء؛ إبقاءً على قلبك.

الصحبة: شديدة التأثير، فكلُّ مَن صحبته ظهرت فيك صفاته، وكل مَن جالسته جذبك إلى ما عنده، ودعتك إلى ذلك كلماته.

ورد أنه ﷺ كان يُصلِّي بسورة الروم، فالتبس عليه آية منها، فأقبل الصحابة فقال: «**مَن هذا الذي لا يُحسن وضوءه، فيلبس علينا قراءتنا؟**»[2].

فتأمَّل يا أخي هذا الحديث بقلبك، واقبله على تأمُّله بفهمك ولُبِّك، إذا كان ﷺ بذلك الكمال يؤثِّر فيه، ويدخله في التباس القراءة مَن لا يُحسن وضوءه، فكيف بأمثالنا من أهل النقصان إذا صاحب أهل القطيعة من المبتدعة وأهل الخذلان؟.

كيف لا تلبيس عليه جميع طاعاته؟.

وكيف لا تغشاه من صحبة كل منهم كشف ظلماته؟.

وكذلك النساء إذا صحبتهنَّ صحبةً زائدةً على الحاجة وأقبلت عليهنَّ بقلبك، وملكتهنَّ شعبة وفجاجة.

فإن رأس مالك أيُّها السالك قلبك، فإذا ملَّكته غيرك حضرت وغضب عليك ربك، فلا تجعل قلبك يا أخي إلاَّ محلاً لتنـــزُّل فيوضه وأنواره، ولا تُشرك في ذلك؛ يشرق عليك قمر ليله وشمس نهاره، فكما لا يحب العمل المشترك، لا يقبل عليه، ولا تصحب إلاَّ مستقيم الحال، قائمًا على الكتاب والسنة، قد هذَّبته الرجال، يدلُّك على العارف أقواله، ويجذبك إلى سفينة النجاة سيرته وأحواله، يأمر بالخير ويأتيه، وينهي عن الشر، ويبعد عن مساوئه.

---

(١) في نسخة (اتقاء).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/٤٧١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/٢٥).

فعليك يا أخي إن ظفرت بهذا الصاحب، وعض على صحبته بالنواجذ، وباين الكل، وجانب واعتكف ليلك ونهارك بناديه، واخلص له الوداد، وعادِ مَن يعاديه، وعمِّر جوارحك وقلبك بشهود كماله، وإيَّاك وسوء الظن فيه، فتحرم من فيضه وفعاله.

٨٠- مَن ظهر له نقصٌ من شيخه؛ لم ينتفع به.

لما حذَّرك أيُّها السالك من صحبة الأشرار، وأشار إليك بأن ضررها أعظم من لهب النار؛ حيث كان فيها إذهاب الدين، وأي نسبة بين لهيبه ولهيب النار عند العارفين شرع بمكِّنك من صحبة الأخيار، فإن بهم تقطع الفياض والقفار، فإذا صحبت الواحد منهم، وسطع في قلبك شمس نهاره؛ فعليك بلزوم الأدب معه، تعمِّر قلبك بعظيم أسراره، واشتهر فيه حينئذٍ الاستقامة والكمال، وأول ما اشتبه عليك من أحواله، وحسن العقيدة فيه على كلِّ حال، فإن الأمر دائر بين نسبة القصور إليه، ونسبة القصور إلى فهمك، ومعرفة ما لديه، والثاني بك أُوْلى وأَليَق.

فاخرج عن الجهل، واعترف بالحق، فإن ظفرت بهذا الشيخ، وتمَّت لك معه الآداب، وانتفعت بحالته؛ آن لك أن تدخل، وتأخذ عنه، وتستفيد اللباب.

٨١- الذِّكر شهود المذكور، ودوام الحضور، مَن لم يغفل عن ذكرك؛ فلا تغفل عن ذكره، ومَن لم يغفل عن برك؛ فلا تغفل عن شكره.

شرعٌ يبيِّن لك أيُّها السالك معنى الذكر، ويحضّك عليه، ويذكر لك بعض فوائده، والسبب الداعي لإقبالك عليه.

والحاصل: إن الذكر باللسان ونهايته شهود المذكور بالدخول في مقام الإحسان، ولمَّا كان الشيخ ﷺ من أهل الكمال؛ ذكر ما هو منتهى ذكر الذاكرين من أهل الوصول، وبينهما ذكر القلب والروح، وشبَّهوا هذه المراتب بقشر اللوزة، وقشر قشرها، ولُبِّها ولُبِّ لُبِّها.

فذكر اللسان كقشر القشرة، وذكر القلب كالقشر الثاني، وذكر الروح كاللُّبِّ، وذكر السوء الذي ذكره الشيخ كلُبِّ اللُّبِّ، وهو الذهن الذي للب اللوز.

وقد أشار إلى هذه المراتب صاحب الحكم العطائية بكلام موجز رائق حيث

قال الشيخ ﷺ:

«لا تترُكْ الذِّكْرَ لعدمِ حضورِ قلبكَ مع الله فيه لأن غفلتَكَ عن وجودِ ذِكْرِهِ أشدُّ من غفلتكَ في وجودِ ذكره، فعسى أن يرفعَكَ من ذكرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ ومن ذكرٍ مع وجودِ حضورٍ إلى ذكرٍ مع غيبةٍ عمَّا سوى المذكورِ، وما ذلك على الله بعزيز»(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الذكر ركن قوي في طريق القوم وهو أفضل الأعمال قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً**﴾ [الأحزاب:٤١]، والذكر الكثير أن لا ينساه أبدًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتًا مخصوصًا وعذر العباد في غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتًا مخصوصًا قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب:٤١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

وقال رجل يا رسول الله: كثرت عليَّ شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأَوْجِزْ؟ فقال: «لا يزالُ لسانُكَ رَطبًا بذكرِ الله».

وقال ﷺ: «لو أنَّ رجلاً في حجْرِه دراهمُ يقسِّمُهَا وآخرَ يذكرُ الله لكان الذاكرُ لله أفضل»، وقال ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بخيرِ أعمالِكُمْ، وأزكاها عندَ مليكِكُمْ، وأرفعِهَا في درجاتِكُمْ، وخيرٍ لكم من إنفاقِ الذهبِ والوَرِق، وخيرٍ لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فتَضْرِبُوا أعناقَهُمْ ويَضْرِبُوا أعناقَكُمْ قَالُوا وما ذاكَ يا رسولَ الله قال: ذكر الله».

وعن علي كرم الله وجهه قلت يا رسول الله: أي الطرق أقرب إلى الله وأسهلها على عباد الله وأفضلها عند الله تعالى؟ قال ﷺ: «يا عليُّ عليكَ بمُدَاوَمَة ذِكْرِ الله»، فقال علي: كل الناس يذكرون الله فقال ﷺ: «يا عليُّ لا تقومُ الساعةُ حتَّى لا يبقى على وجهِ الأرضِ مَنْ يقولُ الله»، فقال له علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال له ﷺ: «غَمِّضْ عَيْنَيْكَ واسمعْ مِنِّي ثلاثَ مَرَّات»، ثم قل مثلها وأنا أسمع فقال ﷺ: «لا إله إلا الله ثلاث مرات مُغَمِّضًا عينيه» ثم قالها عليٌّ كذلك، ثم لقنها علي للحسن البصري، ثم الحسن لحبيب العجمي، ثم حبيب لداود الطائي، ثم داود لمعروف الكرخي، ثم معروف للسري، ثم السري للجنيد، ثم انتقلت إلى أرباب التربية، فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر، فالواجب على العبد أن يستغرق =

فيه أوقاته ويبذل فيه جهده، فإن الذكر منشور الولاية ولابد منه في البداية والنهاية، فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور، ومن ترك الذكر فقد عزل.

فبقدر ما يفنى في الاسم يفنى في الذات، وبقدر ما يَتَفَتَّرُ في الفناء في الاسم يكون مُتَفتِّرًا في الفناء في الذات، فليلتزم المريد الذكر على كل حال ولا يترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه، بل يذكره بلسانه، ولو كان غافلاً بقلبه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، لأن غفلتك عن ذكره إعراض عنه بالكلية، وفي وجود ذكره إقبال بوجه ما، وفي شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله، وفي فقده تعرض لاشتغالها بالمعصية.

قيل لبعضهم: ما لنا نذكر الله باللسان والقلب غافل؟ فقال: اشكر الله على ما وفق من ذكر اللسان، ولو أشغله بالغيبة ما كنت تفعل فليلزم الإنسان ذكر اللسان حتى يفتح الله في ذكر الجنان، فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، أي انتباه لمعاني الذكر عند الاشتغال به، ومن ذكر مع يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه في الخيال حتى يطمئن القلب بذكر الله، ويكون حاضرًا بقلبه، مع دوام ذكره وهذا هو ذكر الخواص، والأول ذكر العوام، فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور، لما يغمر قلبك من النور، وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق في النور حتى يغيب عما سوى المذكور، حتى يصير الذاكر مذكورًا والطالب مطلوبًا، والواصل موصولاً، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٧]، أي بممتنع فقد يرفع في أعلى الدرجات من كان في أسفل الدركات، وهاهنا يسكت اللسان، وينتقل الذكر للجنان فيصير ذكر اللسان غفلة في حق أهل هذا المقام.

وقال الواسطي مشيرًا إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه انتهى. يعني أن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضي وجود النفس، وهو شرك والشرك أقبح من الغفلة، وهذا معنى قوله: لأن ذكره سواه أي لأن ذكر اللسان يقتضي استقلال الذاكر والفرض أن الذاكر محو في مقام العيان.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور، وعن كل شيء سواه لقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨].

وقال القشيري ﷺ: الذكر اندراجُ الذاكر في مذكوره واستظلام السر عند ظهوره. وفي هذا المقام يتحقق المريد بعبادة الفكرة أو النظرة، وفكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة.

=

ثم ذكر ما يحفِّزك أيُّها الأخ على الإقبال بكليتك على الذكر، بأن الحق سبحانه وتعالى بعظمته وجلاله لا يغفل عن ذكرك، فكيف تغفل أيُّها الفقير الحقير عن ذكره؟ وهل هذا إلاَّ سوء أدب منك وجهل عظيم قدره؟ ومع ذلك فهو لا يغفل عن برك، فكيف لا تصرف جميع جوارحك في خدمته، وتقبل بقلبك على شكره؟.

فانظر هذا التحريض العظيم من هذا العارف لقلبك، وكيف يجذبك بجميع تلاشيك، ويقودك بسلاسل الاشتياق إلى ربك لمثل هذا؟ فليعمل العاملون، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، والآيات والأحاديث في هذا الباب كثرتها مشهورة، والصدور بها مملوءة، والكتب بها مسطورة، فلا نطيل بذكر ما هو كالنهار في النيات، وهل يحتاج إلى ذكر الدليل ما هو كالعيان؟ وليس يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل، فاقبل بهمَّتك أيُّها الأخ على ذكر ربِّ العالمين، واستعن على ذلك بمجالسة الصالحين.

٨٢- مَن جالس الذاكرين؛ انتبه من غفلته، ومَن خدم الصالحين؛ ارتفع لخدمته.

جالس الذاكرين؛ تسرى إليك يقظتهم، واخدم الصالحين؛ ترفعك خدمتهم.

قال الشيخ عمر السهروردي[1]: كنت أنا وعمي في مسجد الخفيف، وكان لا

=

ولذلك قال الشيخ أبو العباس ﷺ: أوقاتنا كلها ليلة القدر أي عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها، وتحقيق الإخلاص فيها، إذ لا يطلع عليها ملكٌ فيكتبه، ولا شيطان فيفسده.

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب وتركه سبب موته.

وفي الحديث: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّه والذي لا يذكرُ ربَّه كمَثَلِ الحَيِّ والميِّتِ»، ذَكر علامة حياته وموته. وانظر: الإيقاظ (شرح الحكمة: ٦٥).

(١) هو الشيخ الجليل السيد الحفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر ابن محمد البكري الصوفي السهروردي، مصنف كتاب عوارف المعارف، المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة

=

يزال يمشي ويدور في أطراف المسجد، فسألته عن ذلك، فقال: اطلب جماعة إذا وقع نظرهم على الشخص يكون كالإكسير؛ يجعل النحاس ذهبًا، فإذا كان نظرهم من بعد له هذه الخاصية، فكيف بالنظر إليهم ومحبَّتهم؟ وكيف بالجلوس معهم ومصاحبتهم؟ وكيف بالخدِّ ذلَّتهم، والانكسار لحضرتهم، وكلها درجات ومراتب

=

المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهًا شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة.

تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله.

صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ.

وصحب أيضًا قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك.

قال ابن خلكان رحمه الله: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صور فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم، وسيأتي آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

قال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع، ولازم بيته، وداوم الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر له قبول من الخاص والعام، وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم وظهر، واشتهر اسمه وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

وانظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى (١٤٣/٥)، طبقات المفسرين للداودي (٨٩)، وفيات الأعيان (٤٨٠/١)، اللباب (٥٨٠/١)، البداية والنهاية (١٣٨/١٣)، طبقات الأولياء (٥٣)، طبقات الشافعية للإسنوي (١٢٢/٢)، مرآة الجنان (٧٩/٤ ، ٨٢)، وروضة الحبور (ص١٧٦)، بتحقيقنا.

يجرُّ بعضها إلى بعض.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: إن السلحفاة تبيض وتربِّي أولادها بالنظر إليهم من بعد، ولنظرها هذه الخاصية، فإذا كان لحيوان النظرة هذه الخاصية. كيف لا يكون لنظر الولي ذلك؟ فكيف بمَن يكون في خدمته ومحبَّته متهالك؟.

قال سهل ﷺ: إن الله ينظر إلى قوم كفاحًا، وإلى قوم من قلوب قوم، فتحببَّوا إلى أولياء الله؛ لعلَّكم تصيرون في قلوبهم، فينظر الله إليها، فيراكم فيها، فيرحمكم.

قال في المعنى:

لِـي سَـادةٌ مِـن عِـزِّهم أَقْدَامُهُـم فَـوقَ الجُـبَاه
إنْ لَمْ أَكُـنْ مِـنهُمْ فَلِـي فِـي حُـبِّهم عِـزٌّ وجَـاه

وقال آخر:

أحـبُّ الصَّـالحِينَ ولَستَ مِنهُم لَعلِّـي إنْ أنَـا بِهِـم شَـفاعَة
وأكْـرَه مَـن تِجارَتـه المَعاصِي وإنْ كُـنَّا سَـواءٌ فِـي البِضـاعَة

فإذا علمت يا أخي ذلك؛ فعليك بمجالستهم وخدمتهم، تسلك أعلى المسالك، فإذا شرفك بهذه المواهب تخلَّق بأخلاقهم، واسلك ما سلكوا؛ تنل ما نالوه من المواهب(١).

---

(١) **فائدة**: قال الشيخ الكردي رحمه الله في حكمه: «أكثرْ من الذكرِ ترَ الأنوارَ البِكْرَ».
فقال الشيخ الشرقاوي رحمه الله: (**أكثر من الذكر**) هو من عطف الخاص على العام؛ لأنه من جملة المجاهدة والذكر يطلق على القرآن، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾ [الحجر:٩]، وعلى الشرف والثناء، قال تعالى: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ [ص:١]: أي الشرف والثناء، وعلى التسبيح والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ والقرآن ودرس العلم، وغير ذلك من كل ما فيه ذكر الله تعالى.
قال بعضهم: وحقيقته دوام الحضور من تخلل غفلة وفتور، فإن تخلله سُمِّي تذكرًا.
(**ترى الأنوار البكر**): أي خالصةً من شوب الأغيار.
قال الشيخ الأكبر ﷺ: إذا أشعر الإنسان قلبه ذكر الله دائمًا في كل حال لا بدَّ أن يستنير بنور الذكر، فيـرزقه ذلك النور الكشف؛ فإن بالنور يقع الكشف.
=

قال سيدي علي أفندي قدّس الله سرّه من مشايخ طريقتنا الخلوتية في رسالته التي ألّفها في الدوران في الذكر ما معناه: فالصوفي بعد الذكر الجهري يصل إلى مقام فيه ينسى ما سواه، فيحضر له سلطان القهر من حضرة اسمه تعالى القهّار، فيفقد نفسه فلا يبقى مشهودٌ له إلا هو، بحسب ما يتجلّى له، فلا يرى وجود شيءٍ من المحسوسات والمعقولات والجزئيات والكليات، ويقال لذلك المقام الغيبة والحضور: أي الغيبة عن غير الله تعالى والحضور معه، فكيف يذكر الغائب عن وجوده بشهوده باللسان؟!.

هذا لا يكون؛ لأن اللسان فان، فهذا ذكرٌ خفيٌّ ممدوحٌ عند الله وعند الناس، لا يعرفه ملَكٌ ولا مخلوقٌ، ولا يعرفه إلا الله تعالى والخليفة الأعظم المحمول، والحامل الإنسان الكامل، وهو نتيجة الذكر الجهري اللساني، فأوّل ما يكون الذكر باللسان؛ لأنه طريق الذكر الشهودي، فإذا حصل استغنى به كالاستغناء بالمدلول إذا حصل عن الدليل، ولا ينبغي ترك الذكر اللساني جملةً لأجل تنوير الجوارح الظاهرة، ولإقامة العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، سيّما إن كان الذاكر ممن يُقتدى به ولو في بعض الأحيان، فإن المُشاهد إذا ذَكر الله، ذكر من خلف حجاب العزة، الذي لا يرتفع دنيا ولا أخرى، وعلامة تمكُّن الذكر أن يجري على اللسان في حالة الغفلة من غير قصد.

وللذكر خصائص كثيرةٌ ونتائج كبيرةٌ منها: أنه منشور الولاية، وقوة أرواح أهل الهداية، والنار المحرقة للأغيار والمذهبة للآثار، وهو مَطردة للشيطان، ومرضاة للرحمن، يذهب الترح، ويجلب الفرح، يبهج القلب، ويجلوا الوجه، وينــوره، ويسهّل الرزق وييسره، ويكسو المهابة، ويدني الإصابة، ويورِّث المراقبة، ويرفع الحجب عن المحجوب، وينفي الحسرة والندامة في يوم القيامة، وهو سببٌ للعتق من النيران والأمان، وذكر الرحمن، ويعدل عتق الرقاب، ويوجب الاقتراب من رب الأرباب، ويرجّح على سائر الأعمال، ويقوي الجوارح، ويحفظ الأثقال، وهو يذهب بالأجزاء النابتة من تناول الشبهات أو الحرام، ولا وقت له، ولم يرد النص إلا بالإكثار منه وصاحبه جليس السلام، وله من اللّذات ما يفوق على المطعومات والمشروبات، ووجه الذاكر وقلبه يكسى في الدنيا نضرة وسرورًا، وفي الآخرة وجهه أشد بياضًا من القمر، والذاكر حي وإن مات، وبضده الغافل فإنه من جملة الأموات، والذاكر يورِّث الري من العطش عند الموت، والأمن عند خوف الفوت.

ومن أقسامه: ذكر أحباب الله تعالى لما روى الديلمي عن عائشة ذكر على عبادة وعنه ﷺ: «ذكرُ الأنبياء من العبادة، وذكرُ الصالحين كفّارةٌ، وذكرُ الموت صدقةٌ، وذكرُ القبر يقرِّبكم من الجنّة»، رواه الديلمي عن معاذ ﷺ.

=

=

وقال: الذاكرون أعلى الطوائف مطلقًا، ولهذا ختم الله تعالى بقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، ولم يذكر بعدهم شيئًا انتهى.

وذكره تعالى على أقسامٍ: وأوّل ما يكون باللسان، ثم بالجنان، ثم بالأركان، ويقع في النفس، ثم في الروح، ثم يكون بالعقل، ثم بالسرّ، ثم بالخفاء، ثم بالإخفاء، ثم بالمجموع، وما عدا الذكر اللساني فبالملاحظة من غير حركة ظاهرة، ويصدق على ما عداه أنه ذكرٌ خفيٌّ، وفي الحديث: «**خيرُ الذكرِ الخفيُّ وخيرُ الرزْقِ ما يُكفي**». رواه أحمد وابن حبان، والبيهقي عن سعد.

وعنه ﷺ «**الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه بسبعين ضعفًا**».

وتمامه كما ذكره المناوي رحمه الله تعالى: «فإذا جمع الله تعالى الخلق، وجاءت الحفظة بما كتبوا وحفظوا يقول: انظروا هل بقي من شيء؟ فيقولون: ربنا ما تركنا شيئًا إلا أحصيناه وكتبناه، فيقول الله تعالى: إن لك عندي حديثًا لا يعلم به أحدٌ غيري، وأنا أجزيك به وهو الذكر الخفي». رواه أبو يعلى، والبيهقي، والديلمي وغيرهم.

وعلامة ذكر القلب سماع ذكره أحيانًا بأذن الجسم، وسماع ذكر الجمادات؛ لأنها تذكر مع ذكر القلب.

وعلامة تحقيق صاحبه بمقام الفناء وتوحيد، وعلامة ذكر الروح: حصول فتوح يحقق له توحيد الأفعال ويدرك معنى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].

وعلامة ذكر السر: انجذاب القلب إلى حضرة الرب انجذابًا مدركًا لصاحبه من طريق الذوق والوجدان، ويحقق به توحيد الأسماء، وعلامة الصفات ليبلغ المنى.

وعلامة ذكر الإخفاء: التحقق بالفناء عن الفناء، وتوحيد الذات لتكمل له اللَّذات.

وعلامة ذكر الجملة: التحقيق بالبقاء مع الفناء، ببقاء البقاء بعد فناء الفناء، والعثور على كنز معرفة الذات بعد معرفة صفات الصفات وأسماء الذات.

ولكل ذكر من هذه الأذكار عوالم تُذكر مع صاحبها بأمر القهار، فاللسان يذكر لذكره كل جماد، والقلب الكون وما فيه، والنفس السموات وسكانها، والروح الكرسي وما حوى، والعقل الكروبيون والطائفون وحملة العرش، والسر العرش وعوالمه، إلى أن يتصل الذكر بالذات المنزَّهة، ولا يظهر نتيجة الذكر إلا في القلوب الفارغة من غيره تعالى، التي ليس لها تعلق شغل إلا به، فالمرة الواحدة من ذلك القلب تقوم مقام الألف من غيره، وإذا قوي ذكر القلب تضرر صاحبه من اللساني فيتركه إلا في المفروضات.

=

=

قال سيدي علي أفندي قدّس الله سرّه من مشايخ طريقتنا الخلوتية في رسالته التي ألفها في الدوران في الذكر ما معناه: فالصوفي بعد الذكر الجهري يصل إلى مقام فيه ينسي ما سواه، فيحضر نه سلطان القهر من حضرة اسمه تعالى القهّار، فيفقد نفسه فلا يبقى مشهودٌ له إلا هو، بحسب ما يتجلّى له، فلا يرى وجود شيءٍ من المحسوسات والمعقولات والجزئيات والكليات، ويقال لذلك المقام الغيبة والحضور: أي الغيبة عن غير الله تعالى والحضور معه، فكيف يذكر الغائب عن وجوده بشهوده باللسان؟!.

هذا لا يكون: لأن اللسان فان، فهذا ذِكرٌ خفيٌّ ممدوحٌ عند الله وعند الناس، لا يعرفه ملكٌ ولا مخلوقٌ، ولا يعرفه إلا الله تعالى والخليفة الأعظم المحمول، والحامل الإنسان الكامل، وهو نتيجة الذكر الجهري اللساني، فأوّل ما يكون الذكر باللسان؛ لأنه طريق الذكر الشهودي، فإذا حصل استغنى به كالاستغناء بالمدلول إذا حصل عن الدليل، ولا ينبغي ترك الذكر اللساني جملةً لأجل تنوير الجوارح الظاهرة، ولإقامة العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، سيَّما إن كان الذاكر ممن يُقتدى به ولو في بعض الأحيان، فإن المُشاهد إذا ذَكر الله، ذكر من خلف حجاب العزة، الذي لا يرتفع دنيا ولا أخرى، وعلامة تمكُّن الذكر أن يجري على اللسان في حالة الغفلة من غير قصد.

وللذكر خصائص كثيرةٌ ونتائج كبيرةٌ منها: أنه منشور الولاية، وقوة أرواح أهل الهداية، والنار المحرقة للأغيار والمذهبة للآثار، وهو مَطردة للشيطان، ومرضاة للرحمن، يذهب الترح، ويجلب الفرح، يبهج القلب، ويجلوا الوجه، وينـــوره، ويسهِّل الرزق وييسره، ويكسو المهابة، ويدني الإصابة، ويورِّث المراقبة، ويرفع الحجب عن المحجوب، وينفي الحسرة والندامة في يوم القيامة، وهو سببٌ للعتق من النيران والأمان، وذكر الرحمن، ويعدل عتق الرقاب، ويوجب الاقتراب من رب الأرباب، ويرجِّح على سائر الأعمال، ويقوي الجوارح، ويخفظ الأثقال، وهو يذهب بالأجزاء النابتة من تناول الشبهات أو الحرام، ولا وقت له، ولم يرد النص إلا بالإكثار منه وصاحبه جليس السلام، وله من اللّذات ما يفوق على المطعومات والمشروبات، ووجه الذاكر وقلبه يكسى في الدنيا نضرة وسرورًا، وفي الآخرة وجهه أشد بياضًا من القمر، والذاكر حي وإن مات، وبضده الغافل فإنه من جملة الأموات، والذاكر يورِّث الري من العطش عند الموت، والأمن عند خوف الفوت.

ومن أقسامه: ذِكر أحباب الله تعالى لما روى الديلمي عن عائشة ذكر على عبادة وعنه ﷺ: «ذكرُ الأنبياء من العبادة، وذكرُ الصالحين كفّارةٌ، وذكرُ الموت صدقةٌ، وذكرُ القبر يقرِّبكم من الجنَّة»، رواه الديلمي عن معاذ ﷺ.

=

=

ومن خصائص أهله: أنهم هم القوم لا يشقى جليسهم، وأنهم معانون على ما يطلبون من الحوائج لقوله ﷺ: «**أكثرْ ذكرَ الله؛ فإنه عونٌ لك على ما تطلب**»، وأنهم يردُّون يوم القيامة خفافًا لوضع الذكر أثقالهم، وأنهم إذا رأوا ذِكر الله، كما رُوي عن ابن عباس ﷺ: «**أفضلكم الذين إذا رأوا ذكر الله لرؤيتهم**».

وعن ابن عمر رضيَ الله عنهما: «**خياركم من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، ورغَّبكم في الآخرة عمله**»: أيَ أن رؤيتهم تذكر الله تعالى لما يعلوهم من البهاء، والإشراق، والهيبة، وحسن السمت، وإنهم إذا اجتمعوا عليه، وتفرَّقوا عنه، قيل لهم: «**قوموا مغفورًا لكم**».

وأنهم أهل الطاعة والحب في الله، المبرَّأون من النفاق، تنـزل على مساكنهم السكينة وتحفُّ بهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، ويذكرهم الله فيمن عنده، وإن بقعتهم تفخر على غيرها من البقاع، وتستنير بذكر الله إلى منتهى سبع أرضين، وأنهم أهل الكرم لحديث: «يقول الربُّ ﷻ يوم القيامة: سيُعلم أهل الجمع من أهل الكرم. قيل: ومَنْ أهل الكرمً يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر في المساجد، وإن الصواعق والبلايا تتخطاهم، وبهم تُصرف، وأنهم يعطون فوق ما يُعطى السائلون؛ لاشتغالهم بالذكر عن المسألة، وإن الأذكار لها صورٌ ذات أنوارٍ يتعاطفن حول العرش، لها دويٌّ كدوي النحل، يذكرن بصاحبهن، أفلا يحب أحدكم ألا يزال له عند العرش شيءٌ يُذكر به». كما في الجامع الكبير، وأن الله يذكُرهم بذكرهم إياه.

وفي الخبر على ما نقل صاحب الرسالة: أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله يقول: أعطيت لأمتك ما لم أعط أمةً من الأمم فقال: «**وما ذاك يا جبريل؟**» فقال: قوله: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢]. لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة». وقيل: إن الملك يستأمر الذاكر في قبض روحه.

ثم قال مسند إلى الجنيد سمعت السري يقول: مكتوب في بعض الكتب التي أنزل الله: (إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته).

ثم قال: وقيل إذا تمكَّن الذكر من القلب، فإذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسَّه الإنس بالذكر انتهى.

والذكر أحد أركان الطريق الثمانية كما قال الجنيد ﷺ وهي: الجوع، والصمت والسهر، والعزلة، ودوام الطُهر، وربط القلب بالشيخ، بأن يراقبه به دائمًا، ونفي كل الخواطر عن

=

٨٣- لسان الورع يدعو إلى منـــزل الآفات، ولسان التعبُّد يدعو إلى دوام الاجتهاد، ولسان المحبَّة يدعو إلى الذّوبان والهيمان، ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو والإثبات.

قلبه، فإن تكرر عليه خاطرٌ حكاه للشيخ، والذكر في كل حالٍ، وأنفع الذكر ما لقَّنه الشيخ للمريد، فيذكر به.

وآداب الذكر عشرون: خمسة قبله وهي:

١- الطُهر من غسل أو وضوء.

٢- والتوبة.

٣- والسكون.

٤- والاستمداد من مربيه.

٥- وشهوده أن إمداد ذلك المربي من النبي ﷺ.

واثنا عشر في أثنائه وهي:

١- استقبال القبلة.

٢- وضع يديه على فخذيه كهيئة جلوس الصلاة.

٣- إغماض عينيه، والجلوس على مكان طاهر، وكون المكان مظلمًا.

٤- والإخلاص في الذِكر بألا يشوب غرضٌ ينافي الإخلاص، وصدقه فيه بحيث يستوي عنده السر والعلانية.

٥- تطيب الثوب والمجلس بالرائحة الطيبة.

ونفي كل موجود عن القلب، واستحضار معنى الذكر، واستحضار صورة الشيخ في خياله، وأن يختار من صيغ الذكر لا إله إلا الله، فإن لها عند العارفين تأثيرًا لا يوجد في غيرها، إذا كان يذكر مع عموم الإخوان، فإن ذكر وحده ذكر بما لقنه أستاذه.

وثلاثة بعده: وهي الصمت مع السكوت مترقبًا الوارد يرد عليه يعمِّر قلبه وسره، فربما جاء وارد إلهي حصل له منه ثمرة لا تحصل بالمجاهدة والرياضة في أكثر من ثلاثين سنة، وزم النفس مرارًا ثلاثًا أو سبعًا، وعدم شرب الماء حتى تمضي ساعة أو نصفها؛ لأنه يطفأ حرقة الشوق ويضر بالبدن، فهو مكروه عرفًا وطبًّا، وأجمعوا على أنه ينبغي للمريد إذا ذكر الله تعالى أن يهتز من فرق رأسه إلى أصابع قدميه، فإنها حالة يستدل بها على أنه صاحب همة، فيرجى له الفتح عن قريب. وانظر: شرح الحكم الكردية (حكمة رقم ٥).

والصحو شرع يبيِّن منازل السالكين السائرين من البداية إلى النهاية:

فأول منـــزل: ينـــزله السالك: منـــزل الورع؛ وهو ترك الشبهات من سائر الآفات، وهو الأساس لسائر العبادات؛ إذ مَن لم يطب مطعمه؛ لا يتم له في جهاده مغنمه.

قال إبراهيم بن أدهم ﷺ: اطلب مطعمك، وما عليك ألاَّ تقوم بالليل، وتصوم النهار، وما ينفع الصيام والقيام والمأكل من الحرام، كما قال ﷺ:

«**مطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب له، ومثل الذي يأكل الحرام، ويعبد؛ كمثل الذي يبني على الماء**»[1] ؛ فلذلك كانت القناعة في هذا الباب رأس الغنى.

كما قال بعضهم:

عَزيـــزُ الـــنَّفسِ مَن لَزِم القَنَاعةَ ... ولَمْ يَكشِـــف لِمخْلُـــوق قِـــناعَه

أَفَادَتْـــهُ القَـــناعَةُ كـــلّ عـــزٍّ ... وهَـــل عِـــزٌّ أعـــزُّ مِـــن القَـــناعَة

فَصـــيِّرهَا لِنفسِـــك رأسَ مـــالٍ ... وصَـــيِّر بَعدَهـــا الـــتَّقْوى بِضَاعَة

فلا يتمُّ الورع إلاَّ لمَن لزم القناعة، ولا يتمُّ المتجر الرابح إلاَّ لمَن صيَّرها بضاعة.

وما أحسن ما قال بعضهم:

العَـــبدُ حِـــرانُ قَـــنِعٍ ... والحـــرُّ عَـــبدٌ إنْ قَـــنَع

فَأقـــنَعْ ولا تُقـــنِع فَمَـــا ... شَـــيءٌ يُشَـــينُ سِـــوَى الطَّمَـــع

المنـــزل الثاني: منـــزل التعبُّد، فإذا أتقن السالك مقام الورع، وجاوزه؛ وصل إلى منـــزل التعبُّد، ودوام الاجتهاد، وبذل الهمَّة في الخدمة؛ يُسقى كابن الوداد، فإن الله ما خلق الجن والإنس إلاَّ ليعبدوه، وما وصل العارفون إلى ما وصلوا إلاَّ بحسن ما عاملوه.

---

(١) رواه مسلم (٢/٧٠٣)، وأبو نعيم في المسند المستخرج (٣/٩١)، والبغوي في مسند ابن أبي الجعد (١/٢٩٦).

فعليك أيُّها الأخ الموفّق بإجابة هذا اللسان بجميع جوارحك، وبسويد الجنات؛ تحسن مقام الوراثة، ومقام العبودية، وتشرق عليك شموس أوصاف الربوبية بالخلافة المحمَّدية، وتعجز الألسن حينئذٍ عن وصف بعض ما فيك من الرتب العليَّة.

المنـــزل الثالث: منـــزل المحبَّة، فإذا وصله السالك، ونـــزل فيه؛ دعاه لسانه إلى الذوبان والهيمان، وترك المعارف والإخوان، وهجران تلك المنازل والربوع، وسكب العبرات، وفيض تلك الدموع، وينشد بذلك اللسان، ويترنَّم ترنُّم الهائم الولهان.

قال الغزالي:

تَركْتُ هَوى سَعْدِي ولَيلي بِمعْزلٍ وعُدتُ إلى مَصحُوبِ أَولِ مَنْـــزلِ
ونَادَتـــنِي الأشْـــواقُ مَهلاً فَهذِهِ مَـــنازِلُ مَن تَهْوى رِويْدكَ فانْـــزِل

وما أحسن ما قال ذو النون ﷺ في وصف المشتاقين إلى تلك المنازل: سقاهم من صرف المودة شربة فماتت شهواتهم في القلوب من خوف عوائق الذنوب، وذهلت أنفسهم عن المطاعم من حذر فوق المناعم في دار يُستطاب فيها المكارم مَن قد تحلَّوا الأبدان بالجوع، والإخوان وصفوا القلوب من كل كدر، فهي متعلِّقة بمواصلة المحبوب.

فيا حسن غرابين الأشجار في رياض الكتمان، وقد تمَّت في صحف بروح القلوب، قدَّمتموه من ماء المنى، فالإخوان تهيجهم، والشوق يقلقهم شوق أضر بمهجة المشتاق، وجرت سوابق غيرة الاشتياق، لعبت به العبرات في وجناته، وكذا قد لعبت به الأشواق.

فأجب أيُّها الأخ الشقيق هذا اللسان باختراق الفؤاد، وتمزُّق الجنان، وصرف نفائس الأوقات، وبذل المهجة، وغيِّها من أبخس الأثمان، وقل بلسان وجدك والاشتياق مظهرًا ثمة ما يظهره العُشَّاق:

أَبـــدًا تَحـــنُّ إلـــيْكُم الأَرْواحُ ووِصَـــالكُم رَيْحانِهَـــا والـــرَّاحُ
وقُلُـــوبُ أهْلِ وِدادَكم تَشتَاقُكم وإلى كَمَـــالِ جَمَـــالِكُم تَـــرتَاحُ

يَـا رحْمـةً لِلعَاشِـقينَ تَحمَّلُوا   نَقـلَ المَحَـبَّةِ والهَـوَى فَضَّـاحُ

المنـزل الرابع: منـزل المعرفة؛ وهي النهاية، فإذا وصله السالك، ونـزل فيه؛ دعاه لسانه إلى الغنى والمحو، والثبات والصحو؛ يعني: إن المنتهي إذا وصل إلى مقام النهاية؛ تحقّق بمقام الجمع الذي هو الفناء والمحو، وبمقام الفرق الذي هو الثبات والصحو؛ وهو مقام البقاء، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه.

كما قال بعض العارفين:

لَـه لَدى الجَمعِ فَرقٌ يَسْتَضِيء بِه   كَالفـرقِ فِـي جَمعِه مَا زَالَ يَلقيهِ

وقال آخر:

رقّ الـزُّجَاجُ ورَاقـتْ الخَمـرُ   فَتشَـأ بِهَـا فتَنشَـأ كُـلُّ الأمْر
فَكأنَّمـا خَمـرٌ لا قَـدْح   وكَأنَّمـا قَـدحٌ ولا خَمْـر

فإذا تكلّم في الجمع؛ فكأنما لا يعرف الفرق، ولا يدريه، وإذا تلبّس بالفرق؛ كأنه لم يعلم الجمع، ولم يذق شيئًا من معانيه، قد جعل لا إله إلاّ الله محمد رسول الله شعار، وإيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين دثاره، وهذا هو الصراط المستقيم الذي مَن تشرَّف به؛ كان من الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فهنيئًا لَمن ذاق جرعة من هذا الكأس، وما أطيب حال مَن شمَّ رائحة من هذه الأنفاس، فإذا وصلت يا أخي إلى هذه المراتب العليَّة؛ فلا تنسَ حُسن مخالطة البرية.

٨٤- الصحبة والمرؤة موافقة الإخوان فيما لا يحظره العلم عليك.

شرط الموافقة، وحسن الصحبة دليل على الكمال؛ إذ هي من أخلاق الرجال البالغين مقام الوصال، كان ﷺ يخالطهم؛ كأنه واحد منهم يسأل عمَّا يسأل عنه الناس، ويمازح الكبير، ويتلطَّف مع الصغير، ويعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، كان إذا وصل من السفر؛ يبادر إليه الصبيان، فيركب واحدًا أمامه، وآخر خلفه، وكان إذا سجد ربما ركب على ظهره الحسين رضي الله عنه وهو صغير، فيمكث له ساعة مطمئنًا لخاطره وملاطفته، وهكذا شأن مَن امتلأ بالمعرفة، يعطي كل موطن ما يقتضيه ذلك الموطن من الجمال والجلال.

دخل شخص على معاوية فرآه قد جعل نفسه كالبعير، يمشي على أربعة، وفي فمه حبل يقوده صغير له، فقال له ذلك الشخص: أتفعل هذا وأنت أمير المؤمنين؟ فقال له: اسكت يا لكع، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن له صبيٌّ فليتصاب له**»(١).

فانظر يا أخي إلى هذا المنـــزل العظيم من هذا الرجل العظيم الكامل الذي هو خليفة المسلمين، وكاتب وحي رسول الله ﷺ، تعلم من هنا معنى قولهم: العارف كائن بائن؛ كائن بظاهره مع الخلق كأنه واحد منهم، وهو مع ذلك بائن بقلبه عنهم، ليس في قلبه سوى مولاه، ولا يركن إلى أحد سواه، باطنه متحقّق بمعنى: لا إله إلاَّ الله، وظاهره يتخلّق بما تخلّق به محمد رسول الله ﷺ.

كما قيل:

ومِــن داخِــلِ كُــنْ صَاحيًا ومِــن خَــارجِ خَــالِط كَبعضِ

وهذا كله فيما لا يمنعه العلم، فإن كان كذلك؛ كان أبعد الناس عنه، إذ امتثال الأوامر، واجتناب النواهي قطب دائرة السالك، ومدار مركز الموحِّدين يخلون بثمة من ذلك، ولا يفرِّطون في ذرَّة مما هنالك.

فإذا أردت أيُّها الأخ أن تتشرَّف بهذه الأخلاق المحمَّدية؛ املأ قلبك بذكر الله، واجعله القوت تصل إلى هذه الخصال المرضية.

٨٥- قوت العارف بمعروفه، وقوت الغني بمعتاده ومألوفه.

العارف: هو الذي لا يتغذّى قلبه إلاَّ بذكر الله، وليس لسرِّه وروحه قوت سواه.

سُئل سهل ﷺ: ما القوت؟

فقال: ذكر الحيّ الذي لا يموت، فكما أن للجسد قوتًا لا بُدَّ منه في قوامه، كذلك لا بُدَّ للقلب من قوت يكون سببًا لحياته ودوامه.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٠٩/٦)، والحسيني في البيان والتعريف (٢٢٨/٢).

فقوت الأجساد: هو قوت الغبي من المعتاد والمألوف.

وقوت القلب: هو قوت العارف من ذكر الحي المعروف.

وكما أن الجسد إذا فقد غذاءه مات، كذلك القلب إذا فقد ذكر مولاه انعدم وفات.

وصل بعض الفقراء إلى زيارة بعض المشايخ، فلمَّا انتهى إلى طرف تلك البلدة التي فيها ذلك الشيخ، سمع بعض الحيوانات تتحدَّث مع بعضها، وتذكر أن الشيخ مات بالأمس، وكان ذلك الفقير يفهم لغة الحيوانات، ويعلم صدقها، فتأسَّف على عدم الاجتماع به قبل موته، فلمَّا دخل البلد رأى ذلك الشيخ حيًّا فاستغرب الحال، فسأل ذلك الشيخ عن حقيقة الحال، وأخبره بما سمع فقال: لقد صدق ذلك الحيوان فيما أخبرك به، فإني كنت بالأمس في غفلة؛ وهي موت عند أهل البصيرة؛ ولكن لا يفهم يا أخي مثل هذا الموت إلاَّ أهل السريرة.، فاجتهد أيُّها الأخ في تصفية القلب من الأكدار حتى يتغذَّى قلبك بمثل هذا الغذاء. وتصير من أهل المنادمة والأسرار.

٨٦- سُئل ﷺ عن نهجهم عن صحبة الأحداث فقال: هو المستقبل للأمر المبتدئ في الطريق، الذي لم يجرب الأمور، ولم يثبت له فيها قدمٌ، وإن كان ابن سبعين سنة.

قال سهل ﷺ: لا تطلعوا الأحداث على الأسرار قبل تمكينهم، وأما أهل العلل والنفوس الدنية فهم أخس من أن يُذكروا بأمرٍ أو نهي، وقيل: الإشارة بالأحداث إلى ما سوى الله من المحدثات.

الحاصل أن الشيخ ﷺ فسَّر الأحداث المنهي عن صحبتهم بالمبتدئين في الطريق الذين لم يصلوا إلى حد التمكين، ولم ينفتح لهم باب قلبهم، ولم تنكشف لهم الحقائق، ولم يصلوا إلى لب الرقائق، بل هم في بداية المجاهدات من الأعمال، فهؤلاء لا تليق بهم المصاحبة الذوقية، ولا ينبغي المحاورة معهم في الأسرار الإلهية، وإن كان الواحد منهم ابن سبعين سنة؛ إذ الكبر هنا بعظم معارف الجنان لا بطون العمر وكثرة الزمان.

ولذلك استشهد بقول سهل ﷺ: لا تطلعوا الأحداث على الأسرار قبل تمكينهم.

ولذلك كان الجنيد ﷺ إذا أراد أن يتكلم في الحقائق أغلق داره، ودخل مع خواصه، وجعل المفتاح تحت فخذه، ثم تكلم في الحقائق، وكل ذلك خوفًا من أن يسمعه شخصٌ من أحياء الطريق فلا يفهم المراد منها، فيضل ويتزندق، فإن أذواقهم فوق طور العقل لا تُفهم إلاَّ بنورٍ ربَّانيٍّ، وذوقٍ إيمانيٍّ، يقذفه الله في قلوب العارفين عند كمالهم، وتصفية قلوبهم[1]، فمن كان قلبه مع الأغيار وهو مقيَّدٌ بعقال العقل كيف يفهم المراد من كلامهم؟! وكيف يشم رائحة من مراامهم، فلذلك قال بعض العارفين:

يَـا رَبَّ جَوْهــر عِلمٍ لَو أبوحُ بِهِ لقِـيلَ لِـي أنـتَ ممنْ يَعم الوثَنا

---

(١) قال سيدي إسماعيل حقي: والحاصل: كما أن الإنسان آخر الكائنات؛ فكذا لسان الشرع آخر الألسنة، وفوق لسان الشريعة لسان الطريقة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة، ولكل مقام مقال رجال.

فقد جاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال: أبهموا ما أبهم الله، وفصلوا ما فصَّل الله.

ولم يكن أحدًا من أولياء هذه الأمة مأذونًا لإظهار بعض الأسرار، إلا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر، ومن عداه أُمروا بالسكوت، أو بالرموز لا غير، وكذا فوق مرتبة الإنسان مرتبة المواليد، ثم مرتبة العناصر، ثم مرتبة الطبيعة الكلية، ثم مرتبة الأرواح، ثم مرتبة الأعيان الثابتة، ثم مرتبة الشئون الذاتية الغيبية، ولا اسم ولا رسم، ولا نعت ولا وصف فوقها.

وبعبارة أُخرى: فوق مرتبة الإنسان الخاص، وهي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة الإنسان الأخص، وهي مرتبة النبوة، وفوقها مرتبة الإنسان الذي هو أخص الأخص، وهي مرتبة الرسالة، وفيما بعد المرتبة الأولى يظهر الإنسان في صورة الحق بالفعل، فهو إذًا حق خلق.

وأما في المرتبة الأولى فهو وإن كان ظاهرًا في صورة الحق، لكن بالقوة لوجود الحجاب والجهل والغفلة، كشف الله من بصائرنا ذلك الحجاب آمين. وانظر: مرآة الحقائق (ص٢٨).

وَلاَ اسْـتبَاحَ رِجَال مُسلمونَ دَمِي يَـرونَ أَقْـبَح مَـا يأتونَهُ حسنَا

وقال ابن عباس ﷺ: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾** [الطلاق:١٢]، ولو فسرتها بما أعلم لشكرتموني.

وقال أبو هريرة ﷺ: أخذت عن خليلي علمين: أما أحدهما فقد يثبته، وأما الآخر فلو يثبته لقطع معنى العلوم؛ لأنه من علوم الأسرار التي لا يليق ذكرها لأحداث هذه الدار.

ورد أنه ﷺ لما أُسري به أُعطي علومًا ثلاثًا: أما أحدهما فقد أُمر بذكره، وأما الثاني فقد خُيِّر فيه، وأما الثالث فمُنع من إظهاره، وهو علم الأسرار.

ولذلك قال ذو النون ﷺ: سافرت ثلاث سفرات: فالأولى قبَّلني فيها العوام والخواص، والثانية قبَّلني فيها الخواص دون العوام، والثالثة ردَّني فيها الخواص والعوام، قالوا أنه أتاهم في السفرة الأولى بالتوبة والمجاهدة، وسائر أنواع المعاملة، فهذه تفهمها الخواص والعوام، ويعملون بمقتضاها، وفي السفرة الثانية أتاهم بالزهد، فهذا لا يقبله إلاَّ الخواص، وفي الثالثة أتاهم بالحقائق، فهذه لا يقبلها الخواص ولا العوام، وإنما يقبلها خواص الخواص، والحاصل أنه لا ينبغي للعارف أن يعامل كل أحد ولا يخاطبه إلاَّ بما يليق بحاله، فمصاحبة المنتهي ومحاورته ليست كمصاحبة المبتدئ، فهو كالطبيب الذي يعطي كل مريضٍ ما يناسبه، فليس غذاء الصحيح كغذاء المريض، ويعطي كل حنجرة بما يليق، فليس غذاء العصفور من الحبوب كغذاء الحمام.

قال ﷺ: «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**[١]»، فهذا هو المراد من نفي صحبة الأحداث في كلام السائل.

- **وأما أهل العلل والنفوس الدنسة من أهل الهوى والغوايات والمخالفات والشهوات، فهم أقل من أن يذكروا بأمرٍ أو نهي، وقيل: الإشارة بالأحداث إلى ما سوى الله من المحدثات.**

أي لا تصحبوا المحدثات بقلوبكم، واجعلوا قلوبكم صافيات مصفيات لمولاكم،

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٥/١)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢٥١/٢).

وتلذذوا بحقيقة الذِّكر لمن بنعمه أولاكم؛ إذ حقيقة الذِّكر الإعراض عن السوى، والإقبال على المولى، فما دام فيه خطرة من الأكوان، فهو مصاحبٌ لها، وهي مشغلة له بصحبتها عن مولاه، ومن لا يصبر على صحبة مولاه ابتلاه بصحبة العبيد، وهي الخواطر والنقوش الكونية، وهي الحجاب الذي بين العبد وربه كما قال بعض العارفين.

فلذلك قال في الحكم العطائية: فَرِّغْ قلبَكَ من الأغيارِ تملأْهُ بالمعارفِ والأسرارِ(١).

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: التفرغ هو الخلو من الشيء والتنظيف منه، والأغيار: جمع غِير بكسر الغين وفتح الياء، ويصح أن يكون بفتح الغين وسكون الياء وهو أليق، والمراد به حينئذٍ السوى، وإنما جمعه لتعدد أنواعه كما قالوا في جمع العالمين.

يقول ﷺ: فرغ قلبك أيها الفقير من الأغيار، وهو ما سوى الله، بحيث لا يتعلق قلبك بشيء من الكون علويًّا، أو سفليًّا، دنيويًّا، أو أخرويًّا حسيًّا أو معنويًّا، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية و لم يبق فيه إلا محبة مولاه، فإنه يملأه بالمعارف، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم، ويذهب عنك ظلمة الحس، فتشاهد الأشياء كلها أنوار ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية، ويملأه أيضًا بالأسرار، وهي أسرار الجبروت، فتغيب بالجمع عن الفرق، وبشهود الجبروت عن شهود الملكوت، وتكاشف بأسرار القدر فيهب عليك نسيم برد الرضا والتسليم، وأنت في حضرة النعيم المقيم عند الملك الكريم، فالأسرار على هذا أبلغ من المعارف، فالمعارف أنوار الملكوت، والأسرار أنوار الجبروت، لأن السائر قد يكشف له عن نور الملكوت، فيشهد الكون كله نورًا لكنه مفتقر إلى تلك الأنوار ليترقى بها إلى التمكين في شهود الذات، كافتقار القارئ إلى النظر في الرسوم، فإذا حفظ القارئ المعنى وتمكن منه محي الرسوم ولم يفتقر إليها، كذلك السالك يكشف له أولاً عن نور الكون فيغيب في النور عن ظلمة الحس، ثم لا يزال في السير حتى يقبض المعنى ويتمكن منه، فلا يحتاج إلى مشاهدة، فيستغني عن نور الملكوت بنور الجبروت، وقد تقدم هذا المعنى عند قول المؤلف: اهتدى الراحلون إلخ الحكمة، فيمتحى السّوى عن عين قلبه بالكلية، ويغيب عن نفسه وحسه بشهود الأحدية، ولله در قول الشاعر:

إن تلاشــى الكــونُ عن عين قلبي شــاهدَ الســرُّ غيــبَه في بــيانِ
فاطــرحِ الكــونَ عن عِيَانِك وامحُ نقطــةَ الغــينِ إن أردتَ تــراني

ويحتمل أن يريد بالمعارف علوم العرفان، وبالأسرار الأذواق والوجدان، فتكون المعارف هي علوم المعرفة، بحيث يعرف في كل شيء، ولا ينكر شيئًا، والأسرار أذواق تلك العلوم، فإن
=

وكما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه.

فيا من يريد صفاء الأسرار يتشرَّف بصحبة مولاه، عليك بصحيح النظر، وسماع الأخبار حتى يظفر قلبك بما يتمناه.

٨٧- من هيَّمه أثر النظر، وأقلقه سماع الخبر، انقطع في مفاوز الخطرات، ولم يلتفت إلى الآفات، يقول في هيمانه: كيف السبيل إلى وصلٍ أعيش به.

أي: من نظر النظر الصحيح، وفهم الفهم المليح، وعلم ما خُلق لأجله، ومازج لحمه ودمه هذا العلم حتى استوت على قلبه، وصار له كرأي العين يشهد في كل زمان، وفي كل آن، وأيد ذلك النظر بسماع الأخيار الواردة في الكتاب والسنة من الحث على العبادات، وبذل الجهد في المجاهدات، وصرف نفائس الأوقات ذخيرة وعدة ليوم الحسرات، وسوق مطايا الأشواق شوقًا للقاء الحبيب، ورغبة في انـــزلاق هيمه ذلك النظر، وأقلقه ذلك الخبر، ورمى بنفسه في المهلكات.

(وانقطع في مفاوز الخطرات لا يلتفت إلى الآفات، ويقول في هيمانه: كيف السبيل إلى وصلٍ أعيش به)، فإن من تلذَّذ بالمحبة رأى المحنة منحة، واستعذب العذاب، وهان عليه مفارقة الأصحاب.

يشهد المر كالعسل، ولا يبالي بمن أدبر عنه أو أقبل لا يتلذذ، ولا يتغذى إلاَّ بذكر مولاه، ولا يطمئن ولا يهتد إلاَّ بالدليل الذي يوصله إلى الله، يخضع وينكسر لكل

=

المعرفة تكون أولا علمًا وآخرًا ذوقًا، ويحتمل أن يكون من عطف التفسير فتكون الأسرار هي المعارف، والله تعالى أعلم.

ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام فليفرغ قلبه، وينظفه على التمام، فبقدر التخلية تكون التحلية، وبقدر التصفية تكون الترقية، ولأجل هذا نهوا السائر عن التزوج وعن التعلق بالأسباب، إذ لا يخلو من علقة، فإذا تمكن من المعنى لم يبق له مراد إلا مراد معروفه، وصار كل ما يبرز من عند مولاه تلقاه بالقبول، فإن طال بالمريد السفر، وتأخر عنه الفتح والظفر، فلم يدرك هذه الأسرار، ولم يكشف له عن تلك الأنوار، فلا يستبطئ من ربه النوال، فإنه جوّاد كريم، ولكن يستبطئ منه وجود الإقبال.

من يلقاه، ويتواضع لكل صغيرٍ وكبيرٍ، ويطلب منه المدد بقلب أوَّاه، محسنًا عقيدته في كل أحدٍ لعله يظفر عند واحدٍ منهم بشيءٍ من الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولَد.

أَمَـرُّ عَلَـى الدِّيَـارِ دِيَـارِ لَيْلَى ... أُقَـبِّلُ ذَا الجِـدَارِ وَذَا الجِـدَارِ
وَمَـا حُـبّ الدِّيَـارِ سَكَنَ قَلْبِي ... وَلَكِـنْ حُـبّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارِ

مستشعرًا أن الله تعالى خبأ ثلاثة أشياء في ثلاثة مواضع: خبأ سخطه في معصيته، فلا يستحق معصيته، وخبأ رضاه في طاعته، فلا يستغل طاعته، وخبأ ولايته في قلوب عباده، فلا يستحقر واحدًا منهم، بل يخضع ويتواضع لعل الكنــز الذي يطلبه يجده عنده.

فحسن الظن أيُّها الأخ في كل من أتاه الظفر بالمراد، وإيَّاك وسوء الظن فإنه سبب البعد والقطيعة عن ارتشاف كئوس هذا المدام.

٨٨- آفات الخلق سوء الظن، وآفات الصوفية اتِّباع الهوى.

مدار الطريق على الرفيق، وبعد ذلك لا بُدَّ من الجاثية لكل ما تلقاه فيه [من] تعويق، فآفات المبتدئين في الطريق من الخلق سوء الظن والعقيدة، فلا يرون رفيقًا ولا دليلاً إلاَّ ساءوا به الظن، ولم يشهدوا خصاله الحميدة؛ لأنهم يرونه مركبًا من لحمٍ ودمٍ، مثل تركيبهم ويأكل مثل مأكلهم، ويشرب مثل مشربهم، فأنَّى لهم والتوصل إلى معرفة خصوصيته، وكيف يرى من لا يبصر إلاَّ بعينه الشحمية ما يراه أهل القلوب بعين البصيرة، فلذلك قال في الحكم العطائية: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلاَّ من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلاَّ من أراد أن يوصله إليه:

أي: كما إنك لا تصل إلى الحق إلاَّ بفضله وإحسانه، كذلك لا تصل إلى أحد من أوليائه إلاَّ بفضله لا بمعرفتك، ولا فهؤلاء كذلك لأنهم أبواب الحق، ومتى وصلت إلي الباب وصلت إلى منازل الأحباب، فالطريق الموصل إليهم هو الفضل لإسعاده، وعلامة ذلك حسن العقيدة بكل من يجتمع به السالك ويلقاه، وآفات الصوفية من السالكين اتِّباع الهوى؛ لأن السالك إذا سار في طريقه مع رفيقه ربما

انكشفت له الأنوار، وظهرت له الغامات، وانخرقت له العادات، فيقف حينئذ عندها وبهواها، وربما ذاقها المقصد، فينبغي ربها سيدها ومولاها، وهذه من أعظم الآفات للسالكين، ولا يسلم منها إلاَّ من وقف، وحلت عليه العناية بمصاحبة حينئذ العارفين.

وما أحسن ما قاله ابن الفارض ﷺ:

قـــال لي حُســـنُ كُلِّ شيءٍ تجَلّى: بي تَمَلّـــى! فقُلـــتُ: قَصدِي وراكا

وقال في الحكم العطائية: ما أرادتْ همَّةُ سالك أن تقفَ عندما كُشفَ لها إلا ونادتهُ هواتفُ الحقيقة، الذي تطلبُ أمامَكَ، ولا تبرَّجتْ ظواهرُ المكوِّناتِ إلا ونادتـــهُ حقائقُهَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] (١).

(١) قال صاحب إيقاظ الهمم: همة السالك: هي القوة الباعثة له على السير، ووقوفها مع الشيء هو اعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية أو فيه كفاية.

وهواتف الحقيقة: هي لسان حال الكشف عن عين التحقيق، وتبرج الشيء ظهوره في حال الزينة لقصد الإمالة.

وظواهر المكونات: هو ما كساها من الحسن والحكمة، وتزيُّنهَا هو خرقُ عوائدها له، وانقيادها لحكمه، وحقائقها نورها الباطني وهو تجلي المعنى فيها.

قلـــت: السالك هو الذي يشهد الأثر، فإن كان يشهده في نفســـه فهو سالك فقط، وهو في حالـــة السير، وإن كان يشهده بالله فهو سالك مجذوب. والمقامات التي يقطعها ثلاث:فناء في الأفعال وفناء في الصفات وفناء في الذات، أو تقول: فناء في الاسم وفناء في الذات وفناء في الفناء، وهو مقام البقاء ثم الترقي إلى ما لا نهاية له، فإذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال، وذاق حلاوته وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة الفناء، في الصـــفات الذي تطلب أمامك. وإذا ترقى إلى مقام الفناء في الصفات، وكشف له عن سر توحـــيد الصـــفات واستشرف على الفناء في الذات وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام، نادتـــه هواتف حقيقة الفناء في الذات الذي تطلب أمامك، وإذا ترقى إلى الفناء في الذات، وكشـــف له عـــن سر توحيد الذات، وأرادت همته أن تقف مع ذلك المقام نادته هواتف حقيقة فناء الفناء، أو حقيقة البقاء الذي تطلب أمامك، وإذا وصل إلى البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، وقد قال ﷺ:

=

والحاصل أن كل شيءٍ نظر إليه السالك في طريقه، ومال إليه كان من جملة هواه، ومعوقًا عن الوصول إلى حضرة الله، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ

=
«لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كمـــا أثنيتَ على نفسك».

أو تقول: إذا كشف للمريد عن الفناء في الاسم وذاق حلاوة العمل، والذكر وأرادت همته أن تقف معها، نادته هواتف حقائق الفناء في الذات الذي تطلب أمامك، فإذا ترقى إلى مقـــام الفناء في الذات وذاق حلاوته، ولم يتمكن وقنع بذلك، وأرادت همته أن تقف مع ذلك، نادته هواتف حقيقة التمكين الذي تطلب أمامك، وإذا تمكن ولم يطلب زيادة الترقي نادته هواتف الترقي الذي تطلب أمامك، وهكذا كل مقام ينادي على ما قبله: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣]، وإذا «تبرجـــت» أي ظهـــرت بزينتهـــا وحُللهـــا للسالك أو للعارف ظواهر المكونات بخرق عوائدها، وانقيادها له وتصرفه فيها بهمته، كالمشي على الماء والطيران في الهواء ونبع الماء وجلب الطعام وغير ذلك من الكرامات الحسية، وأرادت همة السالك أن تقف مع ظواهرها، وتشتغل بحلاوة حسها، نادته هواتف المعاني الباطنة: إنما نحن فتنة لك نختبرك، هل تقنع بها دون معرفة مالكها ومنشئها المتجلي فيها؟ أو تعرض عنها وتنفذ إلى نور معانيها وشهود مالكها ومجريها؟ لا تكفر وتجحد المتجلي بها، فتنكره فتكون من الجاهلين.

وقد ضرب الساحلي في البغية مثلاً لهذه المقامات والسير فيها، فقال مثل ذلك كَمَلك ظهر بالمشرق مثلاً وأرسل لنا رسلاً بكتاب من عنده، فقرءوا علينا كتاب الملك، وشوَّقونا إليه غاية التشويق بذكر كرمه ومحاسنه، فمن الناس من أعرض عن طاعته، والانقياد إليه وهم الكفار، ومن الناس من قبل وآمن ولم يقدر على النهوض إلى حضرة الملك، وهم عوام المسلمين ضعفاء المحبة واليقين، ومن الناس من تشوق للملك ونهض إلى حضرته، فقالت له الرسل: نحن نسيرك ونعرفك الطريق فتقدموا أمامهم يسيرون بهم، ثم إن الملك بنى ديارًا ومنازل ينـــزلونها كل منـــزل أعظم من الذي قبله، هكذا إلى حضرته، فإذا نـــزلوا أول المنازل ورأوا حسنه وبهجته، أرادوا أن يقيموا فيه، فتقول لهم الرسل الذين جاءوا من عند الملك الذي تطلبون أمامكم، فينهضونهم من ذلك المنـــزل، فإذا نـــزلوا الثاني وجدوه أعظم من الأول، فيريدون أن يقيموا فيه، فترحلهم الرسل إلى ما بعده، وهكذا يقطعون بهم المنازل منـــزلاً منـــزلاً، حتى يوقفونهم على الملك، فيقولون لهم: ها أنتم وربكم، فيستريحون من التعب ويتمتعون بالمجالسة والنظر. والمراد بالرسل هنا الأنبياء الذين بعثهم الله وخلفاؤهم ممن كان على قدمهم، ممن جمع بين الحقيقة والشريعة، وهذه المنازل هي المقامات التي يقطعها المريد انتهى بالمعنى مع الاختصار لطول العهد به.

واعلم أن هذه الآداب التي ذكرها الشيخ في هذا الباب قد تكون خاصة بالعارف، وقد يشاركه فيها غيره، فلذلك يعبر بعبارة واسعة لتكون عامة لأن المريد قد يترقى إلى مقام وقد بقيت عليه بقية مما قبله فيكملها فيه والله تعالى أعلم.

﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

فلا توجه مطايا همتك أيُّها الأخ إلاَّ إليه، ولا تجعل لك مقصدًا ولا مطلبًا إلاَّ الوصول إلى حضرته، والانطراح بين يديه.

٨٩- همم العارفين لا تسمو لغير معروفهم.

فانهض يا أخي بعزم وهمة علية، وإيَّاك والالتفات إلى الأمور الدنيئة، فوقفة كل واحد بحسب همته، وقيمة كل شخصٍ بحسب معرفته.

قال الإمام الغزالي ﷺ: إذا دخل جماعة في بيت شخص ترى كل واحدٍ ينظر فيما هو الغالب على قلبه، وما استولى على فؤاده ولبه، فالبنا يُنظر إلى صناعة بنائه، والنجار يُنظر إلى حسن صناعة أخشابه وأبوابه، والحداد يُنظر إلى حسن صناعة الحديد فيه، والتاجر يُنظر إلى نفاسة متاعه، وحسن بضاعته.

وطالب الجنة من الصالحين، ويتذكر بذلك نعيم الجنان، والعارف لا يسمو قلبه إلاَّ إلى معروفه، ولا يشهد شيئًا من تلك الأشياء التي شهدوها، ويشتهر فيها مولاة: ويستغرقه شهوده عن الالتفات إلى ما سواه.

كما قال صاحب الحكم العطائية: من عَرَفَ الحقَّ شَهِدَهُ في كُلِّ شيءٍ، ومن فَنِيَ به غاب عن كل شيءٍ، ومن أحبَّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئًا[1].

---

(١) قال صاحب إيقاظ الهمم: معرفة الحق هي شهود ربوبيته في مظاهر عبوديته، أو تقول: هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية، أو تقول: هي الترقي من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، فيكون جسمك مع الأشباح وروحك مع الأرواح.

الفناء: هو أن تبدوا لك العظمة، فتنسيك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١]، وليس معه شيء.

أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق، والمحبة أخذ الحق قلب من أحب من عباده، فلا يكون له عن نفسه أخبار، ولا مع غير محبوبه قرار، وقيل غير ذلك، فمن عرف الحق شهده في كل شيء، ولم يرى معه شيئًا، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم الملك إلى شهود فضاء الملكوت، ومن فني به

ومن هنا تفهم سر وصيته ﷺ لذلك الذي استوصاه فقال له: «**لا تغضب** ثم استوصاه فقال له: **لا تغضب ولا ترد**[(١)]»، يعني تحقق بكمال شهود التوحيد، ولا تشهد بقلبك، ولا تسمو همتك إلاَّ إليه، فمن لم يشهد إلاَّ هو، ولم يبقَ في قلبه بقية لسواه كيف يعتريه الغضب، وكيف يحل حول حمى قلبه شيء من التعب، فالنعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه.

فلا تسمو همتك أيُّها الأخ إلاَّ إليه، واستعن على ذلك بالتحبب إلى قلوب أوليائه، فإنهم ألباب الجامع الذي تدخل منه عليه.

٩٠- من حُرم احترام الأولياء، ابتلاه الله بالمقت بين خلقه.

=

وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء، ولم يثبت مع الله شيئًا.

والفرق بين الفاني والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله، والفاني لا يثبت شيئًا سوى الله، العارف يقرر القدرة والحكمة، والفاني لا يرى إلا القدرة.

العارف يرى الحـــق في الخلق، كقول بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه، والفاني لا يرى إلا الحق، يقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، العارف في مقام البقاء، والفاني مجذوب في مقام الفناء، الفاني سائر، والعارف متمكن واصل، ومن أحب الله لم يؤثر عليه شيئًا من حظوظه، وهوى نفسه، ولو كان فيه حتف أنفه، والكلام في المحبة طويل، ذكر الشيخ في «لطائف المنن» منه جملة صالحة، وكلام الشيخ ﷺ من باب التدلي، فالمعرفة أعلى المقامات وقبلها الفناء، وقيل للفناء المحبة: أي أولها، فأول ما يقذف الله في قلب عبده الذي يريد أن يصطفيه لحضرته ويعرفه به محبته، فلا يزال يلهج بذكره، ويتعب جوارحه في خدمته، ويتعطش إلى معرفته، فلم يزل يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه الحق، فإذا أحبه أفناه عن نفسه وغيبه عن حسه فكان سمعه، وبصره ويده وجملته، ثم رده إليه وإبقاه به، فعرفه في كل شيء، ورآه قائمًا بكل شيء، ظاهرًا في كل شيء، والله تعالى أعلم.

ولهذا الذي ذكره الشيخ علامات تدل على تحقيق تلك المقامات، فمن وجدها في نفسه كانت دعواه لتلك المقامات أو بعضها صحيحة، ومن لم يجدها في نفسه كانت دعواه لها كاذبة وفضيحة، فليعرف قدره، ولا يتعد طوره، وبالله التوفيق. انظر: شرح الحكمة (١٩٩).

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٦٧)، ومسلم (٤/١٩٠٣).

عليك أيُّها الأخ باحترام الأولياء، والتأدُّب معهم، وكن لهم أرضًا حتى تنبت فيك أذاخر فيوضهم، ويظهر في تلك الأذاخر لقاحها، ويخضر في شعاب أرضك أعشاها، وينمو خزامها، ويورق بشامها.

وإيَّاك أن تحرم من هذا الاحترام فتبتلي من الله بالمقت، وتبعد عن منازل الكرام، وانظر إلى قوله ﷺ: «**من عاد لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**(١)»: أي أعلمته وأخبرته أني محارب له(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وابن حبان في الصحيح (٢/٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢/١٤٥).

(٢) بيانٌ في ضرر معاداتهم والوقيعة فيهم والإنكار عليهم، وعلاج ذلك: قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال مجاهد: يقعون فيهم، ويرمونهم بغير جُرم، ﴿**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً**﴾.

ورُوي عن نبيِّنا ﷺ أنه قال: «**المؤمنُ أفضلُ من الكعبةِ، والمؤمن طيِّبٌ طاهرٌ، والمؤمنُ أكرمُ على الله تعالى من الملائكة**».

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب: أي أعلمته أنّي محاربٌ له، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني لأعطينَّه، وإن استعاذني (روي بالنون والباء) لأُعيذنَّه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بدَّ منه» رواه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوتٍ رفيعٍ فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم: أي لا تعيِّبوهم يعني: لا تنسبوهم إلى عيبٍ، ولا تَصفوهم بعيبٍ، ولا تتبعوا عوراهم؛ فإنه من تتبَّع عورةَ أخيه المسلم تتبَّع الله عورتَه، ومن تتبَّع الله عورتَه يفضحه ولو في جوف بيته» رواه الترمذي.

وقال ﷺ: «لما عَرَجَ بي ربِّي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نحاسٍ يُخمِّشون وجوههم وصدورهم. فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون في أعراضهم» رواه أبو داود.

ومن ... ذي يا أخي يقدر على محاربة ملك الملوك محاربًا لمن عاداه، وما يمنعك من ا... ع والانكسار لمن هو داخل في حمى مولاه، ومتحصن بحصن (لا إله إلاَّ الله). و... كنـــزًا من كنوز الجنان لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

والحاد... أن أولياء الله قد خرجوا عن حولهم وقوتهم إلى حوله وقوته، ومن أفعالهم وأو... هم ووجودهم إلى أفعاله وأوصافه ووجوده، فإن أساء أحد معهم الأدب وأذاه ... لم يحترمهم كأنه فعل ذلك مع مولاه، وأساء أدبه مع الذي خوله النعم وأعطاه ... ذلك استوجب المقت العظيم من الله، واستوجب الطرد والبعد عن حول حماه.

فإذا أر... القرب أيُّها الأخ، والوصول إلى منازل الأحباب فعليك بالوفاء، وحسن ملاز... لأدب.

٩١- ... أراد الصفاء فليلتزم الوفاء.

أي من ... د صفاء القلوب، والخروج عن كدورة الأكوان، والتشرف بلقاء المحبوب فليلتز... وفاء بالخير معه؛ لعله يتشرف من هذه الفضائل بسمة.

قال الله ... الى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُو...**﴾ [آل عمران:٢٠٠] فجعل سبحانه وتعالى الفلاح متفرعًا على المصابرة والمرا...؛ إذ المصابرة والمرابطة تقوى الله تعالى التي هي حقيقة الوفاء بالخدمة، ولب ... يفعله السالك من معاملة مولاه.

التقوى ... بعض العارفين: أن تزين سرك للحق كما تزين ظاهرك للخلق، فمن زين سره ... لاه، وأخرج منه دنس الشرك فقد صفاه، ومن فعل ذلك فقد وفى،

=

وفي الحديث الوار... لأنس ﷺ قال ﷺ: «إنَّ الله شرَّف الكعبة وعظَّمها، ولو أنَّ عبدًا هدمها حجرًا حجـ... ثم أحرقها ما بلغ جُرم مَنْ استخفَّ بوليٍّ من أولياء الله تعالى. قال الأعرابي: ومَنْ أولياء ... تعالى؟ قال: المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى.
أمَا سمعت قوله ﷻ: ﴿اللَّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وتم له ارتشاف كؤوس حمياه، فإن نظر إلى مقام القرب استفزه السرور وأحياه، وإذا نظر إلى المحبة عذبته اللوائح فاستعذب العذاب، وتلذذ بحلواه.

٩٢- المقرب مسرور في قربه، والمحب معذب في حبِّه.

أشار ﷺ إلى أن المشاهدة مختلفة، فمنهم من يغلب عليه مشاهدة قربه من مولاه الذي هو عين عبوديته تجلي عليه الحق، وتحقق بفقره وضعفه وعجزه وذلته، فيغلب عليه السرور لما يشاهده من عظيم اللطف والحبور فإن من عرف نفسه، وتحقق بأوصاف عبوديته تجلى عليه الحق، وأمده بأوصاف ربوبيته فيبر العبد بذلك، ويكاد يطير من الفرح، وفي بداية هذا المقام تكلم من تكلم بالمشكلات، وشطح فإذا تمكن، ورجع إلى النهاية أعطى كل ذي حق حقه، وبين وأرشد وأزال الغواية، ومنهم من يغلب عليه شهود المحبة حتى يأخذه ذلك الشهود، ويفقد لبه، فيستولى عليه -حينئذٍ بنيران الاشتياق، وتضطرب بقلبه لواعج الاحتراق فلا يزال معذبًا في حبه:

مَـــنْ لَمْ يَذقْ ظُلم الحَبيبِ كَظُلمِهِ   عذبًـــا فَقَـــدْ جَهِـــلَ المحَبَّة واعتَدَا

فإذا أردت أيُّها الأخ أن يكون لك ذوق من أحد الشهود فعليك بالجد والاجتهاد لعلَّك تظفر بقرة العين.

٩٣- أسس هذا البنيان[١] على الجدَّ والاجتهاد وقطع المألوفات والاعتياد.

إذ الطريق عبودية، والعبد لا يرفعه عند مولاه إلاَّ خدمته، ولا يوصله إلى مراتب عُلاه إلاَّ انخفاضه، وذاب فما لم ينخفض البنيان بالأساس لم يرتفع له في جانب العلو رأس، وما لم تنـــزل الشجرة الكبيرة بعروقها في الأرض، وتبالغ في ذلك ما تدر لها تمام الارتفاع، ولا بلغت ما هنالك.

فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْده**﴾ [الإسراء:١]، فأشار في كلامه إلى أن مقام الإسراء العالي لا يُنال إلاَّ بتمام الانخفاض، والتحلّق

(١) في نسخة: (الشأن).والمقصود التصوف.

بمقام العبودية، ولا يتم آداب هذا المقام إلاَّ بقطع المألوفات والعادات؛ إذ من كان مع مألوفاته وعادته مائلاً إليها كان عبدًا لها، والمقصود أن يكون عبدًا لمولاه.

ما أحببت شيئًا إلاَّ وكنت له عبدًا ومولاً يحب أن تكون لغيره عبدًا.

قال ﷺ: «**تعس عبد الدرهم والدينار وتعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**(١)» شعر:

أنْـتَ القَتـيل بكـلٍ مَنْ أَحْببته ... فَاخْـتر لنفْسـك في الهـوى من

فاخترْ لنفسك يا أخي خدمة مولاك، وإن عارضتك المحن والعوائق، واشهد المر منها حلوًا، وتلذَّذ به كما يتلذَّذ بحلوة العسل كل ذائقٍ.

٩٤- استلذاذك بالبلاء تحقق بالرضا.

استلذاذًا لبلاء أن يكون بكمال شهود المحبوب فيه، ومن شهد المحبوب عمَّه الرضا، وغابت عنه الكروب.

وكان أحد الفقراء المتجردين جالسًا عند ذي النون ﷺ ثلاثة أيام وهو لا يأكل شيئًا، ولا يسأل من أحد ذلك، فدخل بعض الناس وهو يشتكي مما يجد من الحاجة، فقال له ذلك الفقير: لو كنت صادقًا لحصل لك ما تريد، فقال: قُم فاسأل لي.

فقام ذلك الفقير وتوضأ، وصلَّى ركعتين، وسأل الله لذلك الشخص، فإذا هو طعام وثوب جديد، فأخذهما وأعطاهما لذلك الشخص، فقال ذو النون: لك عند الله هذا الجاه، ولك ثلاثة أيام لا تأكل شيئًا فلِمَ لَمْ تسأله؟.

فقال له: قد عمَّر قلبي بالرضا، حتى لم يبقَ للسؤال محل، ومن ذلك أيضًا ما وقع للنسوة اللاتي قطعن أيديهن لما شاهدن جمال يوسف عليه السلام، ولم يشعرن بذلك؛ لاشتغالهن بمشاهدة ذلك الجمال.

---

(١) رواه البخاري (١٠٥٧/٣)، وابن ماجه (١٣٨٦/٢).

فكيف يشعر بالبلاء؟! وكيف لا يستلذ من كان مشغولاً بمشاهدة ذي الجلال والإكرام، أشاهد معنى حسنكم فيلذ لي خضوعي؛ لأنكم في الهوى وتذللي.

فإن أردت أيُّها الأخ أن تكون من أهل الشهود لهذه المحاسن فتحقق بالفقر، واجتهد في عمارة الظاهر والباطن.

٩٥- الفقر أمان[1] على التوحيد، ودلالة على التفريد، الفقر ألا تشهد عين سواه.

حقيقة الفقر التجرُّد عن الأكوان، وعدم النظر والسكون إليها، فلا يرجع صاحبه، ولا يعتمد إلاَّ على الله، وليس مال ولا كنز إلاَّ التمسُّك بواثق عراه، ومثل هذا الفقر دليل على التوحيد، وأن صاحبه لم يشهد في الوجود فاعلاً إلاَّ الله.

فلذلك لم يسكن إلاَّ لله، ولم يتذلل ولم ينطرح إلاَّ بين يديه، وفيه أيضًا دلالة دالة على التفريد: أي أفرد قلبه لمولاه، ولم يجعله محلاً لسواه.

ولذلك قال في تتم هذا المقام: (لا تشهد عين سواه)، كيف تقصد وتحوم حول حماه، ومثل هذا الفقر هو الذي يفتخر به، وهو عين الغنى، ومن حاز ذرة منه فقد ارتشف كئوس الهناء، ونال فوق ما تمنى.

فإن أردت أيُّها الأخ شمة من هذا المقام فعليك بالعبادة والزُّهد، وترك الشبهة والحرام.

٩٦- العبادة تنجيك من طغيان العلم والزهدة، والزاهد في راحة، والزهد أعم من الورع؛ لأن الورع أبقى، والزهد قطع للكل، الزهد فريضة وفضيلة وقربة، فالفرض في الحرام، والفضل في المتشابهة، والقربة في الحلال.

العلم له طغيان، وهو العجب به ورؤية النفس. واستشعارها التمييز به على غيرها، والعبادة تنجي من هذا الطغيان بالخاصة؛ لأن حقيقتها الخدمة لملك الملوك، والتذلل والانكسار والاتصاف بصفة العبودية بين يديه سبحانه وتعالى من فعل ذلك

---

(١) في نسخة: (إشارة في).

أشرقت عليه أنوار الربوبية، ومحت عنه رذائل الصفات البشرية من العجب، ورؤية النفس، وغير ذلك.

والزاهد في راحة؛ إذ حقيقة الزهد ترك فضول الحلال، ومن ترك الفضل الزائد استراح قلبه من كل شغلٍ، وصار قلبه صافيًا مصفى لمولاه، لا يشتغل في ليله ونهاره بأحدٍ سواه.

قوله: (الزهد أعم من الورع) حقيقة الورع ترك الشبهات، ويجتمع مع وجود الحلال الفاضل على قدر الحاجة، فمعنى كون الزهد أعم كونه أشمل وأكثر فائدة ونتيجة من الورع؛ لأن الورع ترك الشبهات فقط، والزُّهد ترك الشبهات والفضل أيضًا، فشمل ما في الورع وزاد؛ ولهذا قال بعد ذلك: (لأن الورع أبقى): أي فيه إبقاء للفضل.

ثم بيَّن أن مراتب الزهد ثلاثة: أولها: الزُّهد الذي هو فضيلة، وهو الزُّهد في المتشابه، وأعلاها الزهد الذي هو قربة، وهو الزهد في الحلال: أي ترك الفضول كما تقدَّم، وإذا أطلق الزهد فالمراد هذا المعنى الذي هو أعلى المراتب.

فإذا علمت ذلك أيُّها السالك فاجتهد في تحصيل العلم؛ لتعامل به الحق لا لتشهد به، وتعلم من قصدك من الخلق.

٩٧- من سمع العلم ليعلم به الناس أعطاه الله فهمًا يُعرِّف به الناس، ومن تعلم العلم ليعامل به الحق أعطاه الله فهمًا يعرف به الحق.

الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تُدان، فإن تعلمت العلم أيُّها الأخ وكان قصدك بذلك تعليم الناس، وكانت همتك مقصورة على ذلك، ولم تحكم إلاَّ بما عاملك الله من جنس عملك، فأعطاك فهمًا تعرف به الناس؛ لكون ذلك بمنتهى أملك، وإن تعلمت العلم لتعامل به الحق تعالى وتقدس وانتهضت همتك، ورمت الوصول إلى ذلك الوادي المقدس، شعر:

تركْــت هُـــو ســـعديَ وليـــلى وَعــدْت إلى مَضْحُودِ أوْل منــزل

وقَالــت لَكنَ الأشواق مهلاً فهذه مَنَازل مَنْ تــهْوِى رويدك فأنــزل

فحينئذٍ تُعامل الحق بالطاعة، وأنه يعطيك بفضله فهمًا تصل به إلى حضرته، وتعرف به عظيم أوصافه.

فعليك أيُّها الأخ بالهمَّة العلية، وإيَّاك والانحطاط إلى مقاصد الدنيا، فما بينك وبين المراتب العالية إلاَّ تصحيح النية، واظفر بها فإنها الباقية، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**(١)»، فقيمة كل شخصٍ على قدر نيته وهمته ومنــزلته، كل أحدٍ على قدر معروفه ومعرفته.

فانهض أيُّها الأخ إلى طلب العلم بهمة، ونية شرعية، وراعِ أوقات من تقصده من أهله، واحذرْ أن تشغله عن وردٍ أو تعوقه عن وظيفةٍ.

٩٨- من قطع موصولاً بربِّه قطع به، ومن أشغل مشغولاً بقربه أدركه المقت في الوقت. يا نفس هذه موعظة لك إن اتعظت.

شرع يبين لك أيُّها الأخ السالك آداب الصحبة، وما ينبغي لك أن تراعيه مع من ترافقه، وتريد أن تصحبه، وأعظم ذلك مراعاة وقته وحضوره، ومعرفة حال اشتغاله بذكر ربه وفتوره، فلا تشغله بكلامٍ في حال اتصاله بمولاه، ولا تقطعه عن ذلك فيكون سبب لقطعك، وبعدك عن ساحة علاه؛ فإن من أشغل مشغولاً بقربه أدركه المقت في الوقت، وبأينونة قوله:

٩٩- يا نفس هذه موعظة لك إن اتعظت.

فيه تنبيه عظيم للنفس، وزجر قوي عن وسوستها، واشتغالها للقلب بما لا يعني.

والحاصل أنه يخاطب النفس، ويقول لها: هل علمت أن من أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت في الوقت. فاحذري أن تشغليني عن ذكر الله بوساوسك، فتستحقين للمقت من ربك في الوقت، فهذه موعظة لك عظيمة إن فهمت، ولا يخفى ما في هذا من عظيم الفائدة؛ لزجر النفس عن حديثها ووساوسها، فيجد السالك بسماعه نفعًا عظيمًا، ويحصل

---

(١) رواه البخاري (٣/١)، ومسلم (١٥١٥/٣).

لنفسه ارتداع تام، وزجر قوي، فلله دره من عارف بأساليب الكلام، وما أحسنه من طبيب عارف لأنواع العلل، يعطي كلاً منها دواء يقتضي الشفاء التام.

فعليك أيُّها السالك العليل بسماع كلامه، وتأدَّب بآدابه، وارفع قلبك إلى مولاك، ولا تسكن إلى غيره تشف قلبك من سقامه.

١٠٠- من سكن إلى غير الله بسره نــزع الله الرحمة من قلوبهم عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم.

وتأمَّل يا أخي هذه الحكمة تجدها واسطة عقد هذا الكتاب، ثم تأمَّلها تجدها اللُّب عند ذوي اللُّب من أولي الألباب.

وحاصلها أنه من سكن إلى غير الله تعالى بسرِّه، ومال إليه، ورجع في مهماته إلى غير ذلك الغير، وعول إليه، كأن نراه الحرمان من ذلك الغير، ونــزع الرحمة من قلبه، وألبسه لباس الطمع فيه، ولا يزيده ذلك إلاَّ قسوة لديه.

واعلم أن أول الأغيار نفسك واختياراتك وتدبيراتك، فمتى رجعت في مهماتك إلى شيءٍ منها وقعت في المحرمات، وأُلبست لباس الطمع فيها، ولم تزدك إلاَّ الخذلان، فإن الله تعالى ينظر إلى قلب العبد فإن رآه راجعًا إلى مخلوقٍ شغله كله إليه، ومن رآه راجعًا إلى مخلوقٍ شغله كله إليه، ومن رآه راجعًا إليه كان حافظًا له ومعينًا، ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه: أي كافيه وناصره لا يفوته شيءٌ.

ولذلك قال ﷺ: «**لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم كنــزٌ من كُنوز الجنة**»(١)، فمتى خرج عن حوله وقوته، ولم يرجع إلى نفسه، ولا إلى اختياراته، ولا تدبيراته كان داخلاً في حول الله وقوته واختياره وتدبيره، وهو الكنــز المُشار إليه في الحديث، وهذه الجنة هي جنة العارفين المعجَّلة لهم في هذه الدار، لهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

وما أحسن ما قاله بعض العارفين فيما يجده من الهواتف الغيبية على قلبه على سبيل

(١) رواه البخاري (١٥٤١/٤)، ومسلم (٢٠٢٦/٤).

الخطاب من ربه:

أيُّها العبد كنت بتدبيري لك من قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بألاَّ تكون لها، وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها، أيُّها العبد أما يكفيك أني أكفيك، أما يوجب سكوتك سوابق عوائدي فيك، أيُّها العبد تخيرني، ولا تتخيَّر علي، ووجه قلبك بالصدق إلَيَّ، فإنك إن تفعل أريك غرائب لطفي، وبدائع جودي، وأُمتع سرك بشهودي.

فعليك أيُّها الأخ برجُوعك في جميع مهماتك إليه، واخرج عن حولك وقوتك، وتذلل وانطرح بين يديه.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: الرِّضا بالقضاء، والصَّبر عند نـــزول البلاء، والتوكُّل على الله في الشَّدائد، والرُّجوع إليه في النَّوائب، فإذا عرفت ذلك أيُّها الأخ، وأعرضت عن الأكْوان صرت مخلصًا، وانقطعت عن الخلْق، ودخلت مقام الإحسان.

٩٦- علامة الإخلاص أن يفني عنك الخلق في مشاهدة الحق.

إذ حقيقة الإخلاص الخلُوص من شهود الأكْوان، والدُّخول في مقام الإحسان؛ حتى لو شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج في إخلاصه إلى إخلاصٍ؛ إذ الإخلاص أيضًا كون من الأكْوان.

فالنظر إليه وشهوده بقاء مع الأكوان، فكذلك كان الإخلاص عزيز المنال، لا ينال ثمة معه إلاَّ أكمل من الرجال، حتى قال الحسن البصري ﷺ: لو وضعت لي ركعتان بالإخلاص لكفتاني.

وقال ﷺ: «**من قال: لا إله إلاَّ الله مخلصًا بها من قلبه دخل الجنة، فقيل: ما إخلاصها يا رسول الله؟ فقال: أن تحجزك عن المحارم**»[1].

فدلَّ كلامه ﷺ إذ النفع التام إنما هو في الإخلاص، ومن تحقَّق به خرج عن الأكوان، ومن لازمه عدم المخالفة والعصيان؛ إذ حقيقة المعصية بقاء مع الأكوان من

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/١٤١).

النفس والهوى والشيطان، ومن خرج عن هذه الأشياء كلها كيف يخالف ما أمره به الرحمن.

ولذلك قال الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ: وعليك بالإخلاص، وهو نسيان رؤية الخلق، ودوام رؤية الخالق، ولا تتهم الله في الأمور، واسكن إليه في كل حالٍ.

وقال في الحكم العطائية: **الأعمالُ صورٌ قائمةٌ وأرواحها وجود سرِّ الإخلاصِ فيهَا**(١).

---

(١) قال سيدي ابن عجيبة: الأعمال هنا عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية. والصور جمع صورة وهو ما يتشخص في الذهن من الكيفيات.
والروُح السرُّ المودع في الحيوانات وهو هنا عبارة عما يقع به الكمال المعتبر في الأعمال.
والإخلاص إفراد القلب لعبادة الرب، وسره لُبُّهُ وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة، إذ لا يتم إلا به، وإن صح دونه إذ الإخلاص نفي الرياء والشرك الخفي.
وسره: نفي العجب، وملاحظة النفس والرياء قدح في صحة العمل والعجب قدح في كماله فقط.
قلت: الأعمال كلها أشباح وأجساد وأرواحها وجود الإخلاص فيها فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة كذلك لا قيام للأعمال البدنية أو القلبية.إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لا عبرة بها: قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر:٢]، وقال ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «**يقولُ أنا أغني الشركاءَ عنِ الشركِ، من أشركَ معيَ غيري تركتُهُ وشريكَه**».
وقال ﷺ: «**أخوَفُ ما أخافُ على أُمَّتي الشركُ الخفيُّ وهوَ الرِّيَاءُ**».
وفي رواية: «**اتقوا هذا الشركَ الخفيَّ، فإنَّه يَدُبُّ دبيبَ النملِ، قيل: وما الشرك الخفي؟ قال: الرياءُ**»، انتهى بالمعنى لطول العهد به، وفي حديث مسلسل إلى النبي ﷺ أنه سئل عن الإخلاص فقال: «**حتَّى أسألَ جبريلَ، فلما سألَهُ قالَ: حتَّى أسألَ ربَّ العزة، فلما سأله قال له: هو سرٌّ من أسراري أُودِعُهُ قلبَ من أحببتُ من عبادي، لا يطَّلع عليه مَلَكٌ فيكتبُهُ ولا شيطانٌ فيُفسدُهُ**».
قال بعضهم: هو مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.
والإخلاص على ثلاث درجات:
درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص.
=

فعمل بلا إخلاص شيخ بلا روح.

ولذلك قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، فمن لا نية له صحيحة لا إخلاص له ولا عمل، وأصل ذلك كله قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة:٥].

والحاصل أن روح الأعمال ولبّها ومركز دائرتها وقطبها الإخلاص، فعليك به أيُّها

=

فإخلاص العوام:

هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور.

وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية.

وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية أو محبة وشوقاً إلى رؤيته.

قال الشيخ أبو طالب ﷺ:

الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق النفس، **والإخلاص عند المحبين:** أن لا يعملوا عملاً لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس.

والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال.

وقال بعض المشايخ: صحح عملك بالإخلاص وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة انتهى كلامه.

وقال بعض العارفين: لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ويسقط الناس من عينه، ولذلك.

قال آخر: كلما سقطت من عين الخلق عظمت في عين الحق، وكلما عَظُمَتْ في عين الخلق سقطت من عين الحق يعني مع ملاحظتهم ومراقبتهم.

وسمعت شيخنا يقول: ما دام العبد يراقب الناس ويهابهم لا يتحقق إخلاصه أبدًا **وقال أيضاً:** لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبدًا إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه انتهى.

والحاصل: لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبداً والله تعالى أعلم. وانظر: إيقاظ الهمم (الحكمة رقم ١٠).

الأخ في سائر أعمالك، وافنِ عن أقوالك وحولك وقوتك، تشم منه أزكى رائحة، وتمحق فائدتك، ويبقى رأس مالك.

١٠١- **بقاء الأبد في فنائك عنك.**

لما بين لك أيُّها السالك أن الإخلاص فناؤك عن الخلق في مشاهدة الحق شرع يتمم لك معنى ذلك، ويرشدك إلى بعض فوائد ما هنالك، فقال: فناؤك عنك الذي هو غاية الإخلاص ومنتهاه؛ لأنك من الأكوان، ولا يتم إخلاصك إلاَّ إذا خرجت عنك، فتحوز بذلك بقاء الأبد، وتتصل بجوار الفرد الصمد؛ إذ خروجك عنك عين وصولك إليه؛ لأنك متى خرجت عن الخلق وصلت إلى الحق؛ إذ لا واسطة بينهما، فلذلك قيل: الطريق فصل ووصل، فمتى انفصلت وصلت، فلذلك كان حقيقة الإخلاص والتحقق أعز من الكبريت الأحمر، ومن يتحقق به تحقق بالسعد الأكبر، وغايته ومنتهاه، فنائك عنك: أي خروجك عن أفعالك وأقوالك ووجودك، إلى أفعال الله وأقواله ووجوده، وهذه هي جنة العارفين التي من دخلها كان له نعيم الأمد والنعيم السرمد.

فاجتهد أيُّها الأخ في تصحيح هذا المقام، واجعل كلك له لعلّك تظفر بكأسٍ من كؤوس هذا المدام.

١٠٢- **ثمن التصوُّف تسليم كلك.**

القصد فيه كما قال بعض العارفين: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلّق بعلوم الحقيقة، واتّباع الرسول ﷺ في الشريعة.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: التصوُّف تدريب النفس في العبودية، وردها إلى أحكام الربوبية، فإذا ما نظرت وجدت هذا التعريف عين الأول، وإنما الاختلاف في الإجمال والتفصيل، ولا يحصل التصوُّف على كلا المعنيين إلاَّ ببذل الثمن، وهو تسليم كلك، وخروجك عن حولك وقوتك وفعلك، فتكون مع مولاك كالميت بين يدي المغسل، لا ترى لك فعلاً ولا إرادةً ولا اختيارًا، فحينئذٍ تنغسل عنك أوساخ الشرك، وصفات الرذائل، ومع ذلك لا تزال واقفًا في مقام عزتك، باذلاً للخدمة من قدمك إلى

عل صلاتك ونسكك ومحياك ومماتك لله رب العالمين، لا شريك له، مقتديًا بآثار سيد المرسلين، فتكون حينئذٍ أديت ثمن التصوُّف، وحزت المثمن، وتملك من محاسنه كل معنى حسن.

وعلامة تحققك بذلك أيُّها السالك لكونك تميل إلى الإنفاق أكثر من ميلك إلى أخذ مالك.

١٠٣- من كان الأخذ أحب إليه من الإخراج فليس بفقير.

إذ حقيقة الفقر كما تقدَّم هو التجرُّد عن السوى، فمن كان الأخذ أحب إليه من الإخراج لم يفارق الهوى، فأنَّى له والتحقق بالفقر إلاَّ من أخرج عن قلبه الكونين، ودخل في صلاته الحقيقية، وخلع كما قال بعضهم:

وَاخْلَعِ النَّعْلَين إنْ جِئْتَ إلَى ... ذَلِكَ الْوَادِي فَفِيهِ قُدسنَا
وَعَنْ الكَوْنَين كُنْ مُنْخَلعًا ... وَأَزِلْ مَا يَنْفَك مِن بَيْنَنَا

فإذا أردت أيُّها الأخ النزول في هذا المقام فاحرق الطمع بنار الخوف تلح لك أعلام تلك الخيام.

١٠٤- الخوف إذا سكن القلب أورثه المراقبة.

لأن الإنسان إذا خاف من أمرٍ توجَّه إليه وراقبه، وحاسب نفسه، وأكثر عليها في ذلك اللوم والمعاتبة، وهكذا السالك إذا سكن قلبه خوف مولاه، وعلم أنه ناظرٌ إلى أفعاله القبيحة في صباحه ومساه، كان له بسبب ذلك أتم المراقبة، وجاهد نفسه في منعها عن ذلك، وعاتبها أشد المعاتبة، يقطع عنها لذيذ المنام، ويذيقها الجوع، ويحرمها التلذذ بالطعام، ويبعدها عن المعارف والإخوان، ويتغرب بها عن المعاهد والأوطان، وهو في ذلك مراقب أحوالها، وينظرها هل هي نزلت بتزكيتها، أم هي متلطخة بقبيح أفعالها؟ حتى إذا تزكت وطهرت وصار خمرها خلاًّ صير حينئذٍ دائها دوائها، حيث خالفته هواها مع أبشاعها، ما قيل هيهات لا يكون.

والحكاية المشهورة عن الجنيد ﷺ تشرح هذا المقال، قال:

كنت ليلة في قلق فأردت أن أصلي فلم أقدر، وأردت أن أجلس فلم أقدر، فخرجت من المنـــزل بغير اختياري، فرأيت في بعض السكك شيخًا ملفوفًا في عباءة، فقال: إلى الآن يا أبا القاسم، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى، سألت محرك القلوب أن يتحرك قلبك إلَيَّ، فقلت: ما تريد يا سيدي؟ فقال: متى يكون داء النفس دوائها؟ فقلت: إذا خالفت هواها، فأقبل على نفسه فقال لها: قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات، فلم ترضي حتى سمعتيه من الجنيد[1].

وأشار ﷺ بذلك إلى أن النفس إذا خالفت الهوى تزكّت بذلك فتزكّت؛ إذ حقيقة تزكيتها مخالفتها، والحيوان إذا تزكّى فيصير ما كان لها أولاً داء من المآكل الهنية، والمشارب الهنية، دواء كالمريض يحمي أولاً عن الأطعمة القوية؛ لئلا تهلكه، فإذا أصح أعطيها، وصارت له دواء بعد أن كانت داء، ولهذا كان ﷺ يأكل اللحم والحلوى، ويحب ذلك.

وكان الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ في نهايته يأكل الدجاج، ويطعم المريدين من أهل البداية خبز الشعير، حتى يصل إلى النهاية، فحينئذ يأكل مأكل الأصاغر من الرجال، ويشرب مشاربهم، وكل ذلك لا يحصل ولا يكمل إلاَّ بتمام المراقبة، ولا يحصل ذلك إلاَّ بالخوف؛ ليحض ذلك على تمام المناقشة للنفس والمحاسبة.

فإن أردت أيُّها الأخ الوصول إلى هذه المراتب ضيِّق على نفسك ملازمة الأعمال؛ كي تقدمها الأحوال، وتظهر فيها العجائب.

١٠٥- المهمل من الأعمال والأحوال لا يصلح لبساط الحق.

إذ بساط الحق لا يصلح إلاَّ لمن طهَّر ظاهره من المخالفات، وعمَّر باطنه بالمشاهدات، فصار ظاهره متلبسًا بالعبودية، وباطنه مشرقًا بأنوار الربوبية، قد أعطى

---

(١) انظر: الرسالة (١/٣٥٠)، والحلية (١٠/٢٧٤)، والزهد الكبير للبيهقي (٢/١٥٢)، والاعتقاد وذم الخلاف لأبي العلاء الحسن بن العطار (ص٦٥)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٢٦٢)، وروضة المحبين (ص٤٠٤)، وروضة الحبور لابن الأطعاني (ص١١٥)، بتحقيقنا، وكتابنا الإمام الجنيد (ص١٨٨).

المعية حقها، ولزم لمولاه حسن الأدب، وعلم أنه عبده في كل حالٍ، وهو ربٌّ كما قال بعض العارفين، أعطى الإلهية حقها، وألزم له حسن الأدب.

واعلم أنك عبده في كل حالٍ، وهو ربٌّ قد اتصف بجميع ما في الأحياء والعوارف من المعاملات، وزاد على ذلك بمذاق أهل المشاهدات، ظاهره معمور بالشريعة، وباطنه معمور بأدب الطريقة، وسره تشرق منه أنوار الحقيقة، فينفق من خزائن لا إله إلاَّ الله، ويدخل في فاخرات محمد رسول الله، فمثل هذا يصلح للصلاة الحقيقية على بساط الحق، ويقتدي به العموم والخصوص من الخلق، ويكون مالكًا للأحوال، يتصرَّف فيها كيفما أراد، ويذيقها من أراد من أهل البدايات؛ ليكون لهم أسرع مطية، وأتم ناد.

١٠٦- الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم، ومملوكة لأهل النهايات فهم يصرفونها.

الأحوال هي الواردات الغيبية التي ترد على القلب، وتتصرف تصرف الخمرة في شاربها، وتضطرب الجوارح عند ذلك، وتتغيَّر الكلمات، ويبوح صاحبها بما هنالك، وهذا كله لأهل البدايات؛ لأن الأحوال مالكة لهم، ومتصرفة فيهم؛ لضعف حالهم، وعدم تمكنهم في مغانمهم، كالمبتدئ في شرب الخمر المجازي، فإنه لو شرب منه قدحًا أثَّر فيه، وظهرت آثاره في سائر أعضائه ونواحيه، بخلاف المتمكن من الشرب، المدمن له، لو شرب أقداحًا متعددة لا يظهر فيه أشد ذلك، ولا يبدي ثمة مما خفي هنالك، فذلك المتمكن من أهل النهايات، لو شرب أقداحًا متعددة من الخمرة الحقيقية، وتواردت عليه أمثال الجبال من الواردات الغيبية، لا يؤثر فيه ذلك شيء، ولا يظهر عليه ذرة من تلك الأحوال التي تظهر على أهل البدايات، كالبحر الذي كلَّما وصل إليه شيء من الماء يُعاد حاله إلى طبعه، فلذلك قيل: إن معرفة الأحوال سهلة؛ لظهور الآثار عليهم، وأما معرفة التمكن لا تتيسر لكل أحدٍ، ولا يعرفها إلاَّ المتمكن الراسخ في المعرفة.

ولهذا كان الجنيد ﷺ يتأثر من واردات السماع في البداية، ولا يتأثَّر منها في

النهاية، قيل له ذلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨][١]، فدلَّ كلامه على أن واردات المتمكن مخفية، وهي تحت كامنة مطوية، لا يعرفها إلاَّ من كانت له معرفة قوية، وسريرة المعية، ولهذا لما خرج يوسف عليه السلام على النسوة أثَّر فيهن الحال قطعن أيديهن، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]؛ لكونهن كُنَّ في البداية من محبَّته، وزليخا لما كانت متمكنة لم يتغير منها في ذلك الوقت ذرة، وإن كانت محبَّته قد ملأتها، ولم يبقَ منها شعرة.

فإن أردت أيُّها الأخ أن يكون لك نصيب من مقام أهل النهايات فاجتهد في محو ثأرك ورسومك، تبلغ من هذه المواهب الغايات.

١٠٧- كل حقيقةٍ لا تمحو أثر العبد ورسومه فليست بحقيقةٍ ثبات.

إذ الحقيقة إذا أشرقت بشمس ضحاها، وارتفعت وظهرت في سماها، إذ هبت نجم الفرق ضمن الآثار والرسوم، ومحقت كل العلوم، كما قال بعضهم:

وانسَ العلومَ ما كنتَ تكتبُه   فمحوُه واجبٌ من كل مكتتبِ

فإن لم تكن كذلك فليست بحقيقةٍ، ومن لم يشهد من نفسه هذه العلامات فلم يسلك على الحقيقة الطريقة، فإن من شرب الشراب ظهرت آثاره فيه، ومن أدهقت له الكئوس ظهرت محاسنه، وخفيت مساوئه.

فإن أردت أيُّها الأخ الصافِّي من رحيق الشراب، فعليك بمتابعته ﷺ، والتأدُّب بتلك الآداب ثبات الأقدام بسلوك الاتِّباع، والإتمام بالرسل الكرام؛ إذ هو الموصل إلى مقام المحبة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فمن حصلت له محبَّة الله كيف لا يثبت في الطاعة قدمه؟! وكيف لا يظهر لواحد وينتشر في اجتهاد التقوى علم شكره؟! وهو مقام الاستقامة، وهي

---

(١) انظر: الإحياء (٣٠٣/٢)، واللمع (ص٣٦٦)، والمعزى في مناقب أبي يعزى (بتحقيقنا)، وكتابنا في الجنيد (ص٢٧٩).

عند العارفين أعلى كرامة مقام أمرنا الله تعالى بطلبه في النهار سبعة عشر مرة من الفرائض، حيث أمرنا أن نقول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:٦]، ويأتي بذلك في سبعة عشر ركعة من الفرائض على سبيل الوجوب.

فافهم عظم هذا المقام من هذا التحريض المقام، ولهذا كانت ملازمة الجماعات من أعظم الأسباب الموصلة لهذه السعادة العظمى؛ لأن الإمام يقول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، وكل من خلفه من وليٍّ وصالحٍ ومؤمنٍ يقول: (آمين)، يعني: استجب يا رب لكل واحدٍ من الحاضرين يدعو لك بحصول الاستقامة، وأنت أيضًا تدعو لكل واحدٍ منهم بذلك؛ لأنك تقول: (آمين).

فانظر يا أخي هذا الفيض العظيم من حضور الجماعة، وما يترتب عليه من توقع حصول ما هو أفضل الكرامات، وأعلى مراتب السعادات، وهذه قطرة من فيوض بحر ملازمة الجماعات، وقسْ على ذلك ما لا يحصى من الفوائد، فعض عليها بالنواجذ، يا أخي يرجى لك ثبات الإقدام في المتابعة، والائتمام بالرسل الكرام، وأي مقامٍ أعلى منه عند أولي اللب والأفهام: «**جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أوصني يا رسول الله، فقال له: آمن بالله واستقم**»[1]، فلم يوصه بشيءٍ بعد الإيمان بالله والاستقامة؛ لأنها جامعة لكل كرامةٍ، فمن استقام فقد فاز وتمّ له المرام.

فإذا استقمت أيُّها الأخ فلا يتم لك ذلك إلاّ بالإخلاص، فعليك بمراقبة أحوالك تكن من أهل الاختصاص.

١٠٨- لا يكمل العبد[2] إلاّ بالإخلاص في خدمة مولاه، ولا يحصل الإخلاص إلاّ بكمال المراقبة.

لأن الخدمة هي بضاعته ومتجره الرابح الذي فيه سعادته، ومن لم يراقب البضاعة ويحرسها من الأغيار، ويبالغ في تلك المراقبة، ويخلصها من التساهل في الليل

---

(١) رواه أحمد (٣/٤١٣)، والترمذي (٤/٦٠٧).

(٢) في البيان: (العمل).

والنهار، كان مآلها إلى الضياع، وأحدقت بها السراق، وتجاذبتها السباع، وكذلك بضاعة العبد ومتجره التي هي خدمته إن لم يحرسها قطاع طريقه من النفس والهوى والشيطان، ويبالغ في مراقبته، ويخلص في ذلك أتم الإخلاص، ويتم ذلك بتنزيه من شهوده إخلاصه؛ ليتم له الخلاص، لا يحصل له الكمال، ولا يبلغ ما بلغه الواصلون من الرجال.

فعليك أيُها الأخ بالإخلاص والمراقبة، لا تتوقع ذلك بحولك وقوتك، وتوقعه في فضله تعالى؛ تتم لك المناسبة.

١٠٩- من طلب الحق من جهة الفضل وصل إليه.

قال ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحدكم بعمله، قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال: حتى أنا إلاَّ أن تغمدني الله برحمته**»(١)، فإذا كانت الجنة لا يوصل إليها بالأعمال، وإنما يتوصل إليها برحمته تعالى، وبفضله الذي لا يزال، فكيف يتوقع الوصول إلى الله سبحانه وتعالى إلاَّ من جهة الفضل والرحمة، وكيف ينال من هذه الفضائل من لم يتمسك بأذيال فضله ثمة.

ولذلك قال بعض العارفين: من ظنَّ أنه يصل بعمل فهو متعن، ومن ظنَّ أنه يصل بغير عملٍ فهو متمن، فاعمل ولا تسكن إلى الأعمال، ولا تنظر ولا تعتمد إلاَّ على فضل ذي الجلال، وقل بلسان حالك، وناج مولاك من بساط ذلتك وانكسارك، غير ناظرٍ لأعمالك:

إلهي، هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك منك، أطلب الوصول إليك، بك استدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني لصدق العبودية بين يديك.

إلهي، علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون.

إلهي، حققني بحقائق القرب، واسلك مسالك أهل الجذب.

(١) رواه البخاري (٥/٢١٤٧)، ومسلم (٤/٢١٦٩).

إلهي، أعتني بتدبيرك لي عن تدبيري، واختيارك لي عن اختياري، ورقني مراكز اضطراري.

إلهي، أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي.

إلهي، بك أنتصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإليك أسألك فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني، فإذا فعلت ذلك كنت متحققًا بمعنى: إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، سالكًا على الصراط المستقيم، لا تعبد إلاَّ إياه، ولا تشهد المعونة والنجاة إلاَّ من فضله، ولا تحوم إلاَّ حول حماه، متحققًا بطريق العارفين، طريق: لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله، خارجًا عن حولك وقوتك، حائزًا لكنـــز من كنوز الجنة، بلا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فحينئذٍ يمتلئ قلبك من إجلال مولاك، وتحوز ثمة من التعظيم لمن حولك، وأعطاك.

قال ﷺ:

١١٠- **التعظيم، امتلاء القلب من إجلال الرب.**

فإذا امتلأ قلبك أيُّها الأخ من إجلال ربك كنت معظمًا له، مقبلاً عليه بجميع جوارحك ولبك؛ إذ الشخص عبد لمن استولى عليه جميعه، ومن استولت عليه عظمة مولاه، وامتلأ بجلاله وكمال علاه، انجذب إلى صفوته، وكان أعز ما عنده المبالغة في خدمته.

فاعرف أيُّها الأخ أوصاف مولاك، وانظر إلى عظمته وكبريائه، واملأ قلبك فهمًا في صباحك ومساك، وأعطِ المعية حقها، ووفِّ العبودية مستحقها، وافنِ عن أفعالك في أفعاله، وعن أوصافك في أوصافه، وعن ذاتك في ذاته، تكن موحدًا، واقطع هذا البحر العميق بسفن التسليم، ولا تلتفت إلى نواه، واجعل الريح المقلعة لهذه السفن شمال: لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله، فحينئذٍ تسمو همتك إلى مولاك، وتكون علامة على رفعتك، وانتسابك إلى من رزقك وأعطاك.

١١١- همم العارفين علامة على مولاها.

همم العارفين لا تتوجَّه ولا تتحرك إلاَّ إليه، ولا تأخذ ولا تعطي إلاَّ بما لديه؛ إذ هم لا يشهدون إلاَّ هو، ولا يتحركون ولا يسكنون إلاَّ له، فصلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم لله رب العالمين، لا شريك له، ومن كان كذلك كانت همته علامة على مولاه؛ إذ هو قد تحقق بكمال الفناء، وصار مظهر من مظاهر الله، فلذلك تظهر في همته من حذق العوائد من إحياء الموتى، وشفاء المرضى، وهزم الجيوش، كما قال تعالى مخاطبًا لسيِّد العارفين: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، فجعل الرمي الصادر منه ﷺ في الظاهر الحاصل همته، منفيًا عنه، منسوبًا إليه تعالى، فأشار تعالى إلى أن الفعل الصادر من همة العارف عين فعله سبحانه، ولهذا كانت همته علامة على مولاها؛ إذ لا يصدر مثله هذا الفعل العظيم في العادة إلاَّ منه تعالى، والأشياء وإن كانت بالنسبة إلى جميع الخلق صادرة منه تعالى لكن يتميز العارف عنهم بكمال الفناء، فلا يشهد لنفسه وربه من ذلك، ولذلك كانت خرق العوائد في الغالب مخصوصة بهم.

فاجتهد أيُّها الأخ في رفع إليه، واخضع وانكسر لعله يكون لك تكون.

١١٢- احرص على ألاّ يكون لك شيء تعرف به كل شيء.

أي: احرص على أنه تتحقق بالعبودية، تشرق عليك أوصاف الربوبية، فينكشف لك بها كل شيء؛ لأن السالك إذا تحقق بعبوديته، ولازم الخدمة من الفرائض والنوافل أحبَّه، ومن أحبَّه الله كان له سمعًا وبصرًا ولسانًا، كما في الحديث القدسي: «**لا يزال عبدي يتقرَّب إلَيَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به**».

ومن كان الحق سمعه وبصره ولسانه، سمع كل شيء، ورأى كل شيء، ونطق بكل شيء، وعرف كل شيء، إذا توجه لشيء من الأشياء، وأراد الاطلاع عليه.

والحاصل أن من أطاع الله أطاعه كل شيءٍ، ومن كان لله كان الله له، أحبه وأعطاه مقصوده ومطلبه، وأعطاه المعرفة، وأزال عنه الجهل، وكشف له عن حقائق الأشياء، وغمره بالفضل.

فلا تركن أيُّها الأخ إلاَّ إليه، ولا تعتمد ولا تقول إلاَّ عليه.

١١٣- من لم يكن بالأحد لم يكن بأحد.

أي من لم يكن منتصرًا بالأحد سبحانه وتعالى، ومعتمدًا عليه، لم يكن منتصرًا بأحدٍ من الخلائق، ولا ظافرًا بذرةٍ مما هو محتاجٌ إليه.

فأقبل أيُّها الأخ بكلك على بابه، ولا تنح مطايا همتك إلاَّ بوسيع رحابه، وقل:

أَلْقَيتَ فِي بَابِكم عَنَانِي ... وَلَمْ أُبَالِي بِمَا عَنَانِي
فَزَالَ قَبْضِي وَزَالَهُ بسطِي ... وَانْقَلَبَ الخَوْف بِالأَمَانِ

فإذا وصلت إلى هذا الباب، وعفرت الخدود في تراب الأعتاب، فاحذر من آفة التخليط، واهرب من المخلطين، واحتمِ من البطالة، وابعد عن المبطلين، وتمم هذا الأنس يبعدك من أهل الوحشة، واستأنس بربِّ العالمين.

١١٤- دليل تخليطك صحبتك للمخلطين، دليل ركونك للبطالين قربك للمبطلين، دليل وحشتك أنسك للمستوحشين.

عليك أيُّها الأخ السالك بمصاحبة الصالحين، ولا تصحب إلاَّ من يجذبك بأفعاله وأقواله إلى باب رب العالمين، فـ«**إن المرء يُحشر على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**[1]».

وإيَّاك ومصاحبة ممن يفسد عليك الدين، ويجذبك بأفعاله وأقواله إلى سوء اليقين، فدليل تخليطك صحبتك للمخلطين، ودليل ركونك للبطالين صحبتك للمبطلين، ودليل وحشتك صحبتك للمستوحشين:

عَنْ المَرْءِ لاَ تَسْأَل وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ ... فَكُلُّ قَرِيْنٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

دخل يحيى بن أكتم البصرة، وجلس ثلاثة أيام ثم قال لأهلها: قد عرفت صالحكم وفاسدكم، فقالوا: كيف عرفت ذلك وما لك عندنا إلاَّ ثلاثة أيام؟ فقال: لأن معي صالحين وفاسدين، فرأيت الصالحين ألفوا جماعة، واستأنسوا بهم، فعرفت أنهم صالحون، ورأيت الفاسدين ألفوا جماعة، واستأنسوا بهم، فعلمت أنهم فاسدون؛ إذ الصالح لا يرغب إلاَّ في صحبة من جنسه من الصالحين، والفاسد كذلك.

(١) رواه أبو داود (٤/٢٥٩)، والترمذي (٤/٥٨٩)، والحاكم (٤/١٨٨).

فاجتهد أيُها الأخ في صحبة العارفين، واستعن على تقوية يقينك، وصلاح دينك بأنفاسهم في كل حينٍ؛ لعل نظرة منهم تحل عليك فتجذبك إلى مولاك، وتخرج من قلبك سواد، وتزهدك في دنياك وأخراك.

١١٥- الزُّهد: العزوف عن الدنيا، والإعراض عنها لحقارها، وتركها لاستصغارها ورؤية هواها.

لما بيَّن لك السالك الطريق، وأشار لك أنه لا بُدَّ من إزالة التعويق عن صحبة الأغيار، ومجالسة الأشرار، شرع يبين لك معنى الزُّهد الذي لا يتم معنى التعويق به، ولا يصفو القلب لصاحبه إلاَّ بلباسٍ فاخر ثيابه.

وحقيقة الزهد كما ذكرناه العروض عن الدنيا، والإعراض عنها لحقارها، وتركها لاستصغارها، ورؤية هواها.

والدنيا عند العارفين: كل ما دنا إلى قلبك، وشغلك عن ربك، سواء كان ذلك درهمًا، أو دينارًا، أم ضياعًا وعقارًا، أم حالاً ومقامًا، ومكاشفةً وأنوارًا، أم جنةً وحورًا، وقصورًا وأهارًا؛ إذ الكل دنيا عند العارف، إذ ليس له جنة إلاَّ مولاه، وذكره في صباحه ومساه.

كما قال أبو يزيد ﷺ: إذا أعطاك حلاوة من ذكره فما تريد بالجنة؟!.

وورد في الحديث: «**إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة لا يتحسرون إلاَّ ساعة مرَّت لهم في الدُّنيا بغير ذكر الله**»[١]: أي يتحسرون على ما فاهم من نصيبهم من تلك الساعة من جنة العارفين.

فأنفق أنفاسك يا أخي في تحصيل هذه الجنان، واشترها أنت بنفسك وأموالك، وزد على ذلك الثمن ببذل الروح والجنان، فما أنفسها من تجارةٍ عند الكاملين من أهل العرفان، وما أربحها من بضاعةٍ عند الذائقين الواصلين مقام الإحسان، فإذا صحَّت لك أيُّها الأخ هذه المعاملة، وذقت حلاوها، فلا تضيع حقوق إخوانك، فتبتلي بنقدها، وذوق مرارها.

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١/٢٥٨).

١١٦- مَن ضيَّع حقوق إخوانه ابتلى بتضييع حقوق الله.

يعني إذا وصلت مقام الجمع، وتحليت بخلع إحسانه، فلا تلبس مقام الفرق، والبس خلع حقوقه، وتزيَّن بلؤلؤه ومرجانه، ومن أهم ذلك حفظ حقوق الإخوان، وإيَّاك وتضييعها فتبتلي بتضييع حقوق الملك المنان.

فالعارف من لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، ولا صحوه عن سكره، ولا سكره عن صحوه، يعطي كل ذي حقٍّ حقه، ويوفي كل مقامٍ مستحقه، كان رسول الله ﷺ يجالس الناس، ويتحدث معهم، ويخالفهم كأنه واحد منهم، يلاطف الصغير، ويوقر الكبير، ويمازح كلاً منهم، يقول للصغير في بعض ممازحاته: «**يا أبا عمير ما فعل النفير**[1]».

ومع ذلك كله هو بائن عنهم بالجنات، صاعد بروحه وسره في أعلى غرفات الإحسان، يقول ويخبر عن منـــزله العظيم الشأن: لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وهكذا شأن العارف، ظاهره مع الخلق كأنه واحدٌ منهم، وباطنه مع الحق كأنه لا يعرف واحدًا منهم، ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [النور:٣٧]، متحققون بحقيقة لا إله إلاَّ الله، محمدٌ رسول الله، ينفقون من كنـــز: (لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)، قد قيَّدوا أنفسهم بقيود الورع، وأطلقوا غيرهم من ميدان العلم، فصار له أوسع مرتع ومربع.

قيِّد نفسك بقيود الورع، وأطلق غيرك من ميدان العلم، قيِّد نفسك بقيود الورع وضيِّق عليها، وامنعها من تناول الشبهات وأحوالها عليها، واتهمها في سائر أحوالها، وانظرها بعين الرياء في سائر أقوالها وأفعالها، كان بعضهم يصلي ألف ركعة، ثم يقبل على نفسه ويقول لها: يا أمارتي بالسوء، فوالله ما أرضاك له ساعة واحدة، وكلما ازداد الإنسان بنفسه معرفة ازداد ما لها، وكلما اتهمها أكثر كانت أعماله وأحواله إلى القبول أقرب؛ لأن أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، هذا كله بالنسبة إلى نفسك، وأما غيرك فأطلقه من ميدان العلم: أي لا تقيّده ووسِّع عليه من حيث العلم؛ لأن

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٧٠).

ميدانه واسع، فإذا رأيته في حالة من الأحوال التي لا ترتضيها لنفسك فارتضها له، وأول حاله له، وحسن فيه الظن، وأدخله في سعة ميدان العلم، فإذا رأيت أحدًا في دنيا واسعة فضل لعله أخذها من وجه حلال، وأدّى حقوقها، وعامل مولاه فيها معاملة لا تجدها أنت في صلاتك ولا صيامك، وكم فرَّج كربة مكروب بها؟ وإذا رأيته في صلاة وصيام فاعتقد أنه مخلصٌ في معاملته، موجهٌ في مشاهدته، وهكذا لا تشهد سائر أقواله وأفعاله وأحواله إلاَّ بالكمال، خلاف ما كنت تعامل به نفسك، فتكون حائزًا للفضيلتين فضيلة حسن الظّن، وفضيلة اتّهام النفس، وأنت قرير العين، فإذا فعلت ذلك حزت من المروءة أمورًا جمَّة، وكانت لك في المعالي همة: أي همة مروءتك إغضاؤك عن تقصير غيرك، المروءة من حسن الخلق، وحسن الخلق كما ورد: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفُ عمن ظلمك، ومن لازم ذلك الإغضاء وغض عن تقصير الغير، وشهود ذلك بعين الرضا معاملته بكل خيرٍ.

قال ﷺ: «**يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق، قال: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**»(١).

وقال ﷺ: «**أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرة، وأمر بالمعروف**»(٢).

فذكر ﷺ في هذا الحديث جهود محاسن الأخلاق، وجعل واسطة عقدها أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، الذي هو حقيقة المروءة؛ إذ لولا الإغضاء عن تقصير الغير لما أمكن ذلك، ولم يسأل على النفس تحل ما هنالك، وهذا العقل ينشأ من التحقق بلب التوحيد، والرسوخ في مقام التفريد، ولا يتم كمال السالك إلاَّ بذلك.

فإذا أردت أيُّها الأخ شمة من هذا المقام، فعليك بإيثار الخلف على نفسك تعرفه، وتكون شاكرًا له، مستوجبًا للأنعام.

---

(١) رواه أبو يعلي في مسنده (٦/٥٣) عن أبي ذر.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٣٤٦) بنحوه.

١١٧- ما عرف الحق من لم يؤثره، وما أطاعه من لم يشكره.

إذ من عرفه علم أنه أعز من سمعه وبصره، ومن قلبه وقالبه، وسائر صوره؛ إذ الكل بوجوده، وجميع ما عندك من فضله وجوده، فما من ذرةٍ من النعم إلاَّ وهي حاصلة لك من جنابه، ولا ثمّة من المعارف والعلوم إلاَّ وهي منصبة عليك من مزنه وسحابه، وكل ما تنتفع به من الحواس، وجميع الأهل والناس، يمكن ألاَّ يفارقك، ويبعد عنك.

وأما هو سبحانه وتعالى فلا انفكاك لك عنه؛ إذ ليس وجودك إلاَّ بوجوده، ولا فضلك وقوتك إلاَّ بفضله وجوده، فكيف تؤثر عليه إذا عرفته هذه المعرفة سواه، أم كيف تقبل على غيره فكيف تتهالك في تحصيل رضاه، وكيف لا تشكره ببذل جميع جوارحك في خدمته؛ لتتم لك الطاعة، وتستقيم في عبوديته، وكيف لا تتقو نفائس الأوقات في ذكره.

وكيف لا تضطرب وتلتذ حيث وفّقك، وجعل قلبك مقبلاً عليه بذكره، فإذا عرفت ذلك فاخرج عن حولك وقوتك، وانطرح بين يديه، واترك اختيارك وتدبيرك بطيب عيشك، وتكون مقنعًا بما يأتيك من لديه من ترك التدبير والاختيار، طاب عيشه من ترك تدبيره، دخل في تدبير واختيار مولاه، وطاب عيشه، وحفظه الحق ورعاه بعين علياته، وتولاّه وجمع له هموم قلبه، وجعلها همًّا واحدًا، لا يقصد إلاَّ مولاه، ولا ينيخ مطايا حاجاته إلاَّ بساحة حماه؛ إذ الخروج عن الاختيار والتدبير عين الغنى، وهو عين الوصول إلى غاية السؤال والمنى؛ إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها وصلتك، وإنما بعدك من رجوعك إلى أوصافك وسكونك إليها، وشهودك نفعها، واعتمادك عليها، فمتى انفصلت منها وصلت إليه، وذقت جنة العارفين عاجلاً، وصرت بين يديه، فما أطيبها جنة فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وما أعظمها منـــزلة بها تطيب القلوب، وتنشرح الصدور، وتنطلق الألسن.

فإذا أردت أيُّها الأخ الخلود في هذه الجنان، فعليك بالإخلاص في الأعمال، واستعن على ذلك بالإخفاء والكتمان.

١١٨- **الإخلاص ما خفي عن النفس درايته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالته.**

أشار بهذا الإخلاص إلى لب الذِّكر، وهو الذِّكر الخفي الذي يتحقق عنده السالك بفناء الفناء، فيفني ويفني عن فناءه، وعنده لا يشعر بقبره، ولا يشعر بشعوره أيضًا.

وقالوا: إن شعور الملك مع شعور الشخص، فإذا جاوز شعوره جاوز شعور الملك، فحينئذ يخفي الذكر عن الملك، وعن النفس، وعن الشيطان، وعن الهوى، ويبقى معلومًا للحق، منفردًا عن السوى، وهذا أعلى مراتب الذِّكر، وبه يكمل الإخلاص، ويحتمل أن يكون هذا المقام الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**لي مع الله وقتٌ، لا يسعني فيه ملكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ**[(١)]»، وذلك عند التشريف بالتجلِّي الذاتي كما أشار إليه بعض العارفين؛ فإذا تشرَّف ذهبت عنه الأغيار، وانمحت الآثار، وذهبت العلوم والرسوم، ولم يبقَ إلاَّ الحي القيوم.

فإذا أردت أُيها الأخ التحقق بهذا المقام الزم الذِّكر في كل وقت؛ حتى يغنيك عنك، وتصطلم وتصير من أهل المشاهدة والمحادثة، وترجع بعد ذلكً إلى التمكين، الوقوف محادثة الله عند اصطلام العبد، الوقوف في اصطلاح القوم حالة تحصل للسالك يصير فيها مصطلحًا، ويغيب عن الأكوان، ويدخل في مقام الإحسان، مقام

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/٢٢٦).

فائدة: «**لي وقت**» هو هنا عبارة عن الحال الذي يقتضيه الاستعداد الغير المجعول، ويطلق في اصطلاح الصوفية أيضًا على ما يُردُّ على العبد، ويتصرَّف فيه، ويمضيه بحكمة من خوف أو حزن، ولذلك قيل: الوقت سيف؛ لأنه يقطع الأمر بحكمة، ويقال: فلان يحكم الوقت.

وقد يُراد بالوقت: ما حصل من الزمان المسمَّى بالحال، يقال: فلان مشتغل بوظيفة الوقت: أي يعمل في كل حالٍ ما لا يسوغ فيه إلا ذاك، وفيه قيل من أهل وظيفة الوقت، فوقته مقت.

(مع الله) معيَّة خاصة ليست في الاستعداد غيري.

وتتمة الحديث: «**لايسعني فيه ملك مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل**»، فدخل المهيمون من الملائكة أيضًا.

المشاهدة والمحادثة، ويسمع من الحق تعالى الخطاب، ويتشرَّف بكل معنى يُستطاب من غير حرفٍ ولا صوتٍ ولا جهة، ويُسمَّى مثل هذا في عرفهم بالإلهام(١)، وهذا أمرٌ يصعد في ابتداء الإيمانً حتى يصلَ صاحبه إلى مقام الإحسان، ويصير له هذا الأمر مشاهدًا بالعيان.

وإلى هذا المقام أشار ﷺ في وصفه لعمر بن الخطاب ﷺ حيث قال أو كما قال: «**إنه كان فيمن قبلكم مكلمون، وإن عمر منهم**»(٢).

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في حزبه: وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة.

---

(١) إن القيام بالطرائق يُورِّث الحقائق؛ لأن المجاهدات تُورِّث المشاهدات، فمَن لا شريعة له؛ لا معرفة له، ومَن لا طريقة له؛ لا حقيقة له، فلكل مَنــزل طريق، ولكل طريق سالك، فمَن مشى على طريقه؛ وصل إلى مراده بإعانة الله تعالى وتوفيقه، فظهر أن الآية خطاب إلى كلا الفريقين عبارة وإشارة، وقد يحصل إلهام من الله في أمر من الأمور بدل فعله، أو تركه، ويحصل له شواهد أيضًا.

فذلك الإلهام يجب أن يعمل به؛ لأنه إلهام ربَّاني وإلقاء رحماني، وإن لم يحصل له شواهد؛ فذلك مما يترك، ولا يعمل به؛ لأنه خاطرة نفسانية، ووسوسة شيطانية، وعلى هذا أجرى أهل الله تعالى في كل عصر، ومصر يعني: عملوا بما أُمروا به؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، ولا للنفس الأمَّارة عليهم استيلاء سواء كان المأمور به الهجرة من دار إلى دار، أو غير ذلك من الأمور الشاقة على غيرهم.

فإن غيرهم يلعبون بنفوسهم وطبائعهم، فلهم الاستئناس بالأمور البشرية الحسِّية، ولهم التعلُّق بالأشياء الفانية الصورية ، وذلك الاستئناس والتعلُّق يمنعهم عن التجرُّد والتبتُّل؛ فهو الذي يُقال له: الحجاب.

ولعلماء الرسوم حظٌ وافر من ذلك، فإنهم إذا تقلَّدوا مدرسة في بلدة، أو نالوا غيرها من الحظوظ العاجلة ورأوا أنهم مُفخَمون في عيون الناس، ولهم أحباب وطلبة يتردَّدون إليهم صباحًا ومساءً؛ فهم أعلق بتلك البلدة من علاقة العلقة ببدن الإنسان أو الحيوان، فلا طَريق لهم إلى الحق إلا عند الموت، وذلك من جهة الجبر لا من طريق الاختيار، عصمنا الله وإياكم من التعلُّقات الموجبة للانتقام، وشرَّفنا بالقيام بالحق في كل مقام.

(٢) رواه البخاري (١٢٧٩/٣)، ومسلم (١٨٦٤/٤).

ولهذا المعنى أشار النووي: أفتاني قلبي عن ربي.

وقال أبو يزيد ﷺ: أخذنا علمنا هذا عن الحي القيوم الذي لا يموت.

يشير إلى هذا أيضًا.

وقال أحد العارفين: من صمت لسانه ونطق قلبه خفَّ وزره، ومن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلَّى له سره، خاطبه ربه؛ لأن الصمت على الإنسان محال، فمتى صمت عن محادثة الخلق حادثه الحق.

فعليك أيُّها الأخ بالهمَّة العليَّة؛ لتحوز من هذه المراتب السنية، واستغرق أوقاتك في الحضور يستغرق قلبك في المذكور، فتظفر بالجنة العالية، وتحوز السرور.

١١٩- مشاهد الحضور استغراق القلب في الذِّكر.

لغلبة شهود المذكور علامة الحضور مع الله تعالى، استغراق القلب في الذِّكر لما يستولى عليه من غلبة شهود المذكور، فإنه إذا غلب الشهود المذكور ذهب عن القلب السوى، ويقطف من الهوى، و لم يبقَ فيه إلاَّ المولى، فيستغرق القلب حينئذٍ في ذكر مولاه، ولا يشعر بأحدٍ سواه، وهذا غاية مراتب الذِّكر، كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك بالتفصيل، ومن ارتشف جرعة من كأس هذا المرام فقد سلك به أعلى مراتب السعادة، وتمَّ له النظام، وعاش عيش الأولياء الكرام، وتمتع بما يتمتع به أهل الجنة من أنواع الإكرام.

١٢٠- عيش الأولياء في الدنيا عيش أهل الجنة، أبداهم تتمتع بأمره، وأرواحهم تتنعم بشهوده ونصره.

أهل الجنة أرواحهم متنعمة بالمشاهدات[1]، وأجسادهم مطهرة من دنس المخالفات؛ إذ لهم الحضور الدائم، وليس عليهم التكليف بلازم، والأولياء في الدنيا يعيشون كذلك، ويتنعمون بما تنعم به أولئك؛ لأن أرواحهم قد تشرَّفت بنعيم

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: المشاهدة هي إزالة الموانع عن الحقيقة المستعدة لقبول الحق، وحقيقتها: استغناء النظر الصحيح بالبصيرة النافذة في تحصيل المطلوبات عن نصب الأدلة والبراهين، وغايتها: رؤية الصديق عين خبر الصادق في صورة كونه اهـ.

الحضور والشهود، وأجسادهم قد تلذذت بامتثال الأوامر، ووفاء العهود، حازوا مقام المتابعة فتشرَّفوا بمقام المحبة، وبذلوا المهج في خدمة محبوبهم، فأعطى كلاً منهم حاجته، كما قال ذو النون ﷺ في وصفهم: إن لله عبادًا وإن معه صفوة، وإن لله خيرة، قيل: وما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنــزلة، قيل: فما علامة إعراض الله عنه؟ قال: إذا رأيته ساهيًا لاهيًا لاغيًا معرضًا عن ذكر الله.

فتعرف أيُّها الأخ أخلاقهم تذق أذواقهم.

١٢١- الفقر فخر، والعلم غنى، والصمت نجاة، واليأس راحة، والزُّهد عافية، والغيبة عن الحق خيبة.

حقيقة الفقر تحققك بأوصافك، وتعلقك بأوصافه، وأوصافك: الفقر والضعف والعجز والذلة، وأوصافه: الغنى والقوة والقدرة والعزة، فإذا تحققت بالأولى وتعلقت بالثانية حصل لك العجز والارتفاع، وظهر منك ما تقر به الأعين، وتمطيت به الأسماع؛ لتحققك بعبودية مولاك، ورجوعك إلى وطنك الأصلي، وملازمة عتبة من خولك النعم، وأعطاك قوله.

(والعلم غنى): أي العلم النافع من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكلام أوليائه غنى في الدين والدنيا، أما في الدين فلاستغنائك به عن سؤال غيرك مما تحتاجه في إصلاح ظاهرك وباطنك، وأما في الدنيا فإنك تعرف به كيفية تحصيل الأشياء التي تحتاج إليها برجوعك إلى مولاك، والعكوف على بابه، والتمسُّك بثرى أعتابه، لا تجنح بهمتك إلى سواه، ولا تنخ مطايا حاجاتك إلاَّ بساحة علاه، وهذا النوع في التحصيل لا يحصل إلاَّ من العلم النافع، إذا رسخ في سويد القلب، ونصب خيامه في الفؤاد، وطنب لما تحقق أن مولاه أقرب إليه من حبل الوريد، وأرحم به من القريب والبعيد، يقول لسان حاله وقاله مخاطبًا مولاه في غدوه وآصاله:

أَأَكْـــرَمُ مِـــنْكَ فَـــأَرْجُوه أَأَرْحَـــمُ مِـــنْكَ فَـــأَدْعُوه
أَأَسْـــمَعُ مِـــنْكَ فَأُنَادِيـــه أَأَقْـــرَبُ مِـــنْكَ فَأُنَاجِـــيه

يا سميع يا قريب يا مجيب اسمع دعائي، واقضِ حاجتي، اللهم إني قد أويت

إليك، ومن أوى إليك فقد أوى إلى رُكنٍ شديد، فمن علم هذا النوع من العلم كيف لا يغني، ومن فُتح له هذا الباب من الفهم كيف يحتاج إلى سواه، وكيف يقربه العَناء.

قوله: (والصمت نجاة): أي نجاة من الآفات، إن كثيرًا ما يهلك الإنسان من لسانه، فإذا صمت سلم من آفاته.

وقد ذكر الإمام الغزالي ﷺ: للسان عشرون آفة، وفصَّل ذلك غاية التفصيل في الإحياء، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «معاذٌ ألاَّ أدلك على مَلاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، فقال: **اكفف عليك هذا** - وأشار إلى لسانه - فقال له معاذ ﷺ: وإنّا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا يا رسول الله؟ فقال: **ثكلتك أُمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم** - أو قال: **على وجوههم** - **إلاَّ حصائد ألسنتهم**[1]»، ولذلك كانت النجاة في الصمت.

ولذلك قال ﷺ لعقبة بن عامر ﷺ لما قال له: «**فيم النجاة يا رسول الله؟ قال: احفظ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك**[2]».

قوله: (واليأس راحة) لأن الآيس مستريح من تعلق القلب بما عند الناس، قد جمع قلبه، وقنع بما قُسم له.

جاء شخصٌ إلى النبي ﷺ فقال له: أوصني وأوجز فقال له ﷺ: «**إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مُودِّع، ولا تتكلَّم بكلامٍ تعذر منه غدًا، واجمع اليأس مما في أيدي الناس**[3]».

وقال شخصٌ: يا رسول الله دلني علي عملٍ إذا عملته أحبَّني الله وأحبَّني الناس، فقال ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**[4]».

---

(١) رواه الترمذي (٥/١١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٨)، وابن ماجه (٢/١٣١٤).
(٢) رواه الترمذي (٤/٣٠٥).
(٣) رواه ابن ماجه (٢/١٣٩٠).
(٤) رواه ابن ماجه (٢/١٣٧٠).

وقال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف:٣٢].

ومن تأمَّل كتاب الله ﷻ وسُنة رسوله ﷺ علم أن الأمور مقسومة، فاطمأن قلبه واستراح، وآيس مما في أيدي الناس، وأقبل بقلبه على مولاه في المساء والصباح.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: لو أقسمت على الله بالنبيين والصديقين أن ينقصك ذرة مما قسم لك ما فعل.

فمن تأمَّل يا أخي بقلبه هذا الكلام شرب من صافي كؤوس رحيق اليأس فظفر بكل مرام.

قوله: (والزُّهد عافية)؛ إذ حقيقة الزُّهد ترك الفضول، ومن ترك الفضول تعافى قلبه من مرض العلائق، وصلح أن يكون حضرة من حضرات الخالق؛ إذ لا مرض أقوى من الاشتغال بعلائق الأغيار، ولا صحة أتم من صحة الحضور والاشتغال بصحبة العزيز الغفار.

قوله: (والغيبة عن الحق خيبة) وأي خيبة أدهى من الجحيم العاجلة لأهل الغفلات، والعذاب الحاضر لأهل البُعد من ذي الحضرات.

قال أبو يزيد ﷺ: رأيت أشد ما يعذبني به الله، فلم أرَ أشد من الغفلة.

وقال في الحكم العطائية: النعيمُ وإنْ تنوعتْ مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه، والعذابُ وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسببُ العذاب وجودُ الحجاب، وإتمامُ النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: نعيم الروح وعذابها إنما هو بشهود ربها واحتجابها، وذلك بعد تخلصها من عالم الأشباح، وترقيها إلى عالم الأرواح، فيكون حينئذ نعيمها روح الوصال وريحان الجمال، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال، وبعدها عن الكبير المتعال، وهذا الأمر حاصل في دار الدوام لجميع الأنام، لأنه تميز الحق من الباطل، وعرف كل واحد مثواه ومستقره، فأهل الجنان أحسوا بالرضا والرضوان، فهم عالمون بقرب الحق منهم ورضاه عنهم، لكنهم متفاوتون في العلم، فمنهم من يعلم من وراء الرداء، ومنهم من يعرف داخل الرداء.

وفي البخاري: «وما بَيْنَ الناس وبَيْنَ أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكِبْرِيَاءِ على وجهه في جنة عَدْنٍ».

=

ولا يفهم هذا الرداء إلا أهل الأذواق، وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار، فتضاعف عذابهم في دار البوار.

ولو أن الحق تعالى تجلى لهم بصفة جماله لأنساهم ذلك اليوم عذابه، ولو أنه تعالى احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان، ولانقلب نعيمهم نقمة وعذابًا، أما من كان في دار الدنيا عارفًا فلا يحتجب الحق تعالى عنه، كما شهده هنا بوسائط أنواره يشهده ثم بلطائف أسراره، بل ثَمَّ أولى لغلبة المعنى على الحس، والقدرة على الحكمة، وأما من كان هنا محجوبًا فهو ثَمَّ أيضًا محجوب، قال تعالى: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} [الإسراء:٧٢]، وللآية تفسيران ظاهر وباطن، لكن في دار البقاء يرق الحجاب لرقة الأبدان ولطافتها، فلذلك صار نعيمهم لا يكمل إلا بشهود القرب، فإذا فقدوه تنغص نعيمهم لأن في تلك الدار صار الحكم للأرواح، وفي هذه لدار الحكم للأشباح، إلا من ترقى هنا إلى عالم الأرواح فهو من أهل الجنة فنعميه نعيم الأرواح، وهو روح الوصال وشهود الكمال، فنعيمه بشهود اقترابه ورضوانه، فلو زال عنهم شهود القرب أو انقطع عنهم مدد الرضوان لضاق عليهم فسيح الجنان.

وأما نعيم الأشباح وعذابها: أعني من كان محجوبًا بها فإنما هو لموافقة ما يلائم طبعه أو مخالفته، فإذا جاء ما يلائمه من صحة وعافية وجمال حسي فهو في حقه نعيم، وإذا جاء ما يخالف طبعه من وجع أو فقد أو منع أو فتنة فهو عذاب في حقه إذ لا حظ له في لذة القرب ومرارة البعد، فإنما حظه من النعيم نعيم البهائم، نعم لو قدرنا أن العادة تخرق له ويتجلى الحق تعالى له في حال عذابه الحسي بصفة جماله لنسي ذلك العذاب.

والحاصل: أن كلام الشيخ إنما هو في حق أهل القرب أو الشهود بحيث يجد لذة القرب وحلاوة الشهود، ويحس بمرارة البعد وضيق الحجاب في هذه الدار وفي تلك الدار، هذا ما ظهر لي، وهذا الذي ذكره الشيخ مذوق عند أرباب العشق، فكم من عاشق ضرب بمحضر محبوبه فلم يحس بألم الضرب، فلما غاب عنه تضرع و استغاث، فقيل له في ذلك؟ فقال: لما حضر من كنت أضرب من أجله غبت عن ألم الضرب، فلما غاب عني وجدت ألمه.

قلت: ولهذا المعنى استلذ العارفون الفاقات، وأنواع التعرفات، وضروب البليات لما ذاقوا في ذلك من إقبال محبوبهم، ورضا مشهودهم.

كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يقول: ألا حبذا المكروهات الثلاث: الفقر والمرض والموت: أي ما أحبهم لي وأعزهم، وكانت زوجة بلال تصيح عند موته: واكرباه، فيقول هو:

فإذا أردت أيُّها الأخ أن تتشرَّف بالحضور الدائم ليتم لك تمام النعيم، فعليك بتصحيح التوبة قبل الإرادة تخر هذا الملك العظيم.

١٢٢- طلبك الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة(١).

واطرباه، غدًا ألقى الأحبة: محمدًا وحزبه. ولما ضرب عامر بن فهيرة بالرمح ونفذ من ظهره إلى صدره قال: فزت ورب الكعبة.

وكان بعض الأولياء مجذومًا وهو يدعو للمرضى فيبئرون من حينهم، فقيل له: لو دعوت الله أن يخفف عنك؛ فقال: رأيت رب العزة في النوم وهو يقول لي: أتريد أن أبتليك ببلية أرفع لك بها أعلى الدرجات؟ قلت: نعم، فأصبح مجذومًا.

فانظر هؤلاء السادات لما عرجوا من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، لم يبق لهم نعيم ولا عذاب إلا نعيم الأرواح أوعذابها، وأما عذاب الأشباح فقد غابوا عنه، فكان نعيم هؤلاء وقوت أرواحهم هو ذكر ربهم وشهود نوره أو اقترابه، حتى صار لهم غذاء لا بقاء لهم إلا به، ولا غنى لهم عنه، ولو فقدوه لفارقت أرواحهم أشباحهم.

والحاصل: أن نعيم الأرواح التي تشاهد محبوبها لا ينقطع عنها، فنعيم العارفين لا ينقطع لأن قرب الحق لا ينقطع، فمن بعدت نفسه أحس بالعذاب ولزمه الهموم والأحزان والنصب.

انظر: إيقاظ الهمم (شرح الحكمة: ٢٥٩).

(١) إن كل من تاب، وندم على ما مضى مع دوامه على ما صفى، ولكن يكون من نفسه بأن يكون لنفسه حظًا في التوبة فقصدها بنفسه لا بالله نقض العهد بالرجوع إلى ما مضى وتاب منه، ولا يثبت على التوبة، ولا يمكث فيها؛ لأن قصد التوبة حقًا يكون بهوى النفس، وهي لا تطلب إلا الشرّ أو ما هو من جهته لكونها مجبولة على ضدِّ الخير، فلا يثقل عليها إلا الحق، فلا يطلب إلا الناقص، أو ما لحقته العلل والأغراض، وهو وإن كان حقًا وخيرًا، لكن بسبب العلل والأغراض يصير باطلاً وشرًا؛ إذ بالعوارض ينتقلُ الخير إلى الشرِّ والشر إلى الخير، كما مرَّ في أول الكتاب بعد تمام الديباجة، فكل ما أنت فيه مصحوب بالالتفات والقصد فلا يتم لك، ولو تم ينقطع التفاتك وغرضك، فكل من تاب من نفسه وإن كانت التوبة باب الأبواب للدخول في الحضرة الإلهية، فلا يستقيم عليها فينقضها فيجب عليه التوبة إمَّا على السِّعة، أو على الضيقة وهو الأصح؛ إذ التوبة فورية على المعتمد من نقض التوبة.

ولهذا قال الشيخ كما مرَّ في أول الكتاب: (خف من كل مالك فيه نية، ولو كان طاعة)

الإرادة إقبال على الصلاة الحقيقية، وتوجه للدخول إلى الحضرة العلية، والتوبة بطهارة دنس المخالفات، وتنظيف للقلب عن نجاسة الشرك وسائر المستقذرات، فمن لم يحكم الطهارة ويتزين بفاخر ثيابها، كيف يصح له الدخول إلى الصلاة الحقيقية؟ وكيف يؤذن له بالولوج من أبوابها؟.

فاغسل قلبك أيُها الأخ بمياه الاستغفار، وترب تلك النجاسات بتراب الذلّة والانكسار؛ لعلّك يُؤذن لك بالدخول إلى حضرة العزيز الغفار، وتنكشف لك لمعة من لمعات تلك الأنوار، وتفوح لك شيمة من روائح تلك الورود والأزهار، وتقطف بأنامل العرفان شيئًا من فواكه تلك الثمار، وتدخل قصور تلك المعارف، وتدخل في حلل الوداد واللطائف، واستعن على ذلك بالبعد عن مخالطة الأغيار، وملازمة الخمول والبكاء على الخطيئة.

١٢٣- والاعتكاف بالدار الخمول نعمة على العبد لو عرف شكره.

إذ هو سبب للسلامة من الآفات، وطريق موصل للسعادات، لو عرف السالك قدره لشكر مولاه عليه؛ حيث يسر له أسبابه، وأقامه فيما يقتضي التوجُّه إليه.

قال عقبة بن عامر: فيما النجاة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**احفظ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك**(١)»، فجعل ﷺ واسطة عقد النجاة ملازمة البيت الذي هو عين الخمول؛ وذلك لأن كلاً من حفظ اللسان والبكاء على الخطيئة يكون به سهل الحصول.

بخلاف ما إذا كان مقهورًا في التوبة، ولا يكون له قصد من النفس فيها فإنه حقًا تاب الله عليه، فلا يكون فاعلاً لما هو طالبه، بل هو فاعل لما هو مطلوب منه فيتم أمره، ويثبت على توبته ولا ينقضها، ويمكث فيها أبدًا وهو موجب للمكث والخلود في الجنة قال الله: ﴿**وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فيه أَبَداً**﴾ [الكهف:٢،٣].

والأجر الحسن الجنة بدليل قوله: ﴿مَاكِثِينَ فيه أَبَداً﴾ [الكهف:٣].

فانس أيها التائب قصدك وهوى نفسك؛ لأنه تعالى أعرف بمصالحك من توبتك وعدم توبتك وغير ذلك من سائر الأفعال، فلا تعمل إلا به ولا تريد إلا بإرادته، والمقصود أن تفنى عنك وتبقى بالله حتى تتقرب إلى الله.

(١) تقدم تخريجه.

فلذلك قال في الحكم العطائية: ادفِن وجودَكَ في أرض الخُمول، فما نبتَ مما لم يُدفن لا يتمُّ نَتَاجُهُ(١).

(١) قال سيدي ابن عجيبة: الدفن هو التغطية والستر، والخمول سقوط المنـــزلة عند الناس، ونتائج الشجرة ثمرها أستعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التي يجتنيها العبد من المعرفة بالله، وذلك عند موت نفسه وحياة روحه.

قلت: استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه، ويكون عندها أحلى من العسل ويصير الظهور عندها أمر من الحنظل، فإذا دفنتها في أرض الخمول وامتدت عروقها فيه، فحينئذ تجني ثمرها، ويتم لك نتاجها وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص، وأما إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول ماتت شجرها أو أسقطت ثمرها، فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم، وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيرًا سائلاً أو سارقًا صائلاً.

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه:

أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض.

قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب كالأرض انتهى.

وقال بعض العارفين:

كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماء سماء وقال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبرِ ذي طِمرين لا يؤبه به، تَنْبُوا عنه أعْيُنُ النَّاسِ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه في قَسَمِه». وكان عليه الصلاة والسلام جالسًا مع الأقرع بن حابس كبير بني تميم فمر عليه رجل من فقراء المسلمين فقال عليه السلام للأقرع بن حابس ما تقول في هذا؟ فقال: هذا يا رسول الله من فقراء المسلمين حقيق إن خطب أن لا يزوج وإن استأذن أن لا يؤذن له وإن قال ألا يسمع له ثم مر بهما رجل من المترفين فقال له عليه السلام: وما تقول في هذا فقال هذا حقيق إن خطب أن يزوج وإن استأذن أن يؤذن له، وإن قال إن يسمع له فقال له ﷺ: «هذا –يعني الفقيرَ– خيرٌ من مِلءِ الأرضِ منْ هذا».

وفي مدح الخمول أحاديث كثيرة وفضائل مشهورة، ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافياً.

وقال بعض الحكماء: الخمول نعمة والنفس تأباه والظهور نقمة والنفس تهواه.

=

=

وقال آخر: طريقتنا هذه لا تصلح إلا بقوم كنست بأرواحهم المزابل.

قلت: ويجب على من ابتلي بالجاه والرياسة أن يستعمل من الخراب ما يسقط به جاهه وإن كان مكروهاً دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء، كالسؤال في الحوانيت أو الديار وكالأكل، في السوق، وحيث يراه الناس وكالرقاد فيه، وكالسقي بالقربة، وحمل الزبل على الرأس بوقاية، وكالمشي بالحفا وإظهار الحرص والبخل والشح، وكلبس المرقعة وتعليق السبحة الكبيرة وكل ما يثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام.

قال الشيخ زروق ﷺ: وكما لا يصح دفن الزرع في أرض رديئة لا يجوز الخمول بحالة غير مُرضِيَّة، وقياس ذلك بالغصَّة لا يصح لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجباً ومندوباً وتفويتها مع إمكان إبقائها محرم إجماعاً لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة:١٩٥] بخلاف الخمول لا يفوت به شيء من ذلك إنما يفوت به الكمال، وهو نفي الجاه والمنــزلة وأصله الإباحة انتهى.

وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية فأولى أن يجوز لفوت الحياة الدائمة وهي المعرفة فتأمله، وقصة لص الحمَّام تشهد له، والله تعالى أعلم.

ولقد سمعت شيخنا ﷺ يقول: الفقير الصديق: يقتل نفسه بأدنى شيء من المباح.

والفقير الكذاب: يقع في المحرم ولا يقتلها وكان كثيراً ما ينهى عن الأحوال الظلمانية، ويقول: عندنا من المباح ما يغنينا عن المحرم والمكروه وأما السؤال فإنما هو مكروه أو حرام لقصد قوت الأشباح مع الكفاية أما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام وقد ذكر القسطلاني في «شرح البخاري»، عن ابن العربي الفقيه أنه قال: واجب على الفقير في بدايته فانظره، وقد ذكره في «المباحث الأصلية» مستوفى فانظره. وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله عند قوله: لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق الخ.

فإن قلت: هذا الخراب الذي ذكرت فيه شهرة أيضاً إذ الخمول هو الخفاء عن أعين الناس، وهذا فيه ظهور كبير.

قلت: الخمول هو إسقاط المنــزلة عند الناس، وكتمان السر الولاية وكل ما يسقط المنــزلة عندهم وينفي قمة الولاية فهو خمول، وإن كان في الحس ظهوراً ولذلك كان شيخنا ﷺ يقول:

طريقتنا منها الخمول في الظهور والظهور في الخمول.

وقال النجيبي في «الإنالة» ما نصه: ومن يقل من الصوفية أن المرقعة شهرة فجوابه أن سلمان

=

=

الفارسي سافر في زيارة أبي الدرداء من العراق إلى الشام راجلاً وعليه كساء غليظ غير مضموم فقيل له: أشهرت نفسك فقال: الخير خير الآخرة وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد فإذا أعتقت لبست حلة لا تبلى حواشيها انتهى.

ومن ذلك قصة الغزالي ﷺ من حمله جلد الثور على ظهره عند[1] ملاقاة شيخه الخراز وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقي الناس كذا سمعتها من الشيخ مراراً و لم أقف عليها عند أحد ممن عرف به، وانظر ما جرى له مع ابن العربي عند قوله: رب عمر اتسعت آماده وقلّت أمداده، وكذلك قصة الششتري ﷺ مع شيخه ابن سبعين لأن الششتري كان وزيراً وعالماً وأبوه كان أميراً فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة وتأخذ بنديراً وتدخل السوق ففعل جميع ذلك فقال له ما تقول في السوق؟ فقال قل: بدأت بذكر الحبيب، فدخل السوق يضرب بنديره ويقول: بدأت بذكر الحبيب فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب، فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق.

وقصة الرجل الذي كان مع أبي يزيد البسطامي بقي معه ثلاثين سنة فكان لا ينقطع عن مجلسه ولا يفارقه فقال له يوماً يا أستاذ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم النهار وأقوم الليل وقد تركت الشهوات، ولست أجد في قلبي شيئاً من هذا الذي تذكر البتة وأنا أؤمن بكل ما تقول وأصدقه فقال له أبو يزيد ﷺ:

لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ما أراك عليه لا تجد منه ذرة قال فلم يا أستاذ؟

قال: لأنك محجوب بنفسك.

قال: أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب.

قال: نعم ولكنك لا تقبل ولا تعمل.

قال: بل أقبل وأعمل ما تقول.

قال له أبو يزيد: اذهب الساعة إلى الحجام وأحلق رأسك ولحيتك وأنزع هذا اللباس وأتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة واملأها جوزًا وأجمع حولك صبياناً وقُل بأعلى صوتك: يا صبيان من يصفعني صفعة أعطه جوزة وأدخل سوقك الذي نعظم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك فقال يا أبا يزيد: سبحان الله أيقال لمثلي هذا وتحسب أني أفعله، فقال له: قولك سبحان الله شرك فقال له وكيف؟

=

فقال أبو يـــزيد: لأنك عظمت نفسك فسبحتها.

قال يا أبا يـــزيد: لست أقدر على هذا ولا أفعله ولكن دلني على غير هذا حتى أفعله. فقال له أبو يـــزيد: ابدأ بهذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ثم بعد ذلك أعرفك بما يصلـــح لك.

قال: لا أُطيق هذا.

قال: إنك قد قلت أنك تقبل وتعمل وأنا أعلم أن لا مطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة فحينئذٍ تخرق له العوائد وتظهر له الفوائد انتهى.

وكذلك قصة أبي عمران البردعي مع شيخه أبي عبـــد الله التـــاودي بفـــاس من حَلق رأسه ولبسه جلابية، وأخذه خبزة ينادي عليها من يخلصها ففعل جميع ذلك، وكذلك قصة شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن المجذوب من أكله التين عند أشجار الناس وغنائه بالأسواق وخرابه بالقصر مشهور حتى طوفوه بها مرارًا، وكـــذلك قصة سيدي علي العمراني، فخرابه بفاس مشهور كنارٍ على علم سكن السفليات حتى مات ﷺ، وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاي العربي من لبسه الغرارة وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال، فذلك هو عين الظهور عند المحققين وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق ﷺ: تحقيق النفس بوصفها الأدنى وشعورها به أبدًا، ووصفها الأدنى هو الذل وكل ما يثقل عليها فمرجعه للتحقيق بوصف التواضع، وفائدته: تحصيل العمل وكمال الحقيقة انتهى.

فإن قلت في فعل هذه الأحوال التعرض لكلام الناس، وإيقاعهم في الغيبة.

قلت: هذا مبني على القصد والنية وكل من فعل شيئًا من ذلك فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه وهم مسامحون لمن قال فيهم عاذرون له قال سيدي علي في كتابه: نحن نعذر من عذرنا ونعذر من لم يعذرنا.

وقال الشيخ زروق ﷺ:

في قواعده قاعدة حكم الفقه عام في العموم لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته، وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك فمن ثَمّ صح إنكار الفقيه على الصوفي ولم يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه في الأحكام لا في الحقائق انتهى.

وقال أهل المعرفة: لا تصير الأبدال أبدالاً إلاَّ بأربعة: الصمت، والعزلة، والجوع، والسهر.

وعمدة الأربعة وعمودها ومركز دائرتها العزلة والخمول؛ إذ لا يحصل الصمت والجوع والسهر إلاَّ بالمجانبة، والبُعد عن الإخوان السوء، وأهل المخالفات، وملازمة العزلة والخمول في سائر الأوقات.

فالزم الخمول أيُّها الأخ، وافن عن صفاتك؛ لعلَّك تظفر بتحقق العلوم، وينكشف لك عن ذلك.

١٢٤- اضمحلال الرسوم وفناء العلوم لتحقق المعلوم.

فيه إشارة إلى مقام الغنى، وغاية ما يصل إليه السالك من ارتشاف كئوس رحيق هذا المعنى أنه لا يزل في إقبال على مولاه، وإعراض عمن سواه، متدرعًا حقيقة لا إله إلاَّ الله، متمطيًا بمطية محمد رسول الله، حتى يغني عن نظرة الخلائق، وتذهب العوائق والعلائق، وتضمحل الآثار والرسوم، وتنمحي الإدراكات والعلوم؛ لتحقق العلوم الذي به يوجد كل معدوم، وهو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

فإذا ظهرت شمس سماء القلوب أفنت نجوم الرسوم والعلوم، وذاب بها كل ما لا يذوب، فانهض أيُّها الأخ إلى هذا المقام بهمة علية، وتأمَّل ما أنعم به مولاك عليك، وارجع إليه إذًا لشكره قبل أن يبتليك، ويسلط عليك من لا تقدر عليه من البلية، سنته ﷻ استدعاء العبيد بسعة الأرزاق، ودوام المعافاة؛ ليرجعا إليه بنعمه، وإن لم يرجعوا ابتلاهم بالبأساء والضراء؛ لعلهم يتضرَّعون؛ لأن مراده ﷻ رجوع العبيد إليه طوعًا أو كرهًا.

العبيد على قسمين: عبيد الرغبة، وعبيد الرهبة، فعبيد الرغبة يرجعون إلى

=

تنبيه: هذه الأدوية التي ذكرنا إنما هي في حالة المرض وأما من تحقق شفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه.

وفي هذا قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، وعبد الله سواءٌ عليه أظهره أم أخفاه انتهى.

وانظر: إيقاظ الهمم (شرح الحكمة: ٢٥٩).

مولاهم بشهود نعمه عليهم، ودوام معافاته لهم، عالمين بأن شكر النعمة يقتضي المزيد، وأن العبد ليس له إلاَّ الرجوع إلى باب مولاه، وانقياده له انقياد العبيد.

وعبيد الرهبة لا تزيدهم النعم إلاَّ تماديًا في الطغيان، وبُعدًا من الرجوع إلى باب سيدهم، وانهماكًا في العصيان، فجرت سنة الله ﷻ أن يدعو الجميع لسعة الأرزاق، ودوام المعافاة؛ ليرجعوا إليه بنعمته؛ معاملةً لهم بالفضل، وإسباغًا عليهم من واسع رحمته، فإن رجعوا كما هو شأن عبيد الرغبة كان ذلك سببًا لسعادتهم، وتمَّت لهم إشراف الصحبة، وإن لم يرجعوا كما هو شأن عبيد الرهبة ابتلاهم بالبأساء والضراء؛ لعلهم يرجعون، وجرهم بسلاسل الرهبة إلى دخول الجنان، وهكذا شأن الطبيب العارف بأدوية المرضى، يعالج المرض أولاً بالأدوية السهلة الملائمة للطبيعة، فإذا أفاد وإلا أعاد علاجها بالأدوية القوية القاهرة للعلة.

فاجتهد أيُّها الأخ أن تكون من القسم الأول، راجعًا إلى باب مولاك، شاكرًا لما أنعم به عليك، ورزقك وأعطاك، وإيَّاك أن تكون من القسم الثاني، فتنظر إلى الأكوان نظر شهوة، فتقف عندها، وتكون من المبعدين، وتبوء بالحيرة، وتكون يوم القيامة من الخاسرين.

١٢٥- من نظر إلى المكونات نظر إرادة وشهوة حُجب عن الغيرة بها، والانتفاع بها.

لأنه إذا نظر إليها نظر إرادة وشهوة وقف معها، وسكن إليها، فيحجب بها عن العبرة بها، والانتفاع بدلالتها، بخلافه إذا نظر إليها نظر اعتبار، وجعلها دليلاً له، ومعراجًا يرتقي لغالي حضرة الأنوار، كانت براقًا يرقى به إلى مسراه، ويتحقق به ما يتوقعه من كمال عبوديته، وإقباله على مولاه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١]؛ لأن النظر لما فيهما يوجب الاعتبار، وتقتضي مجاورتهما، وعدها من الاعتبار، والنظر إليهما يقتضي الوقوف معهما، والسكوت إليهما، وهو عين البُعد والحجاب بهما.

فاجتهد أيها الأخ في ألا تنظر إلى الأكوان إلا نظر أولي البصائر والاعتبار، لا تركن إلى شيء من أعمالك، واسبح بنفسك في محبة مولاك؛ لعلك تكون من الشهداء في تلك الدار.

وسُئل عن قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨]، قال: بأعمالكم وأحوالكم.

فالشهيد يشاهد حاله فينظر به، والميت يشاهد عمله فيقتله ويكربه، فهذا بالقبول والرد مخوف، فذاك بالرحمة والغفران مستبشر ومشرف.

هذا التفسير منه ﷺ من التنـــزل الذي أشار إليه أول الكتاب بقوله: والتنـــزل باقٍ إلى يوم القيامة.

وحاصله أن المحشور إليه تعالى يعمله على قسمين: ميت، وشهيد.

فالميت يُحشر بعمله وهو ناظرٌ إليه، والشهيد قد بذل مهجته لمولاه، وخرج عن كل محبة في الله، قد غمره الحال، وعمَّه النوال، فهو يُحشر مشاهدًا لجماله فيطربه، والميت يُحشر مشاهدًا لعمله فيكربه ويتعب، فهذا بالقبول والرد مخوف؛ لنظره إلى عمله المخوف بكل وصفٍ مزيفٍ، والشهيد لما تجرد وبذل الروح مما القبضة والعسجد فهو بالرحمة والغفران مستبشرٌ ومشرفٌ، لما حلت عليه من العنايات، وغمره من الفضل الذي لا يُوصف.

وفي تفسير هذا إشارة إلى أن من نظر إلى عمله، واعتمد عليه فهو ميتٌ، ومن رفع همته عن ذلك و لم يشهده و لم يسكن إلا إلى مولاه، وأفنى ذاته وأوصافه و كل ما له في محبة الله فهو شهيدٌ؛ إذ الميت عند أهل المعرفة ميت القلب، والشهيد هو الذي صحَّ فناؤه عن السوى، وتمَّ له القُرب من الرب.

فاخرج أيُّها الأخ من أوصاف بشريتك عن كل وصفٍ مناقض لعبوديتك؛ لتكون لهذا الحق مجيًا، ومن حضرته قريبًا، فتأخذ حينئذٍ عن مولاك، وتبلغ عنهم، وتمشي على الصراط المستقيم، الذي لا نجاة إلا بالسلوك منه.

١٢٦- **قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ قال: للاستماع عنه والتبليغ عنه.**

وقال الله أيضًا: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾: **الدلالة عليه، والتبرؤ من الحول والقوة.**

الصراط المستقيم، هو التحقق بمعنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[الفاتحة:٥]، وهو القيام في الظاهر بأحكام الفرق، والتحقق في الباطن بمقام الجمع، مقام أهل اليقين، فمن تحقق بذلك وارتشف من كئوس مدامه، هنالك سمع من الحق، وبلغ عنه، أو دلَّ عليه، ويتبرأ من حوله وقوته إليه، فلذلك فسَّر هذا العارف الصراط بما هو النتيجة والقصد الأعظم من هذا المنهل العظيم، فكان الصراط المستقيم هو هو لا سواه؛ لأن اللب وما سواه كالقلب له يحفظه ويرعاه، كما قال ﷺ:

«**الحج عرفة**[(١)]»، ومن فهم بلاغة هذا الحديث فهم بلاغة كلام هذا العارف[(٢)]، فلله دره ما كان أبلغ كلامه وألطفه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧/٣)، وابن ماجه (١٠٠٣/٢).

(٢) قال سيدي عبد الحق ابن سبعين في رسالته في عرفة: فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وهو حديث انفرد به هذا الرجل من الصحابة، إلا أنه مجمع عليه، واختلفوا فيمن وقف بعرفة بعد الزوال، ثم دفع منها قبل غروب الشمس، فقال مالك: عليه حج قابل، إلا أن يدفع قبل الفجر، وإن دفع منها قبل الإمام وبعد الغيبوبة أجزاه.

وبالجملة فشرط صحة الوقوف عنده هو أن يقف ليلاً، وقال جمهور العلماء: من وقف بعرفة بعد الزوال فحجه تام وإن دفع قبل الغروب، إلا أنهم اختلفوا في وجوب الدم عليه، وعمدة الجمهور حديث عروة بن مضرس، وهو حديث مجمع على صحته قال: أتيت رسول الله ﷺ بجمع، فقلت: هل لي من حج فقال: «من صلى هذه الصلاة معنا ووقف هذا الموقف حتى يفيض و أفاض من قبل ذلك من عرفات ليلاً و نهارًا فقد تم حجه وقضى تفثه»، وأجمعوا على أن المراد بقوله في هذا الحديث «نهارًا»، أنه بعد الزوال، ومن اشترط الليل احتج بوقوفه بعرفة ﷺ حتى غربت الشمس.

لكن الجمهور أن يقول إن وقوفه بعرفة إلى المغيب لما روي من حديث عروة بن مضرس أنه على جهة الأفضل، إذ كان مخيرًا بين ذلك، روي عن النبي ﷺ، من طرقٍ أنه قال: «عرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرفة، والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر، ومنى كلها منحر وفجاج مكة منحر و مبيت».

واختلف الفقهاء فيمن وقف من عرفة بعرفة، فقيل: حجه تام وعليه دم، وبه قال مالك، وقال الشافعي: لا حج له، وعمدة من أبطل الحج النهي الوارد عن ذلك في الحديث، وعمدة من لم يبطله أن الأصل أن الوقوف بكل عرفة جائز، إلا ما قام عليه الدليل، قالوا: و لم يأت هذا الحديث من وجهه يلزم بهذه الحجة والخروج عن الأصل، فهذا هو القول في السنن التي في يوم عرفة.

=

وأمَّا الفعل الذي يلي الوقوف بعرفة من أفعال الحج، فهو النهوض بعد غيبوبة الشمس وما يفعل بما تركناه لكونك لم تسأل عنه، ومن الناس من يريد جوابه أن يكتب مطابقًا ولا يكون زائدًا ولا ناقصًا ولا معدولاً، ولعلك كذلك، والحكيم ينظر في المصالح النافعة المدبرة المفيدة وبحسب الحق و المحق الواقع في الوجوه بعد إذا لم يجد ذلك من جهة المخاطب القريب، وهذا أجل و أكمل بكثير من الأول، والأول يصرف في الجدل، وفي بعض العلوم النظرية قال له أول الوجه الأول لا حاجة لي بعد ذلك، وانصرف وسلم بعد ما علم، و اعترض الرجل المتوسط في ذلك الوجه عليهم فقال له: لأي شيء أنت أكبر و لم يظهر بماذا، وهذا الاسم لن يصح لك إلا على الزيادة، و بعد لم تظهر فافتح ما وراء العادة، وحرز طريق السعادة وما يحمد من العبادة وأنَّا نؤمن بجميع ما تذكر و نغتبط، قال: الإسعاف سيرتي، والإنصاف شرف سريرتي.

اعلم أن هذا اليوم وهذا الموضع وهذا الوقت وهذه النية في هذه العبادة من هذا العابد استدعاء ما في القوة من الكمالات، وما من أجله وجد التكليف لكي يبصر داخل الذهن، أو يحرر من عالم الملكوت ويحصل للنفس حضورها المنسوب إلى ضمير المكلف حتى يطلع على الأرواح المفارقة ويتوجه إليها، ويثبت بالآنية بعد ما طاف حول الهوية، ويستروح نفحات القرب، ويرسل قصده بالتذلل إلى الجلال المبصر بالماهية المضافة، وهي هي بعد ما كانت تظهر على مظاهر خفية، فيلحظها الذهن ويهرول، ثم يغيب عنه فيسكن، ويجتمع بعد ما كان قد تبدد في الأفعال، ويعامل المقصود بالمباشرة الخبرية، ويقيده بحقيقة الكنه المشترك، وينظر نكتته التي تكفيه مرض العادة، ولا يمكن معها الطلب على الأول؛ لأن تلك الذنوب كانت تقال على الهوية المبعدة بالمغايرة، قال له المتوسط المذكور: قد أخذت قصدي فكف عني ما وراء ذلك، فإن المؤمن لا يصلح به أكثر من ذلك إذا كان من المحسنين فالقوة و القصد و الاستعداد.

قال له: هو الكلام على العموم من جهة المضاف فقط، وهو بحسب الرجال، ومن حيث المراتب، وها أنا نخبر أخر ذلك على الوجه بذلك كله، ونحسن إليه فإنه في مقام الإحسان، وقال تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن:٦٠].

فنقول: يوم عرفة هو اتصال النسب، وقطع لواحق السبب و الخروج عن ذل الأغراض المهلكة، والدخول في العالم الأعلى بالجوهر، ومشاهدة أول علامات الحد، والتعرض إلى نفحات خيرات المطلع حتى يبصر أو ينبصر أعني: يبصر بالجوهر المعني المقوم لوجوده، أو يعلم ذلك

=

أنه كذلك، هذا إذا كان أمره بالوجه الأكمل، وأمّا إذا كان بغيره الأنقص فيكون على جهة الشعور، أو يكاد يظفر بالسكينة الوهمية، قال له: تكلم بما يجب لك ومن حيثك، فإنك تكلمت بما عندي و بالوجه الذي نعلمه، و لم نفقده قط، قال لا طاقة لك على ذلك كله إلا به، وهو قد خصص وخلص و عين، لا أنه أهمل و استدرج، ودبرك تدبيرك المريد، وحرمك نور المراد، قال له: تكلم بحاصلك القريب مني بالمرتبة، فإذا فعلت ذلك اتركني مع المنعم فلعله يعلم ويلهم ويفهم ويقرر، والغرض منك الكلام عليها من كل الجهات وتطلع الكلام عليها حتى إلى عالم، ثم إلى القريب مني فقط، قال له المذكور: عرفة هي وظيفة شرعية، قال له: هذا قد علمته، قال له: عرفة اسم موضع، وهذا الاسم وضع بإزائه، وقد قيل أنه من الأسماء المستعارة، أو من المشتقة، وقصة آدم مشهورة، وتاريخ الخليل كذلك، وجميع ما قيل في هذا الاسم، وفي هذا الموضع وفي هذه الوظيفة هو من هذا القبيل، وقد قيل أنه من أسماء المرتبة التي يظفر بها هناك، وقد قيل أنه من أسماء الوقت.

وقد قيل أنه أخذ من بعض لواحق المعرفة وغير، وقد قيل أنه كان جوابًا من أحد الرجال لآخر حين سأله عن الحاصل في ذلك، وعن المدرك من الإنسان الكامل هل عرف معلومه على ما يجب في ذلك الموضع، وبحسب هذه العبادة، قال: نعم، عرفه، وقد قيل أنه من أسماء النفس، وقد قيل أنه من المنازل المستقيمة، وقد قيل أنه من أمثلة التجلي[٢]، وقد قيل أنه من فصول المواقف المحصلة للمطلوب على العموم، وقد قيل فيه أنه قضية الفيض والتخصيص، وقد قيل أنه حكاية السالك الأول في الأرض المتشبه بحكاية الأول في السماء، وقد قيل فيه إنه زمان نصيب السعداء، وقد قيل: إنه بشارة واردة في دار الغرور، وقد قيل أنه من خواص الأنبياء، وقد قيل أنه في الأمور العملية مثل الحروف المرسومة في أوائل السور.

قال له: قد علمت ذلك، وقد خرجت عن المراتب الخبرية والخلقية الخاصة والعامة، قال له: فأنت تسأل عن وزنه وفعله، أو عن تصحيفه وقلبه، أو عن مثاله أو حكمه، أو عن فائدته المشتركة، أو عن علته، أو عن اسمه، أو عن واضعه، أو عن جملته؟ قال له: جميع ما تصف لا حاجة لي به، ولا يمكنني البحث فيه من حيثك، وإنما يجب البحث فيه من جهة الأعلى فقط، فقال له: صدقت يوم عرفة من أنواع التصريف و الخواص الفعالة، وفيه الكشف الكريم، وهو من الأسماء المرسلة، وله علامات لا يعلمها أحد إلا الله، والمعلوم الذي وهبه هو تعلقه المنسوب وخلاصه المحسوب.

قال له: صدقت، غير أن الأمر الذي نريده منك غير هذا، قال له: عرفة من الوظائف السببية

=

=

المنحطة بعد وجود لازمها، ويكون ذلك اللازم مما قد عرفته من حيث هي حكمة لا من حيث هي عبادة، ثم الفتح بحسب الصدور، وهو فيها على عدد المصادر، قال له: صدقت، غير أن المطلوب عندي أجل من هذا، قال له: عرفة قضية التطور الخامس، أو سببها في ذلك، فإن كانت في الحس وصحبة أعراض النفس الحيوانية والمحرك العقل و القوة المشتركة كانت من قبل التوجه الأول الذي يكابد الأوهام المعوجة، وإن كانت في الأفضل وبحسب الأفضل، وعلى هذا النوع المذكور كانت من قبيل الأوهام الخالصة القريبة المستقيمة، وإن كانت في مظهرها الثلاثي الذي لا خير فيه إلا إذا نظر إلى عاقبته و فائدته الكلية، فهو الخير المحمود عند صم أهل الكمال الأول قبل تمام شروط الخلافة المعللة.

وإن كانت من النقط الواقعة من حضرة قوانين الموجود المعروف بذلك، وهي ذوات تلك وفيها صفات؛ بل هي وجه وسيلة قدر وسيلة الوسائل في أنا، وإن كانت من ظل المنسوب له من إضافة به برابط عنه فكنهه دون الملكة وفوق الحد الأصغر بفرض ما ينصرف إلى أمثلة الاستفهام، والعين متعددة بعد فهم وحدة الوجود ووجودها عنده، وإنما كان ذلك لكون الأعداد تقرب القطع بالماهية المبحوث عنها بالنصيب.

قال له: قربت في ذلك فتمم، قال له: عرفة هي الحركة الكلية الواقعة بالمعنى الأكمل على المألوف الأعلى الأكبر، ولذلك أقيم مثالها الطبيعي في عالم الطبيعة على الأقل وبحسب الضعف في الضد لكي يستجلب في حال قبضها نصيبه، فهو يطلب بشبه التوجه و ذلك بجد، فتحدث من حال الواجد الحركة، ومن حيث المستجلب السكون، قال له: قد كشفت وبينت فكف عني، قال له: بقي المحق المخاطب، بل هي السكون والمثال على أحسن هو على ما هو الأمر عليه من نفسه، فإن الجليل يعطي.

والقابل على ضربين: قابل يقبل، وحينئذ يقبل وأخر يسكن، وبعد ذلك يجد، والأول يتحرك بـ المألوف ما اعتبر فيه أنه المعتبر فنهض، وذلك لأجل النصيب الحاصل له من غير أن يخرج من التوقف المتابع الذي يطعن في الماهية الراجعة المعتبرة بماهية وهمية هي الأصل في تحصيب فيها، وفيها ذلك، والثاني يبعث عنده الأمر فينبعث له وما منه به وما به منه وهذا له من ذاته، وقد ذكرنا مفهوم هذا الأمر في «الرسالة الحكيمة»، وكل ماهية يلحقها الزائد فعلى أنها تابعة، فإن كانت على طريق التبدل فالأمر في أول الجلالة، وإن كانت في وسطه فهو في الوسط، وإن كانت في الآخر فهو في الآخر.

وجملة الأمر لا يعتبر المعتبر إلا مظهر المعتبر، ولا كل المألوف بل المألوف الذي تستند به

=

الصفات ويكون لها كالمظهر وهي عنه في الماهية الموصلة، كأنها الآلة الطبيعية الثابتة في الشكل، وهو صور الأصوار، و طور الأطوار، وسور الأسوار، ودور الأدوار، والله هو المولى والله هو الأولى، والله هو الأعلى، والله هو الآخرة والأولى، والله هو الحليم، وهو الحكيم، وهو العليم.

فلمَّا فرغ من هذا الكلام التفت للوجه الذي يليه فقال له: علمت أنت هذا؟ قال: نعم، ولكنه لا يقنعني، قال له: حب الوجود المضمار في الأمور الشريفة مضمار ثان وشرف أكمل.

قال له: صدقت فعلم وفهم ولازم دعوة الحق وأهله، وبحسب هذه الأحوال يظهر المقصود في الجميع، قال له: عرفة هي الإضافة المتوحدة الناشئة بين الواحد والوحدة فقط، وهي التشفع القائم بين الأحد و التوحيد، قال: كان ذلك فكف، قال له: أمَّا من جهتك فنعم، وأمَّا من جهة الحق المخاطب بالقوة، فلا يمكنني ذلك، قال له: شأنك والحق ومخاطبة أهله.

فلمَّا فرغ قال للذي يليه: اعلم أن عرفة هي الاستخارة التي تنشأ بين العبد الأصم، وبين الأستاذ الراجع، وهي التي تصدر من أهل الهويات في السموات والأرض، وهي المواقف المجرورة الممتدة، وهي العجز الظاهر بعد الحصر الذي يجرد الماهية للوحدة المحضة أو للنقطة أو للقضية، أو يرسم الذوات في الذهن المغايرة وغير المغايرة، قال له: صدقت وقد فهمت فكف.

قال له القول الأول، ثم التفت إلى الذي يليه، وقال له: عرفة هي مكنة محصلة في العالم الموكل به المتمم المحسنة لخلافتها حتى كانت أو كادت، قال: كان المطلوب، ثم قال للذي يليه: عرفة هي العين الجاحدة لجميع الدول بالمضمار المهملة لأكثر الملل، وهي المتقدمة على الوظائف المحصلة، وهي ثمرة التركيب، قال له: كان ذلك، ثم التفت كما جرت عادته، وقال له: عرفة هي النور المبثوث في الوحي بعد الملك، وقبل الملك، ومعه، وهي الحق الراغب، والباطن المرغوب، و بالعكس.

قال له: صدقت فكف، ثم التفت إلى الذي يليه، وقال له: عرفة هي كل خط لا يصح له الوقوف، ولا يفوته التقوس في وضعه، وكل دائرة لا محيط لها في الذهن، ولا في خارجه، ولا يلزم المحال فيها، قال له: صدقت فاقطع، ثم التفت إلى الأخر، وقال له: عرفة هي توبة لواحق الخليفة، وخلة كشف التركيب، وعلة حب الوسائل، قال له: صدقت، ولا أستطيع على أكثر من هذا. ثم جمع الجميع في حضرة خليفة المألوف، وقال لهم: أ عرفتم من عرفة؟ قالوا له: جملة أحكام، و بعض خواص و حقيقة واحدة، قال لهم: ما الأحكام؟ قالوا له:

ثلاثة: الأول منها التدبيري، والثاني الإضافي، والثالث الجاحد المشوق الكاشف بذلك ذلك.
قال لهم: فما هي الخواص؟ قالوا له:سبعة: الأولى منها:
معرفة الخاتمة التي جهل الصم أمرها، و الوجه الأول، والثانية: كشف أسرار الارتباط، والثالثة: حصولها ماهية، والرابعة: الاطلاع على ذلك في حضرة الأمر حيث تظهر علل الأحكام، وعيون الحكم، ومقر الأرواح الوهمية، والخامسة: تحصيل الفروق المهلكة القاطعة المعللة، والسادسة: يحصل بها إدراك الأمور الشريفة في الماهية حتى أن الشيء الذي يبصره الناس في المنام يبصره هو في اليقظة، والذي يتعلمه الغير أو يعلمه من جنس المعلومات المبحوث عنها بالأقيسة يلحقه هو بذلك النوع الخارج عن قبيل العلوم المألوفة، والقوة الطبيعية التي يقدر بها الإنسان ويفعل المحمولة على أعضائه الشخصية التي هي شبه الآلة لها تقوم هذه الخاصية مقام جنسها؛ بل هي أفعال وفعلها أثبت، فإنها تفعل في الحال و بعده، وقد يلزم المنفعل عنها بقاء أثرها فيه فاعلم.
وكذلك ما يعمله الرجل بجاهه ومكانته هي أقوي و أفضل، فاعلم ذلك.
والسابعة: نيل أصلها الواقع بالفعل ومن حيث ما يعلم من معاملة الله له، والواقع بالقوة من حيث مكانتها، وقد يدرك ذلك بعض الرجال دون الخاصية المذكورة، وهو لا يحمد، فإنه بغيرها لا عاقبة له إلا بالعرض أو في الأكثر، و حالها هي بضد ذلك؛ لأنها من المألوف الحاصل أو المعتبر المحصل، والحقيقة هي بوجه ما الخبر الذي يحصر العدد للواحد و يصرفه إليه، و الواحد للوجود، و الوجود للموجود الذي يقال عليه بحسب هذا الاصطلاح أنه الوجود، و الموجود الذي يكون الوجود زائدًا عليه، وتكون الوحدة معه بمثل هذا القول وهي عندهم بوجه أخر أكمل ماهية لا تنفك عن نظائرها اللاحقة، فهي فيها ذاتية لا أنها تحصرها حصر الكلي لما يحمل عليه أو الجنس لأنواعه، وهي لا يعرض لها شيء، ولا تتغير هي به، أعني بما هو بها، أو من حيث هي هي، وهي عندكم بوجه أخر أجل من الذي ذكر قبل.
فهي الآن ذات تخدم، وكانت في بعض الوجوه مخدومة في الحال الذي تبصر الأشياء مفتقرة إليها، ولا شيء يفعل بعدها إلا بما يسري له منها، والآن قد انقطع المنتسب والنسب و الروابط، وبالجملة ظهر لكم أن معلومكم أو مدرككم أو ماهية ماهيتكم أو ذلك اللازم، أوذلك البد الأول في ظاهركم بما هو باطنكم، و في أولكم بما هو آخركم، في مظهر لا ينفعل عن ذات، و لا هو ذات حاصلة، وأنه هو الذي يخف الوهم عنده بل ينقطع.

=

وهذا المظهر هو ذات المعنى الذي ينصرف إلى بدء. ولا يخبر إلا حقيقته، أعني: الله الذي يتجلى لنفسه أعني: الذي استجاب في الكل، ولا كل يعتبر معه بالمعنى الذي تقدم من الكلام في الواحد و الوجود، وحاصل هذا كله مطلب ما هو ذل، وهل هو كل، ولم هو كل، وأين هو على، ومتى هو زل، وكيف هو هل، وأي هو خل، ومن هو هل، والبرهان شل.

وبلغتم الكلمة و الكون على جهة الملكة والنور من جهة الخال والتركيب الأكبر، قالوا له: صدقت، قال لهم: الأمر أعظم، وشأن الله أعلى من أن تأخذه علوم الصم، أو حقائق الوجود المذكورة أو همم الأقطاب، ولو علمتم ما أعلم لكنتم نحو الصواب في البعد والقرب، وإهمال الغايات غاية والنهايات نهاية، وجلال الله لا تفهمه العادة ولا يجهله بعض أهلها، ثم عزم وعزموا، وأمر فامتثلوا، وقال ففهموا، وكان وكانوا، وهم وهموا وهاموا، وأراد وامتنعوا وفعل وكفوا، وذكر وأنكروا، وخطب بماهية الوقت التي هي خليفة القضية الجامعة الحاكمة.

وقال الحمد لله الذي جعل عرفة من أسماء المواطن الرحمانية، وزمانها قربة الاعتدال، ومكانها نوره الواقف، وحكمها برهانه المتلو بلسان السنة الإلهية قبل سنتها الربانية الحاكمة في عالم الخلود المكتسب، والحمد لله الذي جعلها تشعر بشمائل الظاهر السابع، وتعظم السادس الماحي، و تحرر قصد الأولياء في ورقة الأسباب.

والحمد لله الذي فرضها بعد نكال، وقبلها كذلك، وربطها بضد ذلك، وجعل عاقبتها تجر إلى حكم اتباعه، يا هذا، قد أهملت الارتهان، وحادت همتي عن طريق المطلوب الذي زعمت قبل هذا، وإنا نـــزعم بأكثر منه، ونجدد الاصطلاح الذي يخصني، فنقول: هي عقدة رأس آخر العبادة السيئة، بل هي النية، بل هي العقل، بل هي القصد، بل هي الأمر، بل هي العين، بل هي التذلل، بل هي الزيادة الصاعدة، بل هي من قبيل الألواح، بل هي من قبيل فتح الماهية المغلقة التي لا يفتحها إلا الله العليم، بل هي سبب فتحها، بل هي أس السلامة منه، بل هي بد كما فيه، بل هي شهادة الله، بل هي عين أمره وعلمه وسائر صفاته، بل عندها يصل إليه المعتدل و يعد ثلاثة أخبار و يفرض الأسماء الكاشفة لسائر العادات المنجرة العالية بعد أمر الله عند جوهرها بالأمر الذي يجمع على أمور، ويحفظ بالأمر الذي يجمع على أوامر.

ومفهوم ذلك من أخبر عن حقيقته بالحق، وكان ذلك بالقوة الغالبة التي يجد الإنسان فيها ضميره كأنه يتكلم و يفعل مع السكوت، و في حال السكون.

=

=

ومن قبيل هذا الأمر هو الذي يجده بعض هؤلاء الصوفية، فيقول: ليت كذا، وفعلت كذا، وهذا لا يلتفت إليه من علم الحق؛ لأنه من جنس الأحوال الكاذبة، وكان هذا الخبر أو ذلك الخبر انتهى تصريفه حيث انتهى خبره مثل ما يقوله الصم في سعيدهم إنه ينتهي حيث ينتهي علمه، وهذا هو البراق المكنون، و المقام الكامن الذي هو في جميع الناس، وهو الفصل الصحيح عند الخاصة أعني: فصل الإنسان من غيره لا الفصل الذي يقول له علماء الصم، فإن ذلك مدخول الحد، وهذا هو الفتح المبين أعني: فتح الماهية الذي يحيط بما يخبر عنه، وقد يحيط بأكثر من خبره وفتحها أن يكشف له منها جميع ما يريده، ولا يشق عنها لا عنه في الوجود، أو في الذي يريده شيء.

وأمَّا الفتح الذي يفتح به على الإنسان في صدره، أو في ملكه وعادته أو في تصرفاته كلها، أو في منقلبة، وبالجملة الفتح الذي يملك به السر الإلهي والسر الطبيعي، والظفر بالسلامة من كل الجهات ما هو هذا الذي أريده، فإن ذلك كله خارج من ماهيته، وأعوذ بالله من الفرح بغير النصيب، وبنوع منه قيل للخليفة خليفة، والنصيب هو أن يقول الحق يتولاك بقصد الرضا، أعني بفتح، فترى الامتداد الذي يسع البشرية، لا أنه يجعل فيك من المعلومات الجزئية التي لا يعلم في وقت ما نيلها الإلهي، وشاهدها في المواد الطبيعية و بحسب ضرب الأمثلة مالك الكليات، ومالك سببها، ومالك حفظها، ومالك ما يقدر فيها، وهو مع ذلك في العالم المفارق.

ومالك الشخصيات وهو في عالم الطبيعة، أو الشخص الذي يبصر من قصبة مجوفة وتكون بحيث لا يبصر إلا لمقابل لها، ويكون ذلك في وقت واحد، والإنسان الذي يبصر على الإطلاق، ويرفع المانع أو الشخص الذي يدفع له الحكيم من بعض دراهم تصريفه العلمي، وبأخر يدفع له السر الذي به يفعل، والذي به يحفظ، والذي به استخرجه، والرجل الذي خلق أكمه، ثم فتح له في وقت ما فأبصر مبصرًا ما، وبأخر خلق يبصر ببصره و بصيرته و بالوارد.

فقل أعوذ بالله من الفتح الذي يشرح فيه الصدر، أو تفتح من أجله أبواب الجنة وتغلق من أجله أبواب النار، وإنما الفتح هو الأول، وهو المفهوم من قوله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، ولا شيء افتح من تحكم الصم على حبيب الله حيث قالوا: أراد الله بذلك الفتح فتح مكة، فلا هم صدقوا في المطلوب، ولا هم أنصفوا النصر، وذلك أن الله قد أخبر عن مكانته الشريفة التي بها يقول ويعلم ويفرح، والذي لا يسعه به

=

فاجتهد أيُّها الأخ في التبرؤ من الحول والقوة؛ لعلَّك تظفر بمقام القرب والمشاهدة، وتنال ثمة مما لديه.

١٢٧- أنفع الكلام ما كان عن مشاهدة، أو إنباء عن حضور.

لأن كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، فكلامه يبرز وعليه أنوار المشاهدة والحضور، كيف لا ينفع القلوب؟! وكيف لا يورث السرور والحبور تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل النعيم، فقلوبٌ وصل إليها أنوار العارفين أولاً، ثم يصل إليها كلامهم ثانيًا، كيف لا تتناثر وينمو غراسها، وكيف لا يورق بشابها، وكيف لا يخضر له ساقًا.

فاجتهد أيُّها الأخ في ملازمة الذِّكر والحضور؛ لعلَّك تجذب جذبة تغيبك عنك، وتصير بها من أهل المشاهدة وأرباب الصدور.

١٢٨- الذِّكر: ما غيَّبك عنك بوجوده، وأخذك منك بشهوده.

الذِّكر: شهود الحقيقة، وخمود الخليقة.

إذا غيَّبك عنك بشهوده فهذا غاية مراتب الذِّكر كما تقدَّم، وهو عين شهود الحقيقة وخمود الخليقة؛ إذ من شهد الحقيقة خمدت خليقته، ومن خمدت خليقته فنيت أوصافه، وغابت عنه بشريته، وكل ذلك من فوائد ذكر لا إله إلاَّ الله، والتحقق بآداب معنى محمد رسول الله.

فاجتهد أيُّها الأخ في غرس: (لا إله إلاَّ الله) في أرض قلبك، واسقِ هذا الغرس، وعله بمياه أنهار: (محمد رسول الله) تصل إلى ربك.

إلا التوجه المطلق؛ ولذلك كان آخر الأمر الكريم أول الأمر العزيز، ولو كان الذي ذكروه على الوجه الذي يقال فيه إن الزمان في حق الله لا يصح، وإذا أخبر أخبر عن معلومه، ومعلومه لا يفوت، ولا يتجدد عليه شيء، ولا ينظر إلى مطلوبه بالقوة، ولا ينتظره، ولا فقده قط؛ لكان الأمر قبيحًا بالإضافة إلى ما يريده، فكيف وعرفة عند جميع الأنبياء في غير هذه الصفة، وبغير هذه الحلية، وفي دون ذلك، وكذلك في السموات والأرض.

انتهى. وانظر: رسائل ابن سبعين (ص٥٣٨) بتحقيقنا.

وعليك يا أخي بالصمت والعزلة والجوع والسهر، فإنها تلين لك هذه الأرض، وتجعلها صالحة للغراس، وإيَّاك وكثرة الطعام والمنام والكلام، فإنها تقسي القلب، وتهدم ما بنيته من الأساس.

١٢٩- كثرة الطعام والكلام والمنام تقسي القلب.

لأن رقة القلب من صفائه، وصفاؤه يحصل منَ خلوه من الأغيار، وعدم مزاحمة الآفات، فإذا أكثر الشخص من الطعام تقوت النفس، وناغصت القلب، وكدرت عليه بوساوسها، وأظلمت نورانيته بكثرة شهواتها، فيغلظ ويقسو، وتذهب عنه تلك الرقة والخشوع ما يحصل بسبب الجوع، وكذلك المنام إذا أكثر منه الشخص، جذب صاحبه إلى الكسل والغفلة، وبها تحصل كل شهوة، وتنمحي بذلك عن القلب الأنوار، ويذهب صفائه، وتعتريه الأكدار، وتصير القسوة ملازمة له أناء الليل وأطراف النهار.

وأما كثرة الكلام فإنها العضال، والسم القاتل لفحول الرجال.

قال ﷺ: «**كثرة الكلام بغير ذِكر الله تعالى تقسي القلب، وأبعد الناس من الله القلب القاسي**[(١)]»، وذلك لأن كل كلمةٍ بما لا يعني بمنزلة نكش مصدئ في مرآة القلب، ولا يزال الصدأ يجتمع حتى يغشى جميع مرآة القلب، فيظلم نورها، ويذهب بهجتها وحبورها.

كما قال في الحكم العطائية: «كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ منطبعةٌ في مِرآتِه»[(٢)].

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ (٢/٩٨٦).

(٢) قال الشيخ ابن عجيبة: «يُشرق» بضم الياء أي يستنير ويضيء، «وصور الأكوان» أشخاصها، وتماثيلها الحسية والمعنوية، «والأكوان» أنواع المخلوقات دَقَّتْ أو جلّت، «ومنطبعة» أي ثابتة وانطبع الشيء في الشيء ظهر أثره فيه، و«المِرآة» بكسر الميم آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها، فكلما قَوِيَ صقلُها قويَ ظهور ما يقابلها فيها، واستعيرت هنا للبصيرة التي هي عين القلب التي تتجلى فيها الأشياء حَسَنُها وقبيحُها.

قلت: جعل الله سبحانه قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يقابلها وليس لها إلا وجهة واحدة، فإذا أراد الله عنايته عبد أشغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته، و =

فاجلِ مرآة قلبك يا أخي بالصمت وذكر الله؛ فإنك إذا صمت الصمت

=

يعلق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية والخيالات الوهمية، فانطبعت في مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان، .. أي وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه في كل شيء، فيصير قلبك قطب فلك الأنوار فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان، وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية، فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان، فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها، واشتد حجابها، فلا ترى إلا الحس ولا تتفكر إلا في الحس، فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية فتنكر وجود النور من أصله، وهو مقام الكفر والعياذ بالله ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها فتقر بالنور ولا تشاهده، وهو مقام عوام المسلمين وهم متفاوتون في القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه كل على قدر يقينه وقلة تعلقاته الدنيوية وعوائقه الشهوانية وخيالاته الوهمية.

وفي الحديث: «إنَّ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ، وإن الإيمان يَخْلَقُ»، أي يبلى «كما يخلق الثوب الجديد»، الحديث وفي حديث آخر:

«لكل شيءٍ مَصْقَلَةٌ ومصْقَلَةُ القلوبِ ذكرُ الله»، وقال أيضًا ﷺ:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نُكتةٌ سوداء، فإن هو نزع واستغفر صَقُلَتْ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الرَّان الذي ذكر الله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»، أو كما قال الطَّيِّلاً.

وإذا علمتَ أنَّ القلبَ ليسَ له إلا وجهةٌ واحدةٌ، إذا قابلها النور أشرقتْ، وإذا قابلتْها الظلمةُ أظلمتْ، ولا تجتمعُ الظلمةُ والنورُ أبدًا، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله: كيف يشرق قلب بنور الإيمان والإحسان وصور الأكوان الظلمانية منطبعة في مرآة قلبه، فالضدان لا يجتمعان قال الله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤]، فمالك أيها الفقير إلا قلب واحد إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق، فترحل من عالم الملك إلى الملكوت، ومن الملكوت إلى الجبروت، وما دمت مقيدًا في هذا العالم بشهواتك وعوائدك، فلا يمكنك الرحيل إلى ربك.

الحقيقي بلسانك وجنانك، كنت في عين الذّكر؛ إذ الذّكر طرد الغفلة، والغفلة الاشتغال بالأكوان، وهي النقوش الكونية.

ولذلك قال أحد العارفين: النقوش الكونية والخواطر هي الحجاب بين العبد وبين مولاه، فإذا انفصلت عنها وصلت، وهذا غاية الذّكر ولبابه أن تنفصل عن الأكوان وتدخل مقام الإحسان، وتنعش فيه بمشاهدة من هو كل يوم في شأن.

ولذلك قال أحد العارفين: إذا تجلّى الحق على القلوب على الدوام لولا حظك لانعدمت، وإنما يمنع من ظهور ذلك اشتغال القلب بالسوى، فإذا خرج السوى بلا إله إلاَّ الله أو بنحوها من الأذكار، وبجذبة إلهية ظهرت الأنوار، وحصلت المشاهدة والحضور، الذي هو مطلب العارفين من الأخيار.

فلذلك قال في الحكم العطائية: فرِّغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار.

ولا تتم لك أيُّها الأخ هذه الثلاثة إلاَّ بالالتزام أبدًا إلاَّ بهذه الأربعة: الصمت، والجوع، والسهر، والعزلة، فإذا أتقنت علم هذه الأربعة، وعملت بها فقد حققت وصلحت؛ لأن تزيل المنكر، وإلا فأنت من هذا المقام بمعزلٍ؛ لأنك لم تزله عن نفسك، فكيف يسمع غيرك قولك ويمتثل.

١٣٠- من أعرض عن تحقيق النظر لم يجب عليه إزالة المنكر؛ لأنه لم يتحققه.

الواجب على الشخص أولاً أن يحقق النظر فيما يجب عليه امتثاله، واجتنابه الأمر والنهي، فإن لم يحقق هذا النظر، فأعرض عنه لم يصلح لتغيير المنكر، فكيف يجب عليه ذلك؛ لأنه لم يتقِ المنكر في ذاته، وهو إعراضه عن تحقيق النظر المذكور، فكيف يليق به أن يأمر غيره بالإصلاح، ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة:٤٤]، ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف:٣]، فالماء إذا لم يكن طاهرًا في نفسه فكيف يصلح أن يكون مطهرًا لغيره، وكذلك الشخص إذا لم يطهر في نفسه فيزكيها من نجاسة المخالفات، كيف يصلح ويليق به أن يكون لغيره مطهرًا، أو بالمعروف آمرًا، شعر:

يَـا أَيُّهَـا الـرَّجُلُ الْمُعَلِّـم غَيْرَه   هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا التَّعْلِيم
ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَنْ غَيِّهَا   فَـإِنْ انْتَهَـتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيْم
لاَ تَـنْهِ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَأْتِ مِثْلَهُ   عَـارٌ عَلَـيْكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيْم

فاجتهد أيُّها الأخ في صلاح نفسك أولاً، وزكِّها بالمتابعة قولاً وعملاً؛ لعلَّك تقرب منه، وتصلح لمعرفته، وتفنى عن رؤية العمال، وتستغرق في مجمعه.

١٣١- لما لم يصلحوا لمعرفته شغلهم برؤية الأعمال.

السالكون على قسمين: قسمٌ جعلهم الحق من خاصته، وأهَّلهم للوصول إلى بساط حضرته، وكشف عن قلوبهم حجاب الغفلة، وأهَّلهم لمعرفته، وأسبغ عليهم ظاهر نعمته، وباطن رحمته.

وقسمٌ أقامهم في خدمته، وجعلهم ناظرين إلى أعمالهم، متمسكين بذيل محبَّته، غافلين عنه، متلذذين بعمل الجوارح، مستغرقين في الصيام والقيام، وكل عمل صالح متطلبين بذلك الحور والقصور، ومتطلعين إلى نعيم أهل الجنة، ولما أعد لأهل الأجور، ولكن شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور، وقومٌ أقامهم الحق لخدمته، وقومٌ اختصهم لمحبَّته، كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولذلك قيل: الطريق طريقان: طريق المقتصدين، وطريق المحققين، طريق المقتصدين للصيام والقيام، وترك الآثام، وطريق المحققين هجران الخلائق، وقطع العلائق، والاجتهاد في خدمة الخالق، ﴿**قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام: ٩١].

فلا تلتفت بقلبك أيُّها الأخ إلاَّ إليه، ولا تحط رحال عزمك، ولا تنخ مطايا همتك إلاَّ بين يديه، واحذر أن تكون فيك بقية لسواه، واخضع وانكسر لديه تكن عبدًا.

١٣٢- لا تكون له عبدًا ولغيره فيك بقية رق.

ما صلحت ما دامت فيك بقية لسواه، فإذا أزلت السوى أفنيناك عنك، وصلحت لنا، وأودعناك سرنا.

قال الجنيد ﷺ: العبد عبد، وإن بقي عليه درهم حقًا، لم يتحقق السالك

بحقيقة لا إله إلاَّ الله، ويفني عن المال والجاه، ويخرج عن حوله وقوته، يظفر بكنـز: (لا حول ولا قوة إلاَّ بالله)، فليس له في العبودية سهمٌ ولا نصيبٌ، ولم يحم حول حمى هذا المقام، ولم يشم له رائحة من بعيد ولا قريب.

فاجتهد أيُّها الأخ في أن تخرج من قلبك السوى، واهرب من الأكوان، وباين النفس والهوى.

١٣٣- مَن عرف أحدًا لم يعرف الأحد، ما بان عنه أحد، ولا اتَّصل به أحد، ما بان عنه من حيث العلم، ولا اتَّصل به من حيث الذات.

إذ الطريق فصل ووصل، فما دام السالك في الأكوان يشتغل قلبه بمعرفة كل أحد من المعارف والإخوان، فهم بمعزل عن معرفة الأحد، والدخول إلى مقام الإمكان، ففارق العوائق والعلائق تدخل حضرة القلب، وتتشرَّف بحضرة الخالق، ومع ذلك ما بان عنه أحد من حيث العلم، ولا اتَّصل به أحد من حيث الذات.

وقال في الحكم العطائية: وصولُك إليه وصولُك إلى العلمِ به، وإلا فجَلَّ ربُّنا أن يتَّصلَ به شيءٌ، أو يتَّصلَ هو بشيءٍ[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: قد ذكر أهل الفن في هذا المقام اصطلاحات وألفاظ تداولوها بينهم تقريبًا لفهم المعاني، فمنها: السير، والرحيل، وذكر المنازل، والمناهل، والمقامات، ومنها: الرجوع، والوقوف، وكل ذلك كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها، وقطع العوائق والعلائق عنها، أو الوقوف مع شيء منها، وسيأتي للمؤلف: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، ومنها: الوصول، التمكين، والسكون، والطمأنينة، ومنها: المشاهدة، والمكالمة، والمجالسة، والمساورة، وغير ذلك، وكل ذلك كناية عما أدركته أورواحهم، وذاقته أسرارهم من عظمة الحق وجلاله، وسيأتي تفسير شيء من ذلك في محله إن شاء الله.

ومعنى الوصول عندهم تحقيق العلم بوجوده وحده، فوصولك إليه هو شعورك بعدمك حتى يكون عدمك عندك ضروريًّا، وعلمك بوجوده كذلك، وهذا الأمر كان حاصلاً لك في نفس الأمر، لكن لم تشعر.

فالزوال هو المعرفة: وهو معنى الوصول، وسببها جولان الفكرة ولذلك أمره بها.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي: الناس كلهم يشاهدون ولا يعرفون.

وسمعت شيخنا يقول: الناس كلهم في البحر: أي في بحر الوحدة، ولكن لا يشعرون، فوصول

فلله درهما من عارفين بأساليب الكلام، وما أمكنها من مرشدين أتيا بما يفهم الخواص، وتقلبه العوام إذا الواقف مع الرسوم، والمتحلي بظاهر العلوم، ولا يمكنه أن يعبر عن الوصول بأكثر من ذلك.

والعارف المتمكن البالغ من فناه أقصى ما يمكن، إذا تنـــزَّل إلى عالم الفرق والآثار، وأراد أن يعبر إلى ما وصل إليه مما تحير دونه الأفكار، ولم نجد عبارة أحسن من عبارة هذا العارف، ولا يتأتى له الإفصاح بأكثر من ذلك؛ لحمياء هذه المراشف؛ إذ ليس الحاصل المواصل الفاني من أهل الأذواق، إلاَّ علم بأنه معدوم فان، وإن مولاه الموجود الباقي بالاتصاف، فجلَّ الموجود الباقي أن يتصل بمعدومٍ فانٍ، أو يتَّصل به ذلك.

وإلى هذا المعنى أشار المصنف ﷺ حيث قال: ما بان عنه أحد من حيث العلم؛ لأنه ﴿**لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبأ:٣] ولا اتصل به أحد من حيث الذات؛ إذ كيف

=

العبد إلى الله عن تحقيق العلم بوجوده، والغيبة عن نفسه، وعن كل ما سواه، وإلا تكن كذلك بأن تعتقد أن الوصول يكون حسيًّا، فجل ربنا: أي تعالى وترفع أن يتصل به شيء للزوم تحيزه، أو يتصل هو بشيء للزوم افتقاره وحصره، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

واعلم أن هذا العلم بالله يكون كسبيًّا، ثم لا يزال يغيب عن نفسه وحسه، سكرة بعد سكرة، وحيرة بعد حيرة، حتى يصحو وينجلي عن ضباب الحس، وسحاب الجهل وظلمة النفس، فتشرق عليه شمس النهار، وتنجلي عنه ظلمة الأغيار، أي ليل وجودى صار مشرقًا مضيئًا بسبب شهود ذاتك، وظلام ليل القطيعة سار في جل الناس، الناس في جوف ظلمة الأكوان، ونحن في ضوء شموس العرفان، ثم لا يزال في تربية الشيخ وتحت حضانته ومدده، سار إليه بقدر صدقه، حتى يسلم له خصيم الغرق الظلماني، وينقرد النوراني، ويحس ذلك من نفسه، فحينئذٍ يقول بلسان الحال: أقر الخصم فارتقع النـــزاع، فإذا انفرد الخصم النوراني استمد من كل شيء، وشرب من كل شيء، وأخذ النصيب من كل شيء، فيبقى وصوله إلى الواسطة شكرًا وإحسانًا: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان:١٤].

وانظر: إيقاظ الهمم (شرح الحكمة: ٢٤٨).

يتصل المعدوم الفاني بالموجود الباقي.

فانظر يا أخي إلى هذين التعبيرين النفيسين في تعريف الوصول ما أوقعهما في القلوب، وما أعمهما نفعًا حيث أفهم كل طالب معرفة الوصول إلى المطلوب.

فاجتهد أيُّها الأخ في الاقتداء بأهل التمكين، ولا تتمسك إلاَّ بمقالاهم، ولا نقيد إلاَّ بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم في كل حين، يكن جسمك قلمًا لكتابة الخدمة، وروحك لوحًا لتنـــزل فيوض الرحمة، ونفسكً كأسًا تشرب من رائق الشراب، وتذوق ما ذاقه القوم مع كل معنى مستطاب.

١٣٤- الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس.

الأجسام أقلام؛ إذ هي كالأقلام في القيام، والسعي على الرأس في الخدمة، وتطهر منها الآثار، كالصلاة والصيام، كما تطهر من الأقلام والآثار المهيمة.

والأرواح ألواح، كأنها محل تنـــزل الفيوض الإلهية، وموضع لرقم الأسرار الربَّانية، فمن أصلح جسمه في الخدمة عظمت فيوضه، وحلَّت أسرار روحه، والنفس كؤوس لارتشاف كؤوس شراب المعاملات، فمن لم يشرب بها لم ينل ثمة مما قاله أهل المجاهدات، فمن لم يكن بعزمه في الطريق فلا عقدة له عند أهل التحقيق.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

فعض أيُّها الأخ بالنواجذ على المجاهدة، وأحكم الطريق، وإيَّاك والدعوى الملجمة للمحاكمة قبل تمكن الأحوال؛ فإنها تقطعك وتعوقك أعظم تعويق.

١٣٥- [وقال ﷺ: الوحدة بحضرة تلهب، ثم نظرة تسلب] (١).

(١) هذه الحكمة شرحها الشيخ أحمد باعشن بقوله: معنى وحدة الحق سبحانه وتعالى سابقة حيث لا كون ولا مكان ولا إنس ولا جان، فلا وجود لشيء معها البتة. وقوله: تلهب، أي عدم محض وعماء وكأنه رحمه الله رد على من يقول بقدم العالم، ومعنى الوحدة الخلفية هي العزلة في الخلوة، لأن الوحدة والعزلة نارية على النفس تلهب عليها لتحرق رعونتها، وتميت دغائلها، تحسبها من مرادها، وتقعدها عن شهواتها، كما قال معاذ بن جبل الرازي رحمه الله: جاهدوا أنفسكم بأسياف الرياضة، قيل: وكيف الرياضة؟ قال: هي أربعة : إقلال الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، واحتمال الأذى من جميع الأنام، ويتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة مهن الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وقال بعض المشايخ: من شق =

١٣٦- إياكم والمحاكاة قبل إحكام الطريق، وتمكُّن الأحوال؛ فإنها تقطع بكم المحاكمات.

في الغالب إنما تنشئ من الدعاوى، والمدعي منازعة للربوبية كما تقدَّم، فمن كان في البداية قبل إحكام الطريق، وتمكن الأحوال، مما جرته المحاكمات إلى الدعاوى الخفية، وأوقعته النفس بسبب ذلك في كل معضلة وملية لعدم إحكامه الطريق، وعدم تمكُّنه من الأحوال، فيقطعه ذلك، ويعوقه أعظم تعويق، بخلاف المتمكّن من الأحوال، المحكم للطريق الراسخ في استقامة الأفعال والأقوال، الماشي على الصراط المستقيم، من استماعه منه وبتبليغه عنه، فأموره كلها تكون على السداد، ولا يفعل شيئًا إلاَّ بأمرٍ وإذنٍ من مولاه، يقتضي الصحَّة وإن كان ظاهره الفساد.

قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**[1]»، فأثبت لنفسه السيادة على الدوام، وأردفه بقوله: (ولا فخر)؛ ليرفع بذلك توهم من يظن أن ذلك الافتخار، وإنما هو بيانٌ للواقع؛ لتزداد القلوب محبَّة، فيناله بذلك أعظم الفخار، ومن ذلك أيضًا قول الكريم بن الكريم: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥].

وعن ذلك أيضًا قول الوارث المتمكن من الأحوال الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي تشرَّف بصفتي الجلال والكمال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ وولية لله.

والحاصل أن من حصل له مقام التمكين، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ووارثيهم، صحَّ له أن يثبت لنفسه الكمال، ويذكر ما فيه من أشرف الخصال، ولا يضره ذلك المقال، ولا يعتريه في ذلك عجب، ولا يتغيَّر حاله لرسوخه في مقام

=

عليه ركوب الأهوال لا يرتقى إلى معالي الأحوال، ولا يبلغ مراتب الرجال.

(ثم نظرة تسلب)، أي : نظرة جمالية أزالت العدم السابق بالوجود لكل الخلائق بها يعتين وجود كل موجود، ومدد كل ممدود، وليس هذا الوجود مانع وحدة الحق السابقة، ومعنى أخر أي: نظرة من عين الجود بكرم المعبود، تسلب العبد عن نفسه، وتحضره برته، وبالله التوفيق.

(١) رواه مسلم (١٧٨٢/٤).

التوحيد، وشهود كل ذلك من الربِّ المجيد، يستمع من مولاه ذلك، ويبلغ عنه ما سمعه من سيده المالك، فتصير هذه المقالات منه عين العبودية، وكلما ينشأ عنها من المحاكمات فضيلة، وسيف يقطع بها جدال كل نفسٍ أبية، كما وقع له ﷺ في قضية المتباهلة مع النصارى؛ لما توقفوا في الإذعان بأنه المخصوص بالرسالة، وصاحب هذا الكمال الذي لا ينبغي أن يكون إلاَّ له، فقال الله تعالى: **﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** [آل عمران: ٦١]، فعجزوا عن المباهلة، وأحجموا عن المحاكمة؛ لما علموا من الهلاك المترتب على ذلك، فكل من كان له مقام الوراثة المحمدية، واستقام ورسخ وتمكن من الأحوال المصطفوية، صحَّت منه المحاكمات، ولم يضره ذلك؛ لخروجه عن النفس، وتشرفه بكمال الاستقامة التي هي أعظم المكرمات.

فاستقم أيُّها الأخ، وعض بالنواجذ على الاستقامة، وتخلَّق بأخلاقه ﷺ، لا سيما في ترك الدنيا، فإن ذلك أعظم الكرامة والله أعلم.

١٣٧- **ترك الدنيا أيسر ممن أخذها لها**[١].

لأن في تركها السلامة من حسابها، والبُعد عن مخالطة أربابها، وفي أخذها لها آفات، ومتى يصفو لصاحبها مع مولاه المعاملات، وهل يمكن أحد أن يمشي على الماء، ولا يبتلي قدمه، كذلك صاحب الدنيا لا يمكنه أن يخوض فيها إلاَّ وتطول حسرته، ويكثر ندمه، لذلك قال ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**[٢]».

وقال للذي قال له: يا رسول الله دلني على عملٍ إذا عملته أحبَّني الله، وأحبَّني الناس، فقال له: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**[٣]».

فاجتهد أيُّها الأخ في البُعد عنها؛ لا يصيبك رأس كل خطيئة، وازهد فيها؛ كي يحبك الله، فتصل إلى كل رتبةٍ علية، وتنال مقام الحضور، ويذهب عنك نقل الغيبة عنه، وتدخل صلاتك الحقيقية.

---

(١) في البيان والمزيد: (ترك الدنيا للدنيا شر من أخذها).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٠٠)، والمناوي في الفيض (٣/٣٦٨).

(٣) تقدم تخريجه.

١٣٨- **سئل عن قوله ﷺ: «أرحنا بها يا بلال[١]»؟ قال: من ثقل الغيبة عنه.**

حقيقة الصلاة حقيقة لا إله إلاَّ الله، وهو الإعراض عن السوى، والإقبال على المولى، فالمصلي يعرض عن الأكوان، ويستقيم في مقام الإحسان، ويفنى بركوعه في عظمة ذي الجلال والإكرام، فيزداد فناءً وقربًا بسجوده حتى ينعدم، كأنه ما كان، ومثل هذه الصلوات تعطيك أرفع الحضور، وتملأ قلب المصلي فرحًا، وتعمره بكل سرور، وتذيل عنه كل ثقلٍ كان فيه، حاصل عن الغيبة عن مثل هذا الحضور، ولذلك قال ﷺ: «**أرحنا بها يا بلال**»؛ ليوقظه فيتهيأ لنيل هذه الحبور، كما قال أحد العارفين ﷺ: إذا أردت أن يكلمك الله فاقرأ القرآن بالتدبير، وإن أردت أن تكلم الله فادخل الصلاة بالحضور؛ لأن الصلاة محل للحضور والمشاهدة، وبها يصل العارف إلى معراجه، ومقام قربه، وينال فيها كل فائدةٍ.

فاسترح أيُّها الأخ من همومك وغمومك بدخول مثل هذه الصلاة، وعض بالنواجذ على متابعته ﷺ تكن من عبيد الله.

١٣٩- **لا طريق أوصل إلى الحق إلا من متابعة الرسول ﷺ في أحكامه.**

لأن بمتابعته ﷺ يصل الإنسان إلى مقام المحبَّة، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال ﷺ: «**ستفترق أمتي ثلاثة وسبعين فرقة، كلها في النار إلاَّ واحدة، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ فقال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي[٢]**».

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه متبعًا لما جئت به[٣]**»، فدلَّ الكتاب والسُّنة على أن الطريق الموصل إلى الحق سبحانه وتعالى هو متابعته ﷺ في الأفعال والأحوال، ومن لم يكن كذلك فهو بمعزل عن المؤمنين من أهل الاعتدال، فضلاً عن العارفين والواصلين من أهل الكمال، وكذلك قال ﷺ لذلك الذي قال له:

---

(١) رواه أبوداود (٢٩٦/٤).

(٢) رواه أبو عاصم في سننه (٧/١)، وأحمد في مسنده(١٠٢/٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١١١/٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٣١/٢).

أوصني يا رسول الله قال: «**قُلْ آمنت بالله ثم استقم**(١)»: أي استقم على المتابعة، وهي غاية مطلب العارفين، ونهاية بغية الواصلين، فعض عليها يا أخي بالنواجذ، واجتهد أن تكون في كل أمورك كلها آخذ.

١٤٠- إذا أراد الله بعبد خيرًا آنسه بذكره، ووفّقه لشكره.

لأن من ذكر الله ذكرًا على الحقيقة نسي في ذكره كل شيءٍ، وحفظ الله عليه كل شيءٍ، وكان الله له عوضًا من كل شيءٍ.

قال ﷺ في الحديث القدسي: «**مَن أشغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**(٢)».

فإذا آنس الله العبد بذكره، وسهل عليه ذلك في سره وجهره، وأعطاه حلاوة في ذلك تفوق حلاوة الجنان، وأطلق بذلك لسانه، وعمَّر بما هنالك الجنان، وأي خيرٍ أعظم من ذلك، وأي نعمةٍ تفوق ذلك، يتوقعها السالك لا سيما إذا انضم إليها التوفيق لشكره، وصرف جميع الجوارح في امتثال أمره ونهيه، فهذا هو تمام السعادة التي لا تحصل إلاَّ بمحض فضله، ولا يتشرف بها إلاَّ من سبقت له العناية، فهنيئًا لمثله.

فاستغرق الأوقات أيُّها الأخ في ذكره، واصرف الهمة في امتثال أمره ونهيه، واهجر الخلائق، واجتهد أيُّها الأخ في خدمة الخالق.

١٤١- من أنس بالخلق استوحش من الحق.

لأن أنسه بالخلق دليل على غفلته، وعلامة على بعده من مولاه، وإعراضه عن حضرته، ومن كان كذلك استوحش من الحق، وصار بعيدًا، واستولت عليه النفس والهوى، وصار طريدًا.

فكن عن الناس جانبًا، وارضَ بالله صاحبًا؛ لعلّك تنال شمة من الحضور، ويذهب عنك لغات الغفلة، ويتم لك السرور.

١٤٢- بالغفلة تنال الشهوة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي في سننه (١٨٤/٥)، وعبد الرزاق في مصنف ابن أبي شيبة (٣٤/٦).

إذ الغفلة أصل جميع الآفات، والحضور أصل جميع السعادات، فإذا غفل الشخص تسلطت النفس عليه، وجذبته إلى ما تستقيم، ودعته إليه، ومن لم يستعن بالله على نفسه صرعته، ومن لم يدخل في حمى حضرة مولاه أسرته.

فاستعن على نفسك أيُّها الأخ بدوام الحضور، وجانب أهل البدعة يحيا قلبك، ويتم لك هذا النور.

١٤٣- مخالطة أهل البدع تميت القلب من كان فيه أدنى بدعة فاحذر مجالسته لئلا يعود عليك شؤمها بعد حين.

أشار إلى أن الصحبة مؤثرة، فمن صاحب الغافلين غفل، ومن صاحب الذاكرين ذكر، ومن خالط أهل البدع وصاحبهم مات قلبه، وسرت فيه بدعتهم، وتغيَّر لبه.

فاحذر صحبة من فيه أدنى بدعة، واهجره وابعد عنه، شعر:

لاَ تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاه ... فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيْمًا حِيْنَ
يُقَاسُ المَرْءُ عَلَى المَرْءِ إِذَا هُوَ أَخَاه ... وَلِلشيءِ عَلَى الشَّيءِ مَقَاسٌ وَأَشْبَاه

جلس أبو يزيد ﷺ يومًا مع أصحابه، فلم يجد حاله المعهود، فقال: لعلّ بينكم أجنبي، فنظروا فلم يجدوا أجنبيًّا، فأمعنوا النظر فوجدوا عصا أجنبية، فأخرجوها، فعاد الحال.

فانظر يا أخي وتأمَّل هذه الحكايات بقلبك، وتوجَّه إليها، وتفهَّم ما يليك إذا كان مثل أبي يزيد يتأثر من وجود عصا أجنبي، ويخل بحاله مع أنه ليس بمبتدعٍ، فكيف بأمثالنا من الضعفاء من أهل البدعة والهوى؟.

فالفرار الفرار من مخالطتهم، وابعد أيُّها الأخ غاية، واهرب من مجالستهم، وعليك بمجالسة أهل السُّنة والجماعة من أهل اليقين المحققين، بمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، الماشين على الصراط المستقيم، المتحصنين بحصن: (لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله)، الممتثلين للأوامر والنواهي من الخوارق والملاهي.

١٤٤- إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتنخرق له العادات فلا تركنوا إليه، ولكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر والنهي.

العامة لا يعتمدون، ولا يعولون إلاّ على ظهور الكرامات، وخرق العادات، فمن رأوا فيه شيئًا من ذلك اعتقدوه وإن كان عاريًا من ملابس الشريعة، وفارق الأذواق الطريقة؛ إذ نظرهم مقصور على المحسوس العاجل، وهمّتهم منصرفة إلى ما يتخيلون نفعه، وهم سمٌّ قاتلٌ.

وأما أهل المعرفة فلا اعتماد لهم على الكرامات، وخرق العادات، وإنما اعتمادهم على متابعته ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال بامتثال أوامره ونواهيه، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر:٧]، فمن تحقّق بامتثال الأوامر والنواهي فقد تحقّق بأعظم الكرامات عند أولي البصائر دون أرباب الجهالات.

قال ابن عطاء الله: الكرامة عند العامة خرق العوائد، وعند الخاصة بتبديل الصفات الحميدة.

فلذلك قال أحد العارفين: ليس الشأن أن تُطوى لك المسافة البعيدة في مكة أو نحوها، وإنما الشأن أن تُطوى أوصاف نفسك فتكون عند ربك.

فعليك أيُّها الأخ بهذا الميزان العظيم الذي أعطاكم هذا العارف في معرفة الرجال، فلا قرن أحدًا إلاّ بهذا الميزان، أتعرف ما بين الناقص وصاحب الكمال، فإذا عرفته بهذا الميزان وانصب عليك من سحائبه العلوم، فاحذر أن تكتفي بالكلام فيها دون الاتصاف بحقيقتها فتتزندق، وتصير مذمومًا: أي مذموم.

١٤٥- من اكتفى بالكلام دون العلم دون الاتصاف بحقيقته فقد تزندق وانقطع، [ومن اكتفى بالتعبد دون فقه فقد خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع](١).

---

(١) الزيادة من البيان والمزيد (ص٩٨)، وأورد المصنف جزءًا من الحكمة بعد ذلك، وترتيب البيان أصح.

لأن المقصود من العلم العمل كما أن المقصود من الشجر الثمر، فعلمٌ بلا عملٍ كشجر بلا ثمرٍ، فمن اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقة التحلي بحليته تزندق: أي صار ظاهره مخالفًا لباطنه: إذ الزنديق من يظهر شيئًا، ويبطن خلافه، وهذا كذلك يظهر العلم ويبطن ويتصف بخلافه، ومثل هذا منقطع عن فائدة العلم وثمرته، بل الجاهل أحسن منه حالاً؛ لأن ذاك معذور بجهله، وهذا ارتكب الفعل القبيح مع علمه، فالحجة عليه أكد، وذنبه أشد، وكذلك قيل:

فَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَن مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الوَثَن

فاجتهد أيُّها الأخ أن يكون مقصدك من العلم العمل بمقتضاه، واصحب من يدلك على ذلك من المؤدبين البالغين من هذا المقام منتهاه.

١٤٦- مَن لم يأخذ الأدب من المؤدبين أفسد من تبعه.

لا بُدَّ في الطريق من شيخٍ كاملٍ مكملٍ، قد سلك الطريق مع الرفيق، ورأى محاجه، وعلم مستقبحه، وأدرك اعوجاجه، وعرف آفات الطريق وقواطعه، وشاهد المنازل، وعرف المناهل، وقطع الفيافي والقفار، وجاوز العقبات، وترك الشهوات، وباين الأغيار، وجدَّ في مسيره، وشد المئزر في الخدمة بالليل والنهار، حتى تحقَّق له إعلام تلك المعالم، وتشرَّف بالوصول إلى ثرى تلك الأعتاب، وفاز بالمغانم ووقف عند ذلك الباب بكمال الآداب، حتى أذن له بالدخول، والجلوس في منازل الأحباب، وشرف عند ذلك بالخطاب، وصار من أهل المحاورة والمشاورة، وظفر بكل معنى مُستطاب، فمثل هذا الشيخ حقيق، تأخذ عنه وتتأدَّب بآدابه، وتسلك الطريق معه، وتكون من أصحابه، وتعض بالنواجذ على ملازمته طول عمرك؛ لعلَّك تظفر بالمقصود، وتصير من المؤدبين المتصفين بصفة الكمال، ينصلح بك من تبعك ويسور، ومن لم يأخذ من المؤدبين المتصفين بصفة الكمال أفسد من تبعه، وفسد هو، وتغيَّرت عليه الأحوال.

فعليك أيُّها الأخ بالصدق في الطلب، تظفر بكنز الذي تطلبه، واعبد مولاك بفقه فيه وورع يعينك على ذلك، ويحصل لقلبك مطلبه.

١٤٧- مَن اكتفى بالتعبُّد دون فقهٍ فقد خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع.

من عبد الله بغير فقهٍ خرج عن الطريق المستقيم؛ لعدم معرفته بكيفية العبارة، فيفسدها وهو يظن أنه في إصلاحها مقيم، من كان كذلك ابتدع؛ لمخالفته للسيرة المحمدية، وارتكابه للحال الجاهلية، وبُعده مما عليه السلف، ومجانبته لما هو المأثور عن الخلق.

فأساس العبادة الفقه، فمن بنى بغير أساسٍ فإن مآله إلى الانتكاس، ومع ذلك لا يكفي الفقه بدون الورع، فمن اكتفى اغترَّ وانخدع، فإن الورع هو اتقاء الشبهات، والبُعد عن المحرمات المهلكات، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فمن أخذ جانب الرخص ولم يحفظ بتوقِّي الشبهات، اغترَّ بما فعله وظنه من المنجيات، وانخدع بذلك حيث قبله، ورضي به، فجذبته النفس المقتضى طبعها، فإذا هو في المهلكات، فلذا قيل: ملاك الدين الورع، وآفة الدين الطمع.

فاجتهد أيُّها الأخ الشقيق في إصلاح نفسك بالورع، واستعن على ذلك بصحبة شيخ شهدت له ذاتك بالتقديم، وظهر في قلبك نوره وسطع.

١٤٨- الشيخ ما شهد-له ذاتك بالتقديم، وسرك بالاحترام والتعظيم، الشيخ من هذَّبك بأخلاقه، وأدَّبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه آثار نوره[1].

---

(١) **فوائد جليلة**: قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرَّه: (**الشَّيخُ من أخذك، وكشفَ عنك**) أيِّ: شيخك المرشد لك هو الذي أخذك عن نفسك، وإرادتك، وأخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، وكشف عنك الغطاء، وقال لك: ها أنت والمولى، وهذا هو الذي استنار بنور الحق سماء روحه وأرض نفسه، فطهر روحه بالرؤية والمشاهدة، وزكَّى نفسه بالخدمة والطاعة، فصار مجلى للذات ومظهرًا للأسماء والصفات خصوصًا، والحق تعالى متجلي وظاهر في الأشياء عمومًا، نور قلبه من نور الله، وهو وارث علم رسول الله ﷺ، قال ﷺ:

=

«**العلماء ورثة الأنبياء**» أي: العلماء بالله؛ لأنهم بالإرث أقرب للزوم الخشية لعلمهم، والعلم الذي لا خشية معه ليس صاحبه أهلاً لأن يكون وارثًا لانتقال العلم المورث إليه على غير الصفة التي كان عليها عند المورث، وحقيقة الإرث انتقال المورث إلى الوارث على الصفة التي كان عليها عند المورث، ولا يستلزم الخشية إلا العلم بالله، فالعلماء بالله هم الوارثون حقًا، والبواقي تبعًا.

ثُمَّ قال قُدِّس سرَّه توضيحًا لفهم السالك، وتقريعًا لسامعه السامعين: (**الشيخ من حمل عنك المشقَّات، وأشهدك منازل القربات**) أي: الشيخ الحقيقي الذي له تلقين الذكر للمريد هو الذي يحمل عنك جميع المشقات، ولهذا شرط بعضهم أن يكون الشيخ قادرًا على أن يخلع على المريد حال التلقين أي: حين أن يقول له قل: لا إله إلا الله جميع العلوم الشريعة المطهرة بحيث لا يجهل شيئًا من أحكامها، ولا يحتاج إلى سؤال العلماء، ومطالعة الكتب، كما وقع لعلي بن أبي طالب ﷺ لـمَّـا لقنه رسول الله ﷺ، وللحسن البصري ﷺ لَمَّا لقنه علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عمره حقًا على ما صححه جلال السيوطي رحمه الله وغيره عشر سنين ذكره الشيخ علي الخوّاص للشيخ عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرِّهما العزيز في بعض سؤلاته عنه، فلا يجوز التلقين لمشايخ هذا الزمان إلا بقصد التبرك حتى يدخل المريد في سلسلة سند القوم، ويدخل به في محبتهم فيكون مُسَلمًا لمقالاتهم، أو معتقدًا لها أي: يقطع بصدقهم فيها، وما عدا هذين المقامين فحرمان لكلِّ أحدٍ مريدًا كان أو لا على ما قاله الشيخ الأكبر في الباب الثاني من الفتوحات ﷺ: «وأيضًا الشيخ المسلك الكامل المكمِّل أن يقدر على أن يشهدك جميع منازل القربات فيدور بك في معاطف الطريق يمينًا وشمالاً، كما هو عليه جميع السادات الصوفية إلا بعضهم مثل الشيخ أبي مدين المغربي ﷺ، فإنه كان يقصد اختصار طريق الوصول للمريد، وينقل إلى محل الفتح من غير المرور به على الملكوت خوفًا على استئناسه بعجائب، وهذا أولى لاختصاره وعدم علم المريد بالعوالم لا يضره؛ لأنه بعد الفتح يتدلى المريد بنفسه إلى العوالم فيكشفها ويشاهد ما فيها بالحق، فعلى هذا يكون للشيخ أثر في الفتح، وإن كان الفاتح حقيقة هو الله تعالى؛ لأنه كالبدر والدليل حيث يقول له: اسلك هذه الجهة فهي أقرب لك، ويدل على أن طريق الاختصار أحسن ما وقع لأبي يزيد البسطامي قُدِّس سرَّه لما وقف على العابدين فلم ير له قدمًا معهم، وكذلك وقف مع المجاهدين والزاهدين والصابرين والمتوكلين وسائر المقامات فلم ير لنفسه مع كلِّ منهم قدمًا،

=

=

فقال: يارب كيف الطريق إليك؟، فقال له تعالى: يا أبا يزيد اترك نفسك أي: حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، فالله تعالى اختصر له الطريق بأخصر كلمة وألطفها؛ لأن من يترك حظ نفسه يقوم معه ربه.

ومن صفات الشيخ أن يكون متخلقًا بأخلاق الله،كما قال الشيخ ﷺ: (**لا يصلح من يربي الخلق، إلا من كانت صفته من صفة الحق**) أي: لا يصلح لتربية الخلق، ولا يليق بها كل من يريد تربية الخلق إلا الرجل الذي كانت صفة ذلك الرجل من صفة الحق بأن يأخذ من كل صفة من صفات الله تعالى خطًا يليق به، كما وقع الأمر من النبي ﷺ إلينا بقوله: «**تخلقوا بأخلاق الله تعالى**»

أي: المرضية الكمالية، وهذا التخلق لا يكون إلا بعد التخلق بأخلاق الرسول ﷺ على ما ورد أيضًا: «**تخلقوا بأخلاق الرسول**».

فالشيخ لا يصلح للتربية ولا مربيًا للمريدين إلا إذا كان متخلقًا بأخلاق الرسول وأخلاق الله تعالى، أو المراد من كون صفة العبد صفة الحق أن يصير الحق تعالى عين قوى العبد الباطنة، وجوارحه الظاهرة.

وقال قدس سره:[**الشيخ من أزال عنك كل حجبك**] أي: شيخك أيها السالك الطالب للسلوك والمرشد المسلك لك في الطريق إلى الحق تعالى هو الذي أزال عنك ويرفع لك ما يحجبك عن الله والوصول إليه والاشتغال به، وهذه الإزالة لا تكون إلا بالله؛ لأنه لا يوصل إلى الله إلا الله لكن الشيخ لما كان بالله يوصل المريد إلى الله بإذن الله من الله، فعطف (**الشيخ**) ﷺ على الجملة المذكورة قوله: [**واستأذن الحق لقربك**) عطف السبب على المسبب فإن استئذان الحق سبب لإزالة الحجب عن المريد، وفيه أن السبب هو إذن الحق للشيخ بالإيصال للمريد لا استئذان الشيخ من الحق لإيصال المريد، وأجيب بأن الاستئذان سبب الإذن وسبب السبب سبب، فالشيخ المسلك للمريد يزيل الحجب عنه ويرفع الغطاء عن بصره وبصيرته بسبب أنه يستأذن من الحق تعالى؛ لأن يقربه إليه تعالى برفع الحجب والأستار، فالحق تعالى يأذن للشيخ في قربه إليه تعالى، وإذن الحق في قرب المريد إذن للشيخ في إزالة الحجب عن المريد، وكذا استئذان الشيخ الحق لقرب المريد استئذان الحق لرفع الحجب عنه فلا إشكال، فحاصل الكلام أن الموصل لا يكون إلا الحق أو من يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق قائمًا به متحققًا بمقام كنت سمعه وبصره حتى يمكن منه الإيصال إذ لو كان بنفسه فلا يمكن منه ذلك، فثبت بهذا أن السالك بالله واجد له تعالى، والسالك بنفسه فاقد له، ولا يجده.

=

=

وبه يجمع بين قول الرسول ﷺ: «**من طلب الله وجده**»، وبين قول أبي يزيد البسطامي قدس سره: «السالك مردود، والطريق مسدود».

فإن السلوك والطلب بمعنى واحد، فصار مآل قول الرسول ﷺ: إلى أن الطالب واجد لله.

ومآل قول أبي يزيد: إلى أن الطالب غير واجد له، وهما متناقضان ظاهر لكن المراد في الأول الطلب بالله، وفي الثاني الطلب بالنفس فلا تناقض؛ لأن شرطه اتفاق القضيتين في الوحدات الثمانية وهنا ليس كذلك فتأمل.

ثم أكده بقوله: (**الشيخ من نقلك من نار البعد والإنفصال إلى جنة القرب والاتصال**) أي: شيخك المسلك لك أيها السالك هو الذي نقلك من نار هو البعد عن حضرة القدس والانفصال عنها بوقوفك مع السوى، وشركك الخفي والأخفى إلى جنة هي القرب إلى الله، والاتصال به اتصال الفرع بأصله من حيث الوصول إلى غاية المرام عاريًا عن الوصل، والفصل المشهودين بين العوام؛ لأنهما بالمعنى المشهود مُحال في حقه تعالى حيث لا وصل ولا فصل ولا قرب ولا بعد.

وفي لسان هذه الطائفة أن البعد هو المسمَّى بالنار وبجهنم، والقرب هو المسمَّى بالجنة، وإن البعد هو المتوهم والقرب هو المتحقق؛ لأن المقامات والمواطن كلها مراتب ظهوره تعالى، فلا بعد الإعلى سبيل التوهم فما ثَمَّ إلا قرب، فالمراد النقل من البعد المتوهم الذي يتوهمه المريد إلى القرب المتحقق الذي هو الأمر عليه في نفسه، وهذا لا يكون إلا برفع الحجاب له وكشف الأمور على ما هي عليه، فيخرج المريد عن الوهم والخيال، ويدخل في القرب والاتِّصال فنكشف له حقيقة الحال.

وبما ذكرناه تبين أنه تأكيد لما قبله ومعنى التأكيد على لسان الحقيقة أن يكون في اللاحق ما في السابق مع زيادة وفائدة جديدة؛ لأن التجلي لا يتكرر، ثم زاد الشيخ قدس سره في البيان اهتمامًا بهذا الشأن.

وقال قدس سره: (**الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت**) المراد بإماتة نفس المريد إخراجه عن الالتفات إلى الدنيا وتوابعها، وعن النفس وحظوظها كالميت لا شيء له مما ذكر، وهذه الإماتة إرادية كما أن الخروج مما مرَّ إرادي، والمراد بالموت الثاني الموت الطبيعي، وقد مرَّ معنى الموت بأقسامه (**جال**) في الحرب جولة بفتح الجيم، وجال في الطواف جولاً بفتح الجيم وضمها وبسكون الواو وجولاً بتحريك الواو، وجول بالتشديد تجوالاً، واجتلال، والجال بمعنى طاف كذا في القاموس.

=

و(**اللاهوت**) عالم أعلى كما أن الجبروت عالم أو سط، والملك عالم الشهادة والملكوت عالم الغيب الإضافي والحقيقي فهو يعم الجبروت والعظموت واللاهوت.

وقيل: إن الملكوت عالم الأرواح، والمعنى الشيخ المسلك لك أيها السالك الطالب للسلوك الموصل لك إلى القدسية الكاشف لك الحجب المانعة لك من الوصل والمقرب لك إلى جناب حضرة مولاك الناقل لك من نار البعد، والانفصال إلى جنة القرب، والاتصال هو الذي يميت نفسك وهواك عن السوى، ويقطعها عن حظوظها وشهواتها كالميت قبل أن تموت بالموت الطبيعي اللازم للطبيعة الحيوانية، فتكون أنت ميتًا ماشيًا على وجه الأرض كما هو حال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وشهد له النبي ﷺ بهذا الحال حيث قال: «**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر** ﷺ».

وأيضًا الشيخ هو الذي جال وطاف بروحك لا ببدنك؛ لأن الجولان في عالم الغيب بالبدن من خواص خاتم الرسل عليه وعلى آله أفضل - الصلاة وأتم السلام - والكمَّل من ورثته يطوفون بأرواحهم لا بأبدانهم، فالشيخ يطوف بروحك في عالم اللاهوت ويعرج بك إلى العظموت، ويشهدك منازل الناسوت إلى أن يقول لك: ها أنت ومولاك، فتبلغ غاية الرضا وأقصى المنى، ولا يبقى في قلبك شيء من السوى.

وبالجملة إن لم يأخذ السالك الطريق ممن يكون من الرجال الموصوفين بأوصاف الكمال فلن يفلح.

وقوله: (**الشيخ من نقل أسمك ومحى رسمك**) أي: الشيخ الذي يسلك بك هو الذي نقل اسمك عنك بإفناء وجودك في وجود الحق تعالى، فلا يبقى لك اسم ومحى أيضًا رسمك بإفناء إرادتك في إرادة الله تعالى، فلا يبقى لك رسم، فبالأول يحصل لك الفناء في الله، وبالثاني يحصل لك الاتِّحاد مع الله تعالى بالمعنى الذي اصطلح عليه القوم فيهما وهو الخروج عن الوجود لغير الحق بأن يثبت الوجود له تعالى، ويتحقق بحديث:

«**كان الله ولا شيء معه**». والآن كما كان، وبقوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]. ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، أو عن صفاته البَشرية بأن يدخل في الصفات الحقيَّة، وهو مقام بي يسمع وبي يبصر هذا في الأول، وهو الفناء والخروج عن إرادته لإرادة الله تعالى في الثاني وهو الاتحاد، فمن صار وجوده وجود الله وإرادته إرادة الله فهو متحد مع الله في هاتين الصفتين لا في الذات؛ لأن عينية الأشياء للحق من حيث ظهورد فيها وانصباغه بصبغها.

وأمّا من حيث الذات فالأشياء أشياء والله الله كما صرح به الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية».

أما تزينت أيُّها الأخ بمحاسن الشريعة، وتحليت بآداب الطريقة، فلا بُدَّ لك في

وقال بعضهم: الفناء نفي العبد لاختياره المغاير لاختيار الله تعالى؛ لأن الكمال أن يختار العبد ما اختاره الله له إن يختاره، وإلا فالإنسان لا يجوز أن يكون غير مختار؛ لأنه تعالى وإن نفاه فقد أثبته فقال:﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، فأثبت في هذا القول الرمي وقد نفى.

والبقاء أن يختار باختياره تعالى له الاختيار بعد ما نفى اختياره المغاير لاختيار الله تعالى، فالعبد في هذا المقام مختار من جهة البقاء غير مختار من جهة الفناء، وأمَّا العوام فلهم الاختيار مطلقًا لرؤيتهم الوجود لنفوسهم وأن يعملوا بإرادتهم، ويجوز أن يكون المراد (**بنقل الاسم**) غير ما قلنا: من رفعه بالإفناء، بل معناه الحقيقي، ويكون حقًا قوله:

(**ومحى رسمك**) من عطف السبب على المسبب، فإن الشيخ ينقل المريد من اسم إلى اسم من اسم العام إلى الخاص إلى أخص الخاص، أو من الجاهل إلى العالم إلى العراف بالله، أو من اسم المسلم إلى المؤمن إلى الصالح إلى المحسن إلى الشهيد إلى الصديق إلى المحقق إلى غير ذلك من الأسماء المصطلح عليها لهذه الطائفة بسبب محو العادات ورسوماته عنه فتبصر.

ثم قال الشيخ قُدِّس سرَّه: (**الشيخ من أطلعك على حالك، لا من أخذ مالك**) أي: الشيخ المسلك هو الذي جعلك مطلعًا على حالك من النقص والكمال، فيُذهب منكَ النقص، ويفيض عليك الكمال بالاستئذان لك من ربك بأن يكون الشيخ من خواص الخواص الكاملين المكمَّلين، الذين هم مع غلبة التسليم عليهم يأمرون المريد، ويرغبونه في الأشياء، ويرهبونه من أشياء، وينـــزلون من مقامهم لمقام المريد حتى يُقيِّم عوجه؛ لأن الشيخ هو الذي يأخذ مالك عنك كالمشايخ بعد قرن عاشر قعدوا على السجادة بدون إذن من الله تعالى، فيأخذون أموال الناس من غير استحقاق فيهم.

وهذا الشيخ كما أنه يأخذ مالك أيضًا يأخذ دينك؛ لأن المريد ناظر إلى شيخه، ويتأدب بآدابه وآدابه مذمومة.

ومن هنا قيل: إن العلماء السوء أشدّ من الشيطان؛ لأن الشيطان يضرك في دينك، وذاك يضرك في دنياك ودينك، فعلى هذا يجوز أن تكون (**ما**) في (**مالك**) موصولة أي: لا الشيخ الذي يأخذ منك ما حصل لك من أمور الدين والدنيا، ولا الشيخ الذي هو من خواص الأولياء الذي محقه التسليم لله تعالى في سائر الأحوال وما بقي له اختيار، فإن مثله لا يرى في الوجود محظورًا ينهاك عنه مع أن الصحبة تقتضي الميل إلى الصاحب، وهذا الرجل ما له ميل إلى أحد سوى الله تعالى حتى يُقيِّم عوجه ويُصلح فساده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذلك من شيخٍ يكون رفيقك في الطريق، ويأخذ بيدك في المفاوز، وينفعك في كل مضيقٍ.

قال أبو يزيد ﷺ: من لا شيخ له فالشيطان شيخه، ومن أراد أن يقطع منـــزلاً من الأرض لا يمكنه ذلك إلاّ بدليلٍ، وإلا ضل وانقطع وعدل عن السبيل، فكيف بمن يريد أن يقطع مثل هذا الطريق، فهيهات أن يمكّنه ذلك إلاّ بشيخٍ مرشدٍ تمّ له هذا التحقيق، ووجود مثل هذا الشيخ أعز من الكبريت الأحمر، لكن من صدق في الطلب سهَّل الله له ذلك ويسَّره؛ إذ كما لا يتوصل إلى الحق إلاّ بفضله، كذلك لا يتوصل إلى بابه من الشيوخ المرشدين إلاّ بفضله.

كما قال في الحكم العطائية: سُبْحَانَ من لم يجعلِ الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليل عليه، ولم يوصلْهم إليهم إلا من أراد أن يوصلَه إليه[1].

---

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: الدليل هو الموصل للمطلوب، فإذا صار الحق تعالى بك إلى ولي عارف به ودلك عليه، فقد سار بك إلى معرفته ودلك عليه، فمهما دلك على وليه، وأطلعك على سره، فقد دلك عليه قطعًا، ووصلك إلى حضرته سريعًا، فلم يجعل الحق سبحانه الدلالة على أوليائه، والوصول إليهم إلا من جهة الدلالة عليه، ولم يوصل أحدًا إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه؛ فلأجل هذه الملازمة وعدم الانفكاك تعجب الشيخ من ذلك.

وقال شيخنا ﷺ في قول المؤلف ﷺ: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، قال: وصولك إليه وصولك إلى عارف به، يعني مهما وصلك إلى عارف به وأطلعك عليه فقد وصلك إليه، ومهما حجبك عن العارفين به فقد حجبك عنه، فلا طريق إلى معرفة الله إلا من طريق معرفتهم، ولا دليل على الله: أعني على معرفته الخاصة العيانية إلا من حيث الدليل عليهم، وكما حجب الحق سبحانه ذاته المقدسة بعزته، وقهريته كذلك حجب أولياءه بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية، فلا يعرفهم إلا من سبقت له العناية الربانية، إذ لا يعرف الخواص إلا الخواص.

قال في «لطائف المنن»: أهل الله من خاصة عباده هم عرائس الوجود، والعرائس محجوبون عن المجرمين؛ فهم أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم.

وللشيخ علامات يستدل بها المريد عليه إذا نوّر الله بصيرته، وأراد منه انتفاع على يديه، وهي ثلاث:

الأولى: أن تشهد ذاتك له بالتقديم، وسرك بالاحترام والتعظيم، كما قال ﷺ:

=

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقًا مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟ ثم قال: وإذا أراد أن يعرفك بولي من أوليائه، طوى عنك شهود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته انتهى.

وأيضًا فإن الولي لا يعرف بالصورة الظاهرة، وإنما يعرف بالمعاني الباطنة، لأن الله لا يعبأ بالصور: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرَين لو أقسم على الله لأبرَّه»، في قسمه.

فمن أراد معرفته بالصورة فلا يعرفه، لأنه لا يرى إلا بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فالعين لا ترى إلا الأجسام الكثيفة التي يطرأ عليها ما يطرأ على أهل الحجاب، ولم يدرك ما انطوت عليه الصورة من المعاني اللطيفة، والأسرار المنيفة.

فمن أراد الله سعادته رزقه الاعتقاد والتصديق أولاً، ثم الهداية والتوفيق ثانيًا، فالتصديق بأسرار الولاية أول المعرفة، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: التصديق بطريقتنا هذه ولاية.

وقال بعضهم: لله رجال لا يعرفهم إلا الخاصة، ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة، ولله رجال لا يعرفهم لا الخاصة ولا العامة؛ ولله رجال أظهرهم في البداية وسترهم في النهاية، ولله رجــال سترهم في البداية وأظهرهم في النهاية، ولله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينه وبينهم إلا الحفظة الكرام، الذين وكلوا بحفظ السرائر، ولله رجال اختص الله بمعرفتهم لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلا الحفظة فمن سواهم حتى يلقونه، فهم شهداء الملكوت الأعلى، وهم المقربون، وهم الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده، وهم الذين طابت أجسامهم من طيب أرواحهم، فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثون مشرقين بأنوار البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد، وهم المخفقون تحت حجاب الأنس، المغموسون في بحار المحبة والقدس، فليس لهم مع غيره قرار، ولا عن أنفسهم إخبار، تولى الله شأنهم: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فإن حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة:٥٦] انتهى.

قال الشطيبي ﷺ: وهذه الأسرار التي انطوت عليها أسرار الأولياء واحتجبت عن العامة هي أسرار الملكوت الغيبية. وانظر: الإيقاظ (شرح الحكمة: ١٩٢).

«**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون** [١]»، وهذه العلامة كالباب لا يمكن للمريد أن يدخل منــزل فوائد الشيخ إلاَّ منها، ومن لم يضع قدميه لا يمكنه الدخول إلى مجالسها، والاستجلاء من عرائس معانيها، كما قال أحد المشايخ المرشدين لمن طلب منه الالتفاف إليه: لا يتأتى ذلك حتى تأتي إلينا، كالمريض إذا جاء الطبيب.

يعني: حتى تأتي إلينا بالاعتقاد التام، وتقبل ما يأتيك وتشهد أنفع دوائك من السقام، فعند ذلك ينتفع المريض بالدواء، وكذلك مريض النفس والهوى.

العلامة الثانية: أن تهذبك أخلاقه، ويؤدبك إطراقه، وينير في باطنك إشراقه؛ إذ الشيخ من تهذَّب بالأخلاق المحمدية، فمن جالسه سرت فيه شمائله، وجرت إلى هذه الرُّتب العليَّة مظاهره، مزينٌ بالإطراق، وباطنه منورٌ بالإشراق، قد جمع وفرق، وتحلى بكل معنى رق.

العلامة الثالثة: أن يجتمع قلبك في حضوره، ويحفظ عن التفرقة في مغيبه آثار نوره؛ إذ له كمال التصرُّف والإشراق، يتصرف في الغيبة كما يتصرف في الحضور من غير اختلافٍ، وهذا مقام رفيع يعطيه الله بعض الكمال من المرشدين، فإن التصرف ليس بشرط في الشيخ، كما هو مقرَّرٌ عند العارفين، وإنما الشرط الذي لا بُدَّ منه سلوك الطريق مع الرفيق، وقطع فيافي هذه المفاوز، ومعرفة المنازل والمناهل؛ ليدل عليها السالك إذا سلك معه بمطيته في تلك المسالك.

فاجتهد أيُّها الأخ في تحصيل هذا الشيخ، وعض بالنواجذ على خدمته، وراع آداب الصحبة، وحسن الخلق، يتم لك ما تراه من ملازمة حضرته.

١٤٩- كُنْ مع الفقراء بالأُنس والانبساط، ومع الصوفية بالآداب والارتباط، ومع المشايخ بالخدمة والاغتباط[٢]، ومع العارفين بالتواضع والانخفاض[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/١٩٤).

(٢) في نسخة: (الاتعاظ).

(٣) شرحها ابن باعشن في البيان بقوله: يعني أن الشيخ المرشد إذا كان من علماء الآخرة ينــزل بحاله العظيم إلى الأحوال أجمعها بما يليق بها، كما أنه ضامها وحاويها والأحوال

١٥٠- حسن الخلق معاملتك مع كل أحدٍ[1] بما يؤنسه ولا يُوحشه، فمع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار.

إذا عرفت أيُّها الأخ أدب الطريق، وتحلَّيت بما هنالك، وأزلت من قلبك أوساخ التعويق، وظفرت بالرفيق الذي لا بُدَّ لك منه عند التحقيق.

فعليك بمعرفة آداب الصحبة، وحسن الأخلاق؛ ليتم لك ثمرة ما ترونه، وتذوق ما ذاقه القوم أتم المذاق، وصحبة كل شخص بحسب ما يناسبه، وتحسين الخلق مع كل أحدٍ بحسب ما يلائمه ولا يجانبه، فكن مع الفقراء بالأنس والانبساط؛ لما في ذلك من ممازحتهم، وأطلهم في الفرح والنشاط.

ومع الصوفية بالأدب والارتباط؛ لأن التصوُّف كله أدب تمَّ له الرباط.

ومع المشايخ في الخدمة والاغتباط؛ لأن خدمتك هي التي ترفعك لا سيما إذا اغتبط بها، وتمَّ لك في ذلك الاحتياط، ومع العارفين بالتواضع والانحطاط؛ لأنهم قد

=

شتى، أحوال الفقراء فيضية كفيض البيضة الملقاة في البرية العظيمة، فيجب من مالك البرية وهو الشيخ أن يؤنسهم ولا يوحشهم، ويبسطهم ولا يقنطهم، فإذا خرجوا من صدفة البيضة طيرهم ويجب عليه مراعاتهم، ومعنى مع الصوفية بالأدب والارتباط أن الصوفية قد صفت لطائفهم، وتطهرت جوارحهم، فيجب الأدب معهم، والمراعاة لهم؛ لأنهم طيارون من العالم الإشهادي إلى العالم الروحاني، فيجب على الشيخ حراستهم من صقور ظلم الجهل لا تختطفهم فيخرجوا من العالم النوراني إلى الظلماني، فإن رتعوا بالعناية، واستمعوا للداعية، وامتثلوا لمن وسم بالولاية صفت مرآتهم كل الصفاء، فانتقش فيها عوالم الجبروت، وعوالم الملك والملكوت، فيطالعون ما في اللوح المحفوظ بصفاء يقين، لأن اللوح كالمرآة ينتقش فيه ما العالم الملكي والملكوتي، ليأخذ أحسنها ويترك شرها؛ لأن ما في اللوح يؤخذ بعضه ويترك بعضه ما في يمينه انتقاش فضل الله من الصفة الأزلية، فهذا يؤخذ وما في شماله صفة عدل الله، فهذا لا يؤخذ، لأنه من صفة الغضب القديمة، فهذا معنى بديع لا يعرف إلا على البديهة القوية بكحالها السابق، فعرفت ما قد سبق في اللاحق بعون الله، وتوفيقه وذاك معنى: «بي يسمع وبي يبصر» إلى آخر الحديث، وبالله التوفيق.

(١) في نسخة: (شخص)، وفي نسخة (شيء).

خرجوا عن كلهم، فليس تواضعك وانحطاطك في الحقيقة إلاَّ لمن وفَّقك وألهمك الوقوف على هذا الصراط المستقيم، وحسن خلقك مع العلماء بحسن الاستماع والافتقار؛ لأنك بحسن استماعك تستفيد، وبافتقارك يتم لك الفخار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار؛ لأنهم أهل الإشراق، فاسكن وانتظر تأتك منه المعارف والأسرار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار؛ لأنهم أرباب التمكين فانكسر لهم، ولا تشهد السوى، تكن آخذاً من العزيز الغفار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهذا آخر ما تيسَّر على يد من قيَّدته الذنوب، وإن أطلق لسانه وبنانه كرم الغفور الستار.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد معدن الأسرار، وعلى آله وصحبه ما اختلف الليل والنهار.

وكان الفراغ من تعليقه على يد أفقر عباد الله تعالى، وأحوجهم إلى عفوه ومغفرته، الفقير محمد ابن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد اللبان الشافعي الرفاعي، غفر الله له ولوالديه، ولمن قرأ في هذا الكتاب ودعا له بالعفو والمغفرة، ولجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم[١].

* * *

(١) قلت: كمل بفضل الله تحقيق هذا الكتاب في السابع والعشرين من شهر رجب، الموافق يوم الإثنين، سنة ١٤٢٧ هـ، وذلك بدارنا الحقيقة المحمدية لتحقيق كنوز السادة الصوفية، القاهرة. جوال: ٠١٠١٤٦٣٠٢٧.

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الحكم (أُنس الوحيد ونزهة المريد).

فهرس الأحاديث

نص الحكمة	رقمها
القرآن نــزل وتنــزّل، فالنــزول قد مضى، والتنــزُّل باقٍ إلي يوم القيامة.	١
الحق تعالى مستبد الوجود، والوجود مستمد والمادة من عين الوجود، فلو انقطعت المادة لانهدم الوجود.	٢
لا يصلح سماع هذا العلم إلاَّ لَمن حصلت له أربعة: الزُّهد، والعلم، والتوكُّل، واليقين.	٣
الحق تعالى مطَّلع على السرائر، والظواهر في كل نفسٍ وحالٍ، فأيما قلب يراه مؤثرًا له؛ حفظه من طوارق المحن ومعضلات الفتــن.	٤
عليك باستماع كلام العلماء من القوم، فإن الحق تعالى يُجري على ألسنة علماء كل زمانٍ ما يليق بأهله.	٥
إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره.	٦
مَن تحقَّق بالعبودية نظر أعماله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء.	٧
عمرك نَفسٌ واحد، فاجتهد أن يكون لك لا عليك.	٨
ليس للقلب إلاَّ وجهة واحدة، فمتى توجَّه إليها حُجِبَ عن غيرها.	٩
إيَّاك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذة مناجاته.	١٠
البصيرة تحقيق الانتفاع.	١١
أضرُّ الأشياء: صحبة عالم غافل، أو صوفي جاهل، أو واعظ مُداهن.	١٢
مَن رأيته يَدَّعي مع الله تعالى حالاً لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره.	١٣
مَن خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى خالقه فهو ممقوتٌ	١٤
ما وصل إلى مقام الحرية مَن عليه من نفسه بقية.	١٥

المحفوظون على طبقات: محفوظٌ عن الشرك والكفر بالهداية، ومحفوظٌ عن الكبائر والصغائر بالعناية، ومحفوظٌ عن الخطرات والغفلات بالرعاية. ٥٥
مَن أعرض عن الأعراض أدبًا فهو الحكيم المتأدِّب. ٥٦
المحبَّة: الأُنس بالله، والشوق إليه. ٥٧
شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له. ٥٨
مَن لم يخلع العذار لم تُرفع له الأستار. ٥٩
الأسارى: أسير نفس، وأسير شهوة، وأسير هوى. ٦٠
أغنى الأغنياء مَن أبدى له الحق حقيقة من حقِّه، وأفقر الفقراء مَن سُتر الحق عنه. ٦١
الخالي من الشوق مؤخَّر، والآيس فاقد المحبة. ٦٢
للأرواح الرعاية، وللأشباح الوقاية. ٦٣
نافخ الكير إن لم يحرقك بناره آذاك بشرره، وحامل العطر إن لم يحذك من عطره متَّعك بنشره. ٦٤
مَن لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد. ٦٥
مَن عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس. ٦٦
الدعوى من رعونة النفس، والمدَّعي منازع للربوبية. ٦٧
انـــزعاج القلب لروعة الأنبياء أرجح من أعمال الثقلين. ٦٨
أبناء الدنيا يخدمهم العبيد والإماء، وأبناء الآخرة يخدمهم الأحرار الكرماء. ٦٩
الرياضة في المعاملات قطع الالتفات إلى الأعمال، حُجبوا بالأعمال عن ملاحظة المعمول له، ولو لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية الأعمال. ٧٠
الحديث: ما استدعيت من الجواب. ٧١
الغيرة ألاَّ تَعرف ولا تُعرف. ٧٢
الحق تعالى لا يراه أحدٌ إلاَّ مات، ومَن لم يمت لم يرَ الحق. ٧٣
انكسار العاصي خيرٌ من صولة المطيع. ٧٤
حبُّ العُلو على الناس سببُ الانتكاس. ٧٥